

بجواهر القرآن والعلوم

تأليف

فيلسوف التسرق والاسلام

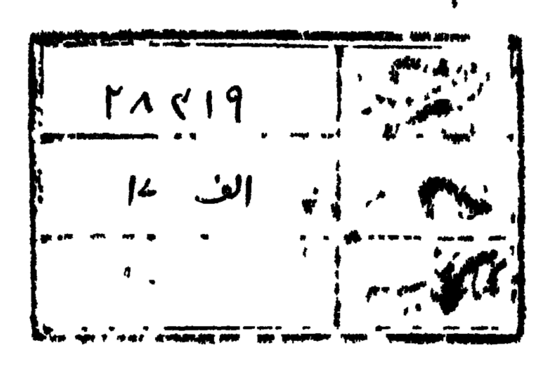
الشيخ طنطاوى جوهرى

وهو الكتاب الذى أرسل إلى جلالة امبراطور اليابان
لعرضه على المؤتمر فى أوائل انعقا

الطبعه الثانيه سنه ١٩٣٣

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
بالخرنفش ٢٥ تليفون ٥١٥٢٢



٢٨٢١٩
الف ١٢

مقدمة كتاب التاج المرصع ـ للطبعة الثانية



لك الحمد اللهم على ما أسبغت علينا من نعمة العلم وما أفضت من الحكمة وما أوليت من النصر والفتح المبين .

ما كان ليخطر لى أيام تأليف هذا الكتاب منذ نيف وعشرين سنة أنه سيعم نشره أطراف المعمورة شرقا وغربا وأنه يترجم إلى اللسان التركى القازانى ببلاد الروسيا وإلى اللسان الأوردى ببلاد الهند ولا أنه سيقرؤه إخواننا سكان بلاد الملايو وجزائر الهند الشرقية واخواننا الايرانيّون والترك وسكان شمال افريقيا وجميع المسلمين فحق لى أن أقول نصر من الله وفتح قريب

لك الحمد اللهم نصرت وأيدت وفتحت وخلقت جيلا جديداً فى الأمم الاسلامية وأنا فى هذه الحياة

وهل كان يخيل لى أثناء تأليفه ان المسلمين فى الصين واليابان والأفغان سيقرؤ نه ويفرحون به أم كنت أظن ان التركستان

الصينية (كما سيأتى) يستقبلون حالا جديدة بعد قراءة هذا الكتاب وأمثاله ويشيدون مدارس على مقتضى ما بينا فيه ويذرون تلك التقاليد العتيقة التى ورثوها عن الآباء قرونا وقرونا اذ كانوا يحرمون النظر فى هذه العوالم فرحين بما لديهم من ظواهر القشور العلمية فى التوحيد وغيره زاعمين ان النظر فى هذه العوالم كالكفر الصراح

أشرقت الأرض بنورك وازينت بآياتك ، ما أسرع التطور الآن وما أقرب التقدم والفلاح فى بلاد الاسلام ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء

ومن أبهج ذلك النور الالهى المشرق على الأقطار الاسلامية فى زماننا ما قصه فى مجلس حافل وفى حفلات عامة ببلادنا ذلك الشاب التركستانى منصور خان امين (الآتى ذكره) ان مبدأ حياته فى ابان صغره كان على نهج ما قصصناه فى هذا الكتاب ، حيرة وتردد وشك وارتياب فى أمر الحياة والدنيا والدين ، حتى إذا أتيح له قراءته انفتح ما كان مغلقا وأسرع هو وآلاف أمثاله إلى السير فى سعادة الحياة وهو الآن يدرس فى جامعتنا المصرية وهاك ما جاء فى جريدة المقطم بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١

تحت عنوان معلومات جديدة عن بلاد تركستان الصينية (كشغر) نصف ساعة مع السيد منصور خان . وصدرها كاتبها الشيخ سعيد درويش من سوريا الباب بمقدمة ذكر فيها أنه لما انصرف من المؤتمر الاسلامى بالقدس الذى كان هو أحد أعضائه قابل الشاب التركستانى المذكور وبعد أن وصفه بأنه يعرف خمس لغات التركية والفارسية والعربية والفرنسية والانكليزية قال سألته :

س : ما السبب الذى حملك على مغادرة الوطن وهل زرت غير مصر من البلاد الاسلامية ؟

ج : كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية فى (كاشغر) والعلوم العصرية قليلة فى بلادنا جدا بالرغم من رقى العلوم الاسلامية والآداب العربية والفارسية

فمنذ عصور قديمة كانت بلادى واخوانى المسلمون غرقى فى لجة الجهالة بحيث لا يمكننى تفصيل أحوالهم الاجتماعية فى هذه المدة القصيرة، فها أنذا أريد الآن أن أرفع من شأن بلادى وشعبى — وهم مسلمو تركستان الصينية — بالعلوم العصرية تلك العلوم التى كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هذا معدودة من أسباب

الزندقة والالحاد فى البلاد بل الكفر ، وان كل من يتعلم علما عصريا يعده قومى مارقا من الدين ، الى ان بزغ فى آفاق عالم الاسلام شمس أحرقت بأنوارها حجب الجهالة فتجلى جمال الحقيقة وأزيل الغطاء عن عيون شباب بلادى جميعا فى بضع سنين الأمر الذى عجزت عنه القرون المتطاولة والمؤلفات التى كانت تصدر آنا فآنا لفلاسفة الاسلام ، وما هذه الشمس التى مزقت تلك الحجب وأحرقتها إلا مؤلفات حضرة فيلسوف الأسلام الأوحد فضيلة الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الذى سحر عقول بلادنا فى مدة وجيزة وأبدع قرنا جديدا فى الحياة الاجتماعية الاسلامية ووفق بين القرآن والعلوم العصرية مما لا يدع مجالا للشك والريب فى أن تلك العلوم هى نفس الدين وأخص بالذكر من المؤلفات التاج المرصع الذى أهداه لميكادو اليابان ونظام العالم والأمم وتفسير الجواهر وكتاب القرآن والعلوم العصرية

ومن العجب أنى فى أى بلاد مررت بها فى سفرى إلى تركيا كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوى جوهرى وفى يده أثر من آثاره القيمة يريد أن يتثقف به أو يثقف به غيره

والحق يقال أن آثار الفيلسوف على ما أعتقد ستؤثر فى عقلية الشعوب تأثيراً يشبه تأثير المصلح فى الدين المسيحى (لوثر) ولما كنت فى بلادى كان شباب تركستان الصينية يتشاورون فيما بينهم أن يشيدوا باسم الفيلسوف الجوهرى جامعة تكون تذكارا لاسمه وتقديراً لأعماله

ان تلك الآثار القيّمة اثرت فى عقلية شبان تركستان الصينية الذين كانوا يتيهون فى بيداء آسيا الوسطى حيارى لامرشد لهم ولا دليل فى عزلة عن الأمم المتمدنة، فلما رأوها أقبلوا عليها وحل فى قلوبهم شوق إلى العلوم العصرية فسعوا إلى منابعها فى جامعاتها فى الممالك المتمدنة الأوربية والاسلامية وإن هذه الكتب الطنطاوية هي التى بعثتنا فى أقطار الشرق والغرب لدراسة علوم الأمم مما حرم منه جميع أجدادنا وآبائنا ، وأنا واحد من أول وفد قام من البلاد وعددنا ثلاثون شابا وقام بعدنا وفد آخر كل ذلك بتأثير حضرة الفيلسوف فهاأنا ذا غادرت بلادى إلى تركيا لاقتباس العلوم العصرية وللارتشاف من مناهل حياضها

— ذكرتم أن فى بلادكم مسلمين فكم عددهم ومن يحكمهم

— عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية

أما المسلمون فى بلاد الصين فانهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلمون باللغة الصينية ويعتادون العادات والتقاليد الصينية ويدينون بالديانة الاسلامية المحمدية وان الذى يحكمهم هى الحكومة الصينية الامبراطورية

— هل تضيق الحكومة عليكم فى دينكم أم هل تقيمون الشعائر بكل حرية

نحن أحرار بكل معنى الكلمة

— هل زرتم غير مصر وتركيا

— الأفغان وايران فى طريقى إلى تركيا

— هل مكثتم طويلا فى بلاد الأفغان

— جلت فى الأفغان ستة أشهر وأن رفيقى أمين أفندى الكاشغرى دخل فى إحدى المدارس الأفغانية مجانا تحت حماية أمان الله خان الملك السابق فحينما ذهبت إلى وزارة المعارف الافغانية أخبرنى معاون الوزير أنه فى صدد ترجمة كتاب نظام العالم والأمم

لحضرة الاستاذ طنطاوى جوهرى إلى اللغة الفارسية لشبان الافغان

قلتم أن كتاب التاج المرصع لهذا الفيلسوف أهداه صاحبه لميكادو اليابان فهل لذلك الكتاب أثر فى تلك البلاد اليابانية

— إن التاج المرصع لما وصل اليابان أكب المسلمون اليابانيون الذين أسلموا منذ ربع قرن بارشاد المشهور عبد الرشيد ابراهيم السياح والآن فى اليابان على ماسمعت من بعض الثقاة أكثر من عشرين ألف مسلم يابانى فصار هذا الأثر النفيس (دولة) أى تتداوله الأيادى وأثر فى زيادة محبتهم لدينهم والآن ينتشر الدين الاسلامى بتأثير ترجمة هذا الأثر انتشارا واسع النطاق اه ماجاء فى المقطم .

ثم هاك ما كتبه الفاضل التركستانى المذكور فى تاريخه أدناه يصف به هذا الكتاب و يحرض شباب الشرق الأقصى على قراءته قال :

حينما بدأت فى أن أكتب تقريظا لهذا الأثر الجليل حول فكرى قلمى سنطر هذا الشرق . هذا الشرق المسكين الاسير ، هذا الشرق الضعيف القوى . هذا الشرق العزيز الذليل ،

هذا الشرق النجيب ، الذى كان منبع الحضارة البشرية ومهد العلوم والحكمة . هذا الشرق الذى ربى فى حجره قادة للفكر الانسانى ، هذا الشرق الذى علم الانسان مالم يعلم . هذاوما أدراك ماهذا الآن ؟ إنه الآن عبارة عن مستعمرات الغرب أهلها أسارى أوروبا . وما كانوا بأسارى ولكن عفريت ذكاء الأنسان المدنى المتقدم أفسد هذهالنفوس الذكية الابتدائية الجاهلة الطاهرة فأيقظ مطامعها فسهل أسر هذا الشرق المسكين . فهو يبكى الآن متألما مما ألم به ويدعو أبناءه المخلصين لتحريره بقدر الأمكان واعادة مجده التليد الذى زال .

وأنا أخاطبك دائما كما خاطبتك من قبل أيضا أيها الشباب الشرقى ! إلك أيها الشباب الشرقىالنبيه ، إنك . . . . أنت مفتاح مستقبل الشرق . أخاطبك ، إذ أنك فقط مخاطبي . قلبك الصافى وعقلك الحاد المتوقد ووجدانك الحساس الشاعر يصرف خطابى وقلبي دائما اليك عن أوائك الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وأفسدهم المجتمع . وأنت لم تخرج بعد إلى ساحة الحياة الاجتماعية ولم تختلط كثيرا بالمجتمع ولم يفسدك بعد . فقلبك صاف كمياه

الامطار حينما فارقت قطراته السحاب وحينما هي ساقطة في الهواء
فأنت لم تتلوث بعد بالادران الدنسة القذرة. فلا أرى في مرآة
نفسك إلا الأمانة والصداقة. فأنت لا تعرف الكذب والرياء
والخيانة والغدر. والمجتمع الغدار لم يلوثك بعد بهذه الأخلاق.
لهذا أردت أن أخاطبك بشيء مما يجيش في قلبي. وإن كنت
قد أقسمت ألا أخاطب أحدا من بني الانسان وألاّ أكلم
إلا تلك الطيور حينما تجمع واحدة منها أوراقا من الأشجار لتبني
وكرها تحت افريز سقف. وألاّ أعاشر إلا جماعة هذا النمل
الذي تتماشى أفرادها في طريق مستقيم ويحملون حبات من الحنطة
إلى بيوتهم. ولا يتجادلون ولا يتحاربون فيما بينهم كما يتقاتل
مجتمعات الانسان. فان هذه الأمم التي أحببتها أنا لا يتصف أحد
منهم بتلك الأخلاق الذميمة التي تأتي وتنبعث عن العقل الانساني.
فهم برآء من العقل.

فأنت كذلك أيها العقل الشاب مخاطبي. ولعلك أيها الشاب
الشرقي الذي سيقرأ لاشك هذا الكتاب حينما أكتب هذا
الخطاب تعيش في بلادك بين عائلتك ولست غريبا مثلي أو انك

غريب مثلي أيضاً . ولكنك حاضر عندي. وبلادك أيضاً حاضرة عندي . فحينما أنا أخاطبكم ، أيها الشبان المصومون الذين يجولون على أفراسهم على سفوح جبال التاي وتيانشان ! ويا اخواني النجباء الذين يروحون ويغدون بين كابل ومدارس دار الأمان ! ويا أيها الشبان الذين يتفسحون في أيام مسامحتهم على سواحل نهر « ركناباد » وحديقة السعدي ؛ ويا أصدقائي الذين يتفرجون كل جمعة ويبحرون في البوغازين؛ وياشبان الهند والجاوا والصين والعالم العربي ! حينما تجتهدون لتأمين مستقبلكم لا تنسوا وطنكم العزيز الشرق واسعوا لرقية ونهضته وتقدمه . ولا يمكنكم أن تنهضوا أمتكم إلا عن طريق الاصلاح الديني . فكلكم تعرفون أن الشرقيين إلى هذا الآن يعتقدون بالتدافع والتضاد بين الدين والعلوم الحاضرة . وهذا الاعتقاد هو أساس كل مصيبة أتت وتأتي على رأس الشرق . وهو الذى أخر الشرق وعوق رقيه . وهذا الاعتقادهو الذى يستعمله المستعمرون ويستفيدون منه في جميع أغراضهم السياسية فيضربون المتنورين بالمتعصبين . فعليكم أيها الشبان الشرقيون أن تسقوا أمتكم العطشى بزلال المدنية والعلوم

الحاضرة من حوض كوثر القرآن الحكيم. فان الحقائق العلمية التى أتى بها القرآن، وان بقيت مخبأة عدة من القرون، قد كشف عن غطائها فيلسوف شرقى حبذه علماء الغرب كما حبذه المحققون المخلصون من فلاسفة الشرق، فكتب هذا الفيلسوف النابغ ستتكفل بانقاذ الشرق من هذه المصائب الحاضرة. ولا شك أن الشباب التركستانى الصينى والشباب الصينى أول من سيهتم بها كما اهتم من قبل.

فهذا الفيلسوف الشرقى الأكبر الذى قد عرف عقلية الامم الشرقية قد أهدى اليهم ما كانوا يتمنون ولكن لا يجدون. ألا أيها الشباب الشرقى ! أن للنهضة الفكرية بين الأمم طريقتين الثورة الدامية المخربة. والاصلاح الهادىء المعمر. واعتقد أن الطريقة الثانية هى التى تنمو الآن فى الشرق. وأهم هذه الاصلاحات هو الاصلاح الدينى وهى الطريقة التى أتى بها الفيلسوف المصرى طنطاوى جوهرى فاقرأ آثاره وطبق ما يقول فيها على بلادك. وارشد شعبك إلى الحياة السعيدة المصرية عن طريق القرآن. و... سير الطنطاوى، واذهب إلى أنحاء وطنك ماشيا وعلم أبناء

بلادك بالخطب والمواعظ والجرائد ، أن القرآن يدعوهم إلى العلوم الحاضرة والحضارة المعاصرة فان أعرضوا عنه فما عليك الا البلاغ المبين فلا يبالى ربهم فى أى واد هلكوا . وما ربك بظلام للعبيد وأنا موقن بما سيتم من الرقى القويم . ولتعلمن نبأه بعد حين

منصور جنكيز خان التركستانى

القاهرة فى ٣ / ٧ / ٣٢

وهاك الصورة الشمسية للمقدمة التى صدر بها الكتاب الأستاذ ذاكر القادرى فى ترجمته إلى اللغة القازانية

مترجم طرفندن بر قاچ سوز

امت اسلاميه نك افرادندن اولان هر مسلمه حقيقت اسلاميه يه وجامعهٔ محمديه يه كندى اقتدارى درجه سنده قوتنى صرف ايدوب فائده كتورمك فرضدر. حركات وسكناتندن وجميع اعمالندن الله وامتى عندنده مسؤلدر «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» حديث شريفى، دين اسلامك سياسى. و ادبى اولان قواعد جليله لرندن بريدر. اشته بنده بو امتنك بر فردى اولديغمدن امتمه بيوك فائده كتورميه مقتدر اولماديغمه تأسف ايدوب امتمه جزئى اولسه ده فائده اولسون ديه رك مصر القاهره نك الك متنور وملتپرور علماسندن و استاذنا الامام ومفيد الاسلام الشيخ محمد عبده حضرتلرينك نائب حقيقيسى اولان استادمز فيلسوف طنطاوى جوهرى حضرتلرينك تأليف عديده سندن برى اولان «التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم» نام كتاب جليلنى ترجمه يه شروع ايتدم.

مؤلف حضرتلرى بو كتابنده قرآن شريفى علوم ادبيه كه تطبيق ايده رك تفسير ايدوب جزء جزء اوله رق تأليف ايله چكدر مؤلف حضرتلرينك اشارهسنه بناء عربجه سى طبع اولمازدن اول ترجمه سنده استمرار ايده چكم. كتابده مذكور آية قرآنيه نى مجمل اوله رق تاتارچه تفسير ايدوب خط مستقيم التنده يازاجغم عربجه انشاء وتحرير ايلان هر كون اوغراشتده ايسه مده تاتارجه يازى يازمق ايچون اول مرتبه اوله رق المه قلم آلديغمدن قارئلريمز تحريرمزده اولان قصورلريمزنى عفو ايدوب مدرسه لرمزنك انتظامسزلغنه حمل ايده چكلرندن اميدم. لسانمز ناقص واكثر مصطلحات ادبيه نى ترجمه ايچون لغتمزده هيچ برماده، ومراجعت ايچون قاموسمز اولماديغندن ادبى كتابلرى ترجمه نه قدر مشكل اولديغى اديبلرمزه معلومدر. ذ. القادرى «مصر القاهره»

ثم هاك الصورة الشمسية التي صدر بها ترجمته الى اللغة الأوردية الاستاذ محمد حليم أنصارى بلاهور بالهند

گذارش مترجم

جاپان میں تحقیق مذاہب کا جلسہ ہونے کی خبر سُنکر دنیا کے ہر گوشہ سے ہر ایک مذہب کے علماء نے شرکت کا ارادہ کیا۔ اور مسلمانوں میں بھی طبعاً اس امر سے ایک تحریک اپنے مذہب کی تبلیغ کی پیدا ہوئی۔ کانفرنس مذاہب کا تو نام ہی نام ہُوا۔ مگر اس سلسلہ میں بعض مسلمانوں کو تبلیغ اسلام پر مناسب اور حسب ضرورت وقت مفید رسائل تالیف کر دینے کا خیال سوجھ گیا۔ ہندوستان میں زبانی غل وشور ہوتا رہا۔ اور مصر میں جہاں کے مسلمان عربی مادری زبان رکھتے ہیں۔ اور علوم مغربیہ سے بھی خاصے باخبر ہیں۔ چند رسائل اِس موضوع پر بہت اچھے نکل گئے۔ اِن میں سے ایک رسالہ "سفیر اسلام" مولفۂ محمد فرید وجدی کا ترجمہ خاکسار مترجم نے پہلے ہی کر کے بطور خود شائع کر دیا۔ جو کہ نہایت مختصر تھا۔ اور الحمد للہ کہ وہ مقبول ہُوا۔ اور اُسی کے ساتھ کا دوسرا رسالہ شیخ طنطاوی جوہری کی تالیف موسوم بہ "التاج المُرصّع بجواہر القرآن والعُلوم" بھی ترجمہ کے لئے زیر تجویز تھا کہ اتفاق سے جناب فضائل مآب مولوی محمد انشاء اللہ خاں صاحب مالک و ایڈیٹر اخبار وطن لاہور کے کارخانہ سے میرا تعلق ہو گیا اور آپ میں سے ابنائے ملت کو زیادہ عرصہ تک اِس قابل قدر رسالہ کے مطالعہ سے محروم نہ رکھنے کا فیصلہ کر کے اُسے "جواہر قرانی" کا نام دے کر سلیس اردو میں ترجمہ کر دیا۔ اور اپنے غیور و باحمیت ہمدرد قوم مخدوم کی عنایت سے یہ عمدہ قومی اور اسلامی خدمت بجا لا سکا۔ اب اِس کام کی قدر دانی قوم کے ہاتھوں میں ہے۔ واللہ الموفق۔

۲۶ رفروری سنہ ۱۹۰۸ء

محمد حلیم انصاری

رودولوی۔ نزیل۔ لاہور

مقدمة الطبعة الأولى

طالما خطر لى أن أضع نموذجاً لعلوم الدين الاسلامى يتضمن مايطلبه من الحقائق وما يألفه من الحكم حتى قام قائم الحركة الفكرية فى دولة أبناء الشمس المشرقة باليابان ، فرأيت أن أبرز الفكر إلى العمل، فوضعت كتاباً سميته التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم ، وذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩٠٥ ثم اتفق أن رأته لجنة برأسها صديقى العلامة الفاضل محمود بك سالم فاهتم بترجمته إلى لغات أوربا ونشره فى أرجاء المعمورة شرقا وغرباً فعسى الله أن يكلل عمله بالنجاح ، وها هو ذا يترجمه الآن شاب قازانى إلى اللغة التركية كى يعم نشره فى بلاد العجم والترك والروس ثم بعد ذلك عقد مؤتمر اليابان فى سنة ١٩٠٦ أى فى هذا العام فصرت أقدم رجلا وأأخر أخرى أأرسله إليه وهو باللغة العربية أم أتربص انجاز وعد صديقى محمود بك سالم بالترجمة وبينا أنا كذلك إذ اقترح علىّ أخ لى صديق أن أهديه إلى أمبراطور اليابان ليعرضه على

هيئة المؤتمر فانشرح صدرى لذلك فأرسلته بخطاب إلى جلالة الميكادو وهذا نصه :

جلالة الأمبراطور العظيم ملك اليابان

أرفع لجلالتكم التبجيل والتعظيم وأقدم لكم كتاباً ضمنته إجمال ما زاولته من حقيقة الدين الاسلامى فى الجامع الأزهر الشريف وما طالعته من أسفار الأوائل حكماء العرب وفلاسفة اليونان وما لاحظته من العلوم العصرية ومقارنتها بالقرآن الشريف فى المدارس المصرية ولذلك سميته التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم وأنى من مبدأ حياتى مغرم بالبحث عن الحقائق العلمية ومقارنتها بالأديان بحرية الفكر

وأن أعجب شيء فى حياتى وأجمله أن أرى ملكا عظيم الشان مثل جلالتكم يوجه النفوس إلى ما اشتاقت إليه نفسى وهام به فؤادى من هذا المقصد الشريف العالى ، فلم أر بداً من جمع حقائق وعاها الصدر واشتغل بها الفكر وإهدائها لجنابكم اعظاماً واجلالا وقياماً بشكر الله على أن فيض لامالم فيكم ملكاً ناصراً للعلم والحكمة أهديه لجلالتكم باللغة العربية لغة الدين الاسلامى وعجلت به

إليكم قبل أن يترجم إلى لغة أخرى من لغات التخاطب فى المؤتمر خيفة فوات الفرصة ، فانى أرجو أن يعرض على هيئة المؤتمر ، وعسى أن يقرأه من أعضائه من جمع بين اللغتين باتقان ، فان وصل الكتاب متأخراً بعد انفضاض المؤتمر فانى أرجو عرضه على حكماء دولة اليابان العظيمة مترجماً بأمركم ، فلعل فى شبان اليابان من يرى فى سلسلة هذا الكتاب ما يوافق مشربه من البحث وإن علمت نتيجة ذلك من بعد فانى لجلالتكم من الشاكرين

وقد كان ارسال الخطاب والكتاب فى أوائل انعقاد المؤتمر ولما كان نشره فى وطنى وأبناء جنسى أوجب وألزم وأحرى وأحق أردت طبعه ليعم نفعه أبناء البلاد

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم وأصلى وأسلم على نبيك وأتقرب لجنابك الرفيع زلفى بابراز ما أكنه الفؤاد من علوم الدين الاسلامى إلى مشارق الأرض ومغاربها . فسأوافى الشرقيين والغربيين بما اقتبسته من فرائده وما نظمته من قلائده واستمنحك اللهم روحاً عالية وقوة قدسية تمدنى بها حتى يبلغ الكتاب أجله، وينال عبدك أمله ويصبح هذا الكتاب منهلا عذباً للواردين ومتبوأ صدق للمتفكرين ولأذكر نموذج وقائعى المتتابعة موسومة بالجواهر فأقول : —

﴿ الجوهرة الأولى — مبدأ نظرى فى العالم ﴾

خلقت بطبعى أميل إلى النظر والتأمل فى العالم فكانت السنة عندى نصفين نصف أقضيه فى الدرس والطرس فى الجامع الأزهر الشريف فى القواعد العربية والمسائل الفقهية كالمعاملات

والعبادات العملية، فإذا عدت إلى الحقول والمزارع فى النصف الآخر أجلت فيها النظر وسرحت فيها الفكر، فأرى جمالا باهراً ومنظراً زاهراً وحسناً ناضراً وسلطاناً قاهراً ، فما تركت فاكهة ولا أبا ولا نجما ولا شجراً إلا تأملت أشكالها الظاهرة ومحاسنها الناضرة وروائحها الذكية وألوانها الزاهية الباهية، فأقول ياليت شعرى ألم يك هذا النظر أولى بمدارسنا الاسلامية، أو ليس الذى خلق السماء فسواها . والأرض فدحاها . والأنهار فأجراها . والنبات فأنماها. والأشجار فأثمرها . والأثمار فكورها . والأزهار فنورها والروائح فأحسنها وصورها فزينها ، هو الذى خلق الأجرومية والنحو وفرض الصلاة والزكاة وأجرى القرض والبيوع ورتب الميراث والحدود، ولماذا لم يفرض علينا أن نلم بأطراف ماذرأ فى الكائنات وما أبدع فى المخلوقات، ثم أظل نهارى مفكراً فى ذلك فاذاجن الليل وأرخى سدوله علىّ أخذت أفكر فى النجوم وجمالها . والسماء وبهائها والارض وجلالها وأحضر القرون الخالية والوحوش السائحة، ثم أرجع الى من ذرأها وبرأها فأجد أساتذتى لايحومون حول ذلك إلا عرضاً وينبذونه نبذاً وغاية مايقولون ان هذا العالم

حادث والحادث لا بد له من محدث ، أما التعويل على حكمه وآياته والاعتراف من ينابيعه وأنهاره فذلك منبوذ نبذ النواة . فاذا رأوا مسائل طبيعية فى كتاب قالوا فليقفل هذا الباب . فظللت حائرا بين نظرى والدين والتقليد واليقين . ومن العجب انى رأيت العلماء يقولون لا يصح الايمان إلا بالعقل والبرهان . لا بالتسليم والاذعان فان نظرت الى تعاليمنا أجدها تقليدية وان نظرت ورجعت إلى فطرتى ألفيتها تسعى إلى اليقين

﴿ الجوهرة الثانية — مقارنة الأديان ﴾

ومما زادنى شغفاً وأضنانى حزنا وأشعل فى فؤادى نار الطلب انى قرأت يوما فى قانون القرعة العسكرية ان للدين النصرانى لاهوتا وانهم يظلون يبحثون عن الخالق بعقولهم فكاد يغشى علىّ إذ ذاك وقلت إذن هم يبحثون كما نحن باحثون ويعلمون كما نحن عالمون ، فأى الفريقين أحق وأى الحزبين أصدق . وما زلت أروح وأغدو فى تيهاء تلك الحيرة وبيداء تلك الفكرة حتى اهتديت إلى تاريخ حياة الامام الغزالى رحمه الله تعالى المتوفى فى أوائل القرن السادس فرأيته درج على مادرجت عليه حتى اهتدى وذكر السر فى حيرته والهدى فى أوبته ففهمت رمزه وعرفت خبره

﴿ الجوهرة الثالثة — العالم والصانع ﴾

ثم كررت أحث ركاب الطلب فى البحث عما شغل الفؤاد من العالم والصانع فوجدت فؤادى يتقد حرارة وشوقا وولوعاً لادراك سر هذا الوجود ومعرفة صانعه ، ولكم حاولت تحويل القلب وارجاع الفكر واخماد الجذوة فلم يرعو الفؤاد ولم يزدجر العقل ، بل لاحظت انى كلما لويت عنانه جد فى الطلب وحث ركاب التسيار ، وكان أمامى خلة من خلتين أما ان أعلم ان هذا العالم موزون بميزان سائر على نواميس متقنة محددة ، فأقر بصانع قادر عالم مدبر له . واما ان أعلم انه مبعثر غير محكم فأقف موقف الكليل الطرف الحسير وأيأس من كل ماأسمع من الموجودات العالية

﴿ الجوهرة الرابعة — تعليم التوحيد ﴾

طلبت هذه الحقيقة من علم التوحيد فقرأت فيه ببراهين أشبه ببراهين الهندسة فى شكلها فينظمون المقدمات ويستنتجون النتائج لا يلوون على العالم ونظامه وما حواه من حكم وغرائب وأحكام وبدائع بل يفرضون الفروض ويبرهنون على وجود الصانع مثلا بأن العالم حادث وكل حادث لا بدله من محدث والاله

واحد، ولو كان إثنان لحصل خلل، وهو قادر ويبحثون عن القدرة هل هى صفة زائدة على الذات أو عين الذات وهو موجود والوجود هل هو عين الموجود أو غيره، ولا يزال البحث هكذا . فبهذا ترى خواص المسلمين صرفت عقولهم عن العالم وما أودع فيه من الجمال والترتيب والنظام ، بل نكتفى بأن نعرف الله بتلك البراهين ومتى حصلناها تقنع النفوس بأنها عالمة وأن لحوى العالم وما فيه أن نعرف الله ونقول هى مصنوعاته ولا عبرة بالصنعة من حيث اتقانها وابداعها ، وربما يذكرون الاتقان عرضاً واجمالا لا قصداً وتفصيلا ، فلما قرأت علم التوحيد أورثنى بعض الاقناع ولكن ألحت علىّ النفس فى مطلبها واسترسلت فى مشربها وجدّت فى سبيلها وزادت فى غلوائها وأصرت على مقصودها فكررت راجعاً إلى القرآن العزيز وهو لا يقرأ إلا للبركة لا ليفهم معناه عادة

﴿ الجوهرة الخامسة — النظر فى القرآن الشريف ﴾

ولاذكر لك قبل الكلام على القرآن مقدمة توضح المقصود فأقول . جاء القرآن والامة العربية فى بداوتها فشغلتهم الفتوحات فى القرن الأول وما زالت دولة الأمويين وخلفتها دولة العباسيين

حتى استتبت الفتوحات ووقفت الحركات وأخذوا يجنون ثمار ما غرسوا فى الدولة السالفة فمدوا أيديهم إلى كتب اليونان فترجموها واستعانوا بعلماء فارس إذ دخلوا فى دين الله أفواجاً فاستمدوا من اليونان كتبهم ومن الفرس رجالهم فشغل الناس بتلك الفلسفة وهى كما فى اخوان الصفا غامضة صعبة المراس ترجمها قوم ترجمة لغوية لا معنوية فاعتاصت على قارئيها وأخذت بالناس إلى مهاوى وفيافى، وأضلت أهل العلم فى الأرض حيارى وأصحابهم يدعونهم إلى الهدى فلا يهتدون ، فترى أمثال ابن سينا والفارابى زعماءهم وابن رشد والغزالى خصمان فاحتدم بينهم الجدال والنضال فى ميدان المناقشات ولم يك للناس شغل شاغل إلا أن هذه العلوم تنافى الدين وتناضله وتناوىء القرآن ، وأضحى عامة المسلمين من الأدباء والفقهاء يقولون هذه كفر هذه فلسفة تنافى الدين . هذا كله فى العقائد الاسلامية والعلوم الكونية، وترى أمثال الشافعى رضى الله عنه وسفيان الثورى وأبى حنيفة وصاحبيه ومالك وابن حنبل دونوا الفقه للعبادات والمعاملات والحدود والجنايات وتقسيم المواريث . فانقسمت الأمة اذ ذاك فريقين

فريق يبحث عن الفلسفة وآخر فى الفقه ، فالفلاسفة هجروا القرآن بما استغرقوا أوقاتهم من شغل شاغل ، والفقهاء اذ اكتفوا بما استنبطه المجتهدون قبلهم حرموا الاجتهاد ورجعوا الى ما صنف شيوخهم حتى انك لترى الأحكام فى هذه العصور مبنية على عرف الأعصر الأولى . وبالاجمال ان خاصة المسلمين وعامتهم بما شغلهم من الحروب الفادحة وظلم الملوك واستبدادهم نبذوا القرآن والنظر فيه ظهريا، واكتفوا من العلوم الكونية برشحات الفلسفة اليونانية ، ومن الفقة بمصنفات شيوخهم الغابرين وعلمائهم السالفين، وما جاء الزمان الذى تعلمت فيه إلا والقرآن لاينظر فيه إلا تبركا ولايجوز لأحد الاجتهاد فيه، وطالما سمعت من شيوخى أن طلاب العلم يحرم عليهم التفسير إلا بالتلقى من الشيوخ والشيوخ لا يفسرون إلا بما دونته صحف الأوائل ، ويعتقدون أن لن يفتح على أحد بمثل ماعرف الأولون ، بل إن كتب الشافعى ومالك أصبحت لدينا الآن بمنابة القرآن فى أن فهمها اعتاص على الناس فكل طبقة تنزلت فى أفكارها عمن قبلها . وهناك طائفة ثالثة نظروا فوجدوا الناس انبهروا من هاتين الطائفتين حيرى بين

الفريقين سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الجدال والخلاف على العقول شديد ، فاجتهدوا أن اخترعوا أحاديث لفقوها وأكاذيب ابتدعوها ونسبوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم ترد فى الصحيح خصوصا بفضائل سور القرآن كما فى الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ولما سئل بعضهم قال قصدت بهذه الأحاديث وافترائها أن أصرف وجوه الناس عن أمثال أبى حنيفة وفقهه الى القرآن فكان ما أراد وكثر قراء القرآن لمجرد التبرك وترك الناس المعنى ونبذوه نبذا ظهريا حتى زماننا هذا

﴿ الجوهرة السادسة — حالى عند النظر فى القرآن ﴾

لا عجب بعد أن سمعت هذه المقدمة إذا تلوت عليك من آيات العبر والمدنية والرقى والحضارة فى القرآن وقد غفل عنه المسلمون. نعم لا عجب إذ قام عالم أمريكى يباحث العالم الخراسانى فى الدين الاسلامي فى هذه الأيام ويقر العالم الأمريكى بحقيقته ويكتب فى الجرائد بذلك فى هذا العام فترد تلك الجرائد عليه بأن هذا دين المتوحشين والبرابرة ولو كان كما تقول لرقاهم وأزال عن أعينهم الغشاوة. وأنبت فيهم نباتا حسنا ، أين آثاره . أقوام لاخلاق لهم

جهلاء جامدون هذا كله قرأناه فى هذا الأسبوع فى جرنال العالم الاسلامى فلا يعجب الغربيون بعد هذا البيان الذى رسمناه إذا رأوا فينا إعوجاجاً وجهلا، فقد ظهر الحق لذى عينين. إذا كان هذا حال الأمة من أمد بعيد فكيف تكون حالى وأنا بين أقوام حرموا على الناس ورود مناهل الكتاب الحكيم، فلما حاولت الاهتداء بالقرآن رأيت من بين يدى سداً ومن خلفى سداً وانبعثت أبالسة الوهم وشياطين الجهالة تحوم حول العقل وتمنعه من الاقتباس وتحرمه من الاستضاءة بمشكاة نور القرآن فكسرت تلك الاغلال وفتحت تلك السدود. وجاوزتها إلى المعانى ولكن لا ألبس الأمر على القارىء، إنى ما كسرت تلك الاغلال، ولا نبذت تلك القشور إلا تدريجا شيئا فشيئاً قليلا قليلا ثم تلقيته عن الأشياخ وبعد ذلك نظرت فى علوم الغزالى فرأيت الرجل بحراً خضما ومصلحا عظيما وطريقته فى تعليم الشريعة والتوحيد الجمع بين مصالح الدنيا والدين. وأول ما اتفق لى من القرآن إنى كنت أقرأ فى أثر (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لقد أنزلت على الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتدبرها ويل له ويل له ثم قرأ

قوله تعالى: (إنَّ فى خَلْقِ السموات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التى تَجرى فى البحرِ بما ينفعُ الناسَ وماأنزلَ اللّهُ من السماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها وبثّ فيها من كلّ دابةٍ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخّرِ بينَ السماء والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلون) فقرأت هذه الآية وعرضتها على عقلى ثم طفقت أنظر بنفسي فى السماء والأرض والسحاب والماء والهواء وأوازن القول بالعمل وأتأمل تلك العجائب المدهشة، وأقول ان الناس يعيشون ويموتون وهم غافلون لا يفكرون. ثم أخذت أبحث فى آيات أخرى فرأيتها كثيرة جداً كقوله تعالى (قُلِ انظروا ماذا فى السمواتِ والأرضِ) وقوله (أوَلَمْ يَنظروا فى مَلَكوت السمواتِ والأرضِ وما خلقَ اللّهُ من شيءٍ وأن عسى أن يكونَ قد اقتربَ أجلُهم فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون) وقوله (إن فى السمواتِ والارضِ لآياتٍ للمؤمنين وفى خَلقِكم وما يَبُثُّ من دابةٍ آياتٌ لقومٍ يوقنون واختلافِ الليلِ والنهارِ وما أنزلَ اللّهُ منَ السماء مِنْ رِزقٍ فأحيا به الأرضَ بعدَ موتِها وتَصريفِ الرياحِ آياتٌ لقومٍ يَعقلون تلك آياتُ اللّهِ نتلوها عليك بالحق

فبأى حديث بعدَ الله وآياتِه يؤمنون) كنت أقرأ هذه الآيات وأنظر معانيها وأتأمل فى الحقول والمزارع والأعشاب والاشجار والاثمار والحيوان

﴿ الجوهرة السابعة — الشوق إلى العلوم ﴾

لما قرأت هذه الآيات وعرضتها على العقل وأخذت أنظر فى الكائنات فرحت بها فى بادىء الأمر ثم ظهر لى أن لها مقادير وحسابا منظما فكنت أرى الاشكال مستديرة وبيضاوية والاثمار ذات مقادير وطعوم وروائح وألوان مختلفة ولا أدرى ما الأسباب المؤدية لذلك ولم اختلفت المقادير والأشكال والألوان فازداد شوقى للعلوم والحكمة والطبيعة والفلسفة والكيمياء وعلم الحيوان والانسان والتشريح والنفس والرياضة من الحساب والهندسة والجبر والفلك، فأخذت أقرأ بقايا الفلسفة القديمة بالأزهر الشريف إذ كنت أقرأ مباحث الأفلاك اليونانية والطبيعية والأرضيه والمعدن والنبات والحيوان والانسان ومعرفة الاله وصفاته واليوم الآخر، ورأيتهم يقولون بلزوم معرفة العالم أجمع حتى يكون الانسان حكيما، ولكنى رأيت المباحث مبتسرة ناقصة فبحثت عن منبع غير

هذا، فأذن الله فدخلت مدرسة دار العلوم، فلعمرك ما كنت لا اعلم أن فى العالم كله فلسفة سوى ما درسنا ولا طبيعة غير ما قرأنا وكنت أظن كما أخبر ناشيوخنا ورسخ فى نفوسنا اننا أرقى العالمين ولا يعرف أحد سوانا شيئاً، فلما دخلت المدرسة وسمعت أن لديهم الطبيعة والكيمياء أخذت أدرسها هى والحساب والهندسة والجبر والفلك وكنت أرى أن دينى يطالبنى بذلك إذ رأيت القرآن ذكر هذه الأشياء فى نحو ٧٠٠ آية فتقرر فى عقلى أن من أمكنه معرفة هذه العلوم وجبت عليه ومن ظهرت له الحكمة فأعرض عنها واتبع هواه زلت قدمه وساء مثواه

﴿ الجوهرة الثامنة — هل العالم منظم (إيضاح لما مضى) ﴾

كنت أرى فى النفس شوقاً أن أقف على حقيقة نظام العالم فكان يظهر لى بادئ بدء أنه غير منظم ولا محكم بل هو مبعثر مشوش غير محكم الترتيب كما أشرت إليه فيما مضى وطفقت أكل أمر التصديق بمبدع هذا العالم الى الوقوف على حقيقته ونظامه وطالما قلت فى نفسى إذا علمت أن العالم منظم وأيقنت به فإنى لا أرى بداً من الجد والتسبيح فى رضاء صانعه وصرف الوكد إليه

والعمل الخالص لوجهه ما دمت حيا ، فأما إذا لم تظهر لى بارقة علم ساءت الحياة وضلت الوجهة وكان الخسران . طالما برزت إلى الحقول والنسمات تغنى على أعواد الأغصان بنغمات طبيعية والأثمار تتهادى طربا والأزهار باسمة عجبا وأفئدة المغرمين بالمعارف تصبو شغفاً وتتيه عجباً وعجباً ولسان حال البرق ينطق بمحاسن الجمال ويعبر عن مكنون الكمال، والرعد يقود جيوش العلم ويهزم جحافل الجهل ويزأر ويصول ويجول فى الجو ينادى ذوى النفوس الجامدة والعقول الخامدة ويزجر الجاهلين يحشرهم فى محشر وصعيد واحد ليسمعوا آيات العبر ، وصنوف الحكمة ليحكم بينهم بالحق وينقسمون فريقين ، فريق إلى سعادة العلم والنعيم، وآخر إلى شقاء جهنم الجهل والسعير. هذه المحاسن والبدائع لا تتجلى إلا لذوى النفوس والفطن الصافية والعقول المنيرة . نفوس استعدت للحكمة فصفت وراقت فقبلت نقوش الحكم وصور الجمال فى ألواحها . فما من هبة نسيم فى نافذة أو غصن إلا ولها معنى يبرزه صوت الحكمة أرسل من المصادر العالية إلى تلك النفوس فتوحى إليها بأسرار يعجز عن إدراكها أولئك الغافلون . فاذا أصغى حكيم إلى تلك الكلم

الهوائية سمعها تطالبه بالتحقق من سر هـذا العالم وهل هو منظم أم هو مبعثر وهل نحن نعيش عيشة مهملة أم هناك نظام شملنا بياطنة . تلك الحقيقة كم قطعت دونها الاعناق وضل فى طريقها أقوام برعوا فى النحو والفقه والعربية وما شاكلها . لم يكن الوجدان وحده مطالبا بذلك العلم بل الكتاب الحكيم يقول : (١) (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢) (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاها وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) (٣) (وكلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) . (٤) (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تطغَوْا فِى الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) قد فسر الميزان بأنه نظام كل شىء فى العالم بحيث يكون كالموزون لا يزيد ولا ينقص وقوله ألا تطغوا فى الميزان يلزمنا أن نقلده ونحو نحوه فيما نزاوله من الأعمال وما نحاوله فى معاشنا فلا نطغى فى ميزاننا ولا نجاوز الحد فيه فنزيد إذا وزنّا على غيرنا ولا نخسره نبخسه وننقصه إذا وزنا لغيرنا وبعنا شيئاً واننا بذلك نقرب منه

ونصنع كما يصنع فى العالم ويهندسه لناويحكمه لعباده (٥). (إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (٦) (وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) (٧) (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) ولا معنى لعلم ما فى البر والبحر وعلم ما تحت الثرى والرطب واليابس ووضع هذا فى كتاب إلا مع ترتيب وإحكام ونظام وأسباب ومسببات وإلا كان العالم مشوشاً فالعلم به على مقتضاه لا يكون علما (٨) (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) والقدر وضع الأشياء بمقادير محددة معينة وأوضاع معلومة وأحوال متناسقة ثم يقول ان أمره سريع كلمحة واحدة بالبصر ونظرة بالعين كما فى البرق والكهرباء وأحوال القلوب وأعمال الغيوب وهذه مرتبة كسابقتها منظمة متقنة كأخواتها (٩) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقٍ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) أى أحوال العالم متناسقة درجات بعضها فوق بعض مرتبة ليست مبعثرة بل هى منظمة (١٠) (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) يقول ان الوزن يوم القيامة حق وهل يكون حقاً الا اذا كان الموزون وهى أعمال الدنيا موزونة صدقا بميزان عدل

﴿ الجوهرة التاسعة — المباحث المناسبة لنظام العالم ﴾

كنت اذا سمعت تلك الآيات أجدنى لا أزداد الا طلبا فأقول ياليت شعرى من لى بأن أقف على هذا النظام ومن أين يصل الى أن كل شيء عنده بمقدار وبأى سبيل ينال قلبى التصديق بذلك والوقوف على حقيقة هذا، ووددت لو أكون فى سرب مختفيا مجهولا لايؤبه بى وأصل الى الوقوف على تلك الحقائق وأنال أمنيتى وكنت أطوف على شواطىء البحار وحافات الأنهار وضفات الخلجان ألتمس حجرا مرسوما جدداً وخطوطا منتظمة أو أرى حيوانا فيه آثار منتظمة ومتقنة لعلى أشم لهذا النظام رائحة، وتارة كنت أعثر على حشرات صغيرة بين الأعشاب ذات خطوط منتظمة مختلفة الألوان باهية زاهرة فكنت أتنسم منها نسيم الحكمة ومبادئ العلم . وما كان أشد شوقى إذ ذاك وولوعى وجدى فى الطلب وتشميرى واسراعى الحثيث وصرف جهدى إلى ما كنت ألتمسه بين الاكام والطلول والطرق والمسالك والنباتات ، أنظر

الطيور الطائرات وكيف تناسب أجنحتها جسمها وكيف لطفت من الأمام وأتأمل ألوانها الزاهية الزاهرة وجمالها البهى . وأنا فى كل ذلك كأننى فى عالم غريب وكلما عرفت شيئاً زاد العالم غرابة وحسن طلعة . عشقت العلوم أجمعها فكنت أهفو للرياضيات وأميل للوقوف على أسرار الطبيعة ، ولم أنس ليلة وقد زرت حميا لى إذ وقفت مساء عند سياج حديقته الغناء وهى تشرف على نهر جار يسمى أبا الأخضر بجانب قريتنا والنسيم يهب ومعى صاحب يحادثنى وقد أطلعته على ماشاق نفسى وما يكنه الضمير من الولوع والشوق . وأنا أقول له كأنى بهذه الأوراق تتحلل إلى العناصر أمامى.وكأنى أطالع ماضمنته من الأغذية المتحابة والمتجانسة ولقد زاد شوقى لذلك وعسى أن أدخل مدرسة دار العلوم هـذه السنة ، نعم ، كان ذلك وأخذنا ندرس فنون الطبيعة وأننى لأذكر أننا فى بعض السنين إذ قضينا السنة وقفلنا إلى قرانا بالسواد وبلاد الفلاحين.أخذت أقرأ فى كتاب إحياء العلوم للشيخ الغزالى فرأيته جمع مادرسناه أثناء تلك السنة من الطبيعة فى باب من كتاب الاحياء تحت عنوان الشكر وجعل مادرسناه عنوان شكر الله ولقد قرأت

فيه الكلام على بيوت النحل وأن تسديسها وتنظيم بيوتها مختار لمناسبة ذلك التسديس لجسم النحل إذ الأشكال المربعة والمثلثة ونحوها تترك فيها زوايا ضائعة وكذا المسبعة والمثمنة تتخللها أمكنة وفرج بين تلك البيوت كالدوائر لقربها منها ، فأما المسدسات فأجلها احكاماً وأبدعها إتقاناً وأنسبها للنحل وأجمعها للعسل ولقد كنا درسناه تلك السنة على أستاذنا بهذه الطريقة وكان رحمه الله يعرف الفرنسية فلما رجعنا إلى المدرسة قلت له يظهر لى أنك أخذت هذه من اللغة الفرنسية فقال نعم قلت له ولعلهم نقلوها من كتب العرب وحكيت له بعض ما اتفق لى فقال لعله يكون ذلك فوقر فى نفسى من ذلك كله اننا مخطئون فى الجهل بهذه العلوم وان ديننا يأمرنا بها أشد من الأمر بالصلاة والعبادات الظاهرة وطالما ذكر الغزالى فى الاحياء النحل والعنكبوت ويذكر من هندسة الثانى واتقانه لخيوطه واحكامه لنسجه ماشافنى للوقوف على الهندسة حتى أعرف تلك الصنعة الدقيقة ولقد سمى كتابه احياء علوم الدين وجعل العلوم كلها علوم الدين الاسلامى وسمى ما شغف به علماء الاسلام فى جميع العصور بالقشور فكان ذلك

يبعثنى على الطلب دواماً . وكيف تقنعنى فلسفةاليونان التى ترجع
إلى الأمور العامة أو أقنع بما يلقيه الدين وأكون مقلداً له فى أن
العالم منظم ونفس الدين والوجدان يطالبانى بالتحقق من نفسى
وطالما بحثت عن شكل للعنكبوت غيرمشوش يظهر لى فيه جلياً
حسن نسجه وان فيه نسباً هندسية فلم تكد نفسى تقنع بما ترى
حتى كدت أيأس إلى أن اتفق ذات يوم وأنا فى رياضة ان شابا معه
كتاب باللغة الانكليزية مرسوم فى أوله صورة نسج العنكبوت
يسمى القراءة الملكية وكنت إذ ذاك أعرف حروفاً من اللغة
وبعض كلمات فأخذت الكتاب وتأملت الشكل وقلت للفتى
ترجم فترجم فانبهرت من القول وعجبت من الشرقى وجهله والغربى
وعلمه وقلت أرنى بقية الأبواب فى الكتاب فاسمعنى جملا منها حتى
عرفت مقصود الكتاب فزاد استغرابى وقلت من يسمع عنى من
يفقه منى منهج الانجليز تعاليمهم على نهج كتابنا الكريم ونهجنا
نهج أجهل الأمم فى تعاليمنا . هذا القرآن يأمرنا بالنظر فى الأشياء
جميعها وهذا الغزالى انذر وحذر ونظر وقال معنى دين الاسلام
أرقى مما عليه الناس . وها أناذا أبحث عن شكل من الأشكال التى

يعملها الحيوان فلم أعثر عليه الا فى كتاب انكليزى . فأخذت أدرس تلك اللغة لاستطلع آراء القوم وعلومهم وأقارنها بما عندنا واتفق ذات يوم أنى أحادث أحد المدرسين الانجليز ومعه كتاب من كتب الدراسة وأنا لم أزل فى تهجئة الحروف والنطق بالكلمات فرأيت شكلا فى الكتاب ذا خطوط سود وبيض مقوسة ومستقيمة فقلت ماهذه، فقال طرق الشهب والنيازك أثناء تساقطها من السماء فقلت أكل تعليمكم للناس على هذا النمط ، فقال نعم ان الطفل يأخذه أبواه للحقول والرياض ويريانه الأشكال والأزهار والألوان ويفهمانه مقصودها ، فقلت ان هذه تعاليمنا باعتبار ديننا فرأيت الرجل ظهرت عليه هيئة الانكار وكان يعرف بعض العربية فقلت له لا تعجب وان شئت فاسمع هذه الآية ومتى لم تفهم شيئاً فاستفهم ثم قرأت له (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) ثم قلت إن الله يقول فى كتابنا ان من يعرف هذه الغرائب

ويتأمل الثمرات والألوان والجبال واختلاف أشكال خطوطها ويعرف غرائب النبات والحيوان والانسان فهو العالم الذي يخشى الله وهم هم الخواص ومن عداهم فعامة جهلاء وذلك لا يكون إلا بقراءة هذه العلوم فقال لى لماذا لم تسيروا على هذا النهج فقلت دولة شيخة لدينا بقايا العلوم لضعف الأمة وانحطاطها وها هى ذه الآن أخذت ترجع شابة فقال اذن نحن المسلمون لا أنتم وكان الرجل يصدق ما أقول لثقته بى فى المحاورات التى دارت بيننا ولقد عرفنى أدور مع الحق كيفما دار فلما سمعت منه ذلك لزمت الصمت وبهت وزادت حيرتى وأخذت أنشر المقالات وأصنف الكتب وهذا دأبى وديدنى .

ثم ان ذلك الانجليزى عرض على ذات يوم حديثا فى ورقه وهو (علو الهمة من الايمان) وسألنى ايضاح معناه وتفسير مغزاه فقلت فسره أنت فقال إن علو الهمة من الدين الاسلامى فقلت هذا تفسير أكثر أهل العلم عندنا فقال وهل عندكم غيره فقلت نعم ان الايمان هو التصديق ومعرفة الشىء بالتحقق مع الاطمئنان فى المعرفة فمن عرف التجارة مثلا واطمأن لها وصدق بثمراتها

شاقته ومتى شاقته علت همته فيها وهكذا الحياكة والفلاحة والسياسة والدين فمن وقف على حقيقة شيء من ذلك علت همته فيه حتى يجد ثمرته فالمعرفة أولا والعمل ثانيا فقال هذا معنى عجيب ومن أين أخذت هذه المعانى فقلت من كتب الأوائل فى شباب الدولة العباسية إذ كانت دولتنا شابة كدولتكم وعلمنا فتى كعلمكم فقال وهل فى البلد الآن من يعرف فقلت نعم ولكنهم قليل فقال عجبا كأن نبيكم لما رأى العرب على الفطرة يرعون الغنم أخذ يلوى عنان رغبتهم الى العقول والتفكر ثم أشار إلى رأسه وقال فهو يقول لهم رؤوسكم رؤسكم عقولكم عقولكم ثم اعملوا فأمرهم بالتعقل ثم العمل فأيقظهم بذلك اه

﴿ الجوهرة العاشرة — النظر فى كتب علماء الانجليز ﴾

رأيت النظر فى علوم القوم وأرائهم وكتبهم صار واجبا على حتى يتسنى لى أن أدرس أراء الشرقيين والغربيين وانظر هذا الدين وانى ليجدر بى أن أقص عليك نبأ بسيطا اتفق لى أيام مجاورتى بالجامع الأزهر الشريف، ذلك انى كنت اذا قفلت الى الريف أشغل أيامى بالنظر فى العالم فكان هو درسى وشغلى كما قدمت

وأذكر أنى وقفت ذات يوم مساء على الجسر ذى القضبان المعدة لمرور القطرات فقلت أنا أقرأ فى الازهر العلوم وأبحث عن العالم وهذا الطريق والقطار وضعهما قوم من الاوروبيين فياليت شعرى ما يقولون عن العالم وصانعه ولعل عندهم ما لا نعرفه ولقد شغلتنى تلك الفكرة أمداً طويلا وهأناذا الآن أقول قد عثرت على كتبهم وقرأت الكتب المتداولة بين التلاميذ فى الابتدائى والتجهيزى فرأيت ميل القوم إلى معرفة العالم ساريا الى هذه الكتب وهذا النسق هو المطلوب فى تعاليمنا الاسلامية على شريطة أن يتخلل تلك العلوم ذكر الله معها حتى يكون القارىء مستحضراً له فى فؤاده ولم تكن تلك الكتب غاية مطلبى

ولما عثرت على مؤلفات العلامة جون لبك الانجليزى المسمى اللورد أفبرى ألفيت ضالتى المنشودة وبغيتى المقصودة وشمرت عن ساعد الجد لقراءة كتبه وقلما قرأت باباً من أبوابه أو كتابا من كتبه إلا وجدت عجبا عجيباً وأسلوبَا غريبا، فياليت شعرى كيف أجد قوماً فى العالم يميلون إلى ما أميل اليه ويجدون فيما سعيت إليه. وكيف بحثت فى الحقول وفتشت فى الازهار ونظرت فى الانهار ولم أترك شاردة ولا واردة إلا اتبعتها

ولا غريبة نادرة إلا اقتفيتها ، ثم أجد ذلك مشروحا فى كتب القوم وانى لأعجب إذ قرأت فى كتاب مسرات الحياة له فى الفصل الأول يقول ان علماء الدين قلما وجهوا أنظارنا الى ما نراه بأعيننا ونسمعه بآذاننا كل يوم وما نمر عليه من الآيات ونحن عنه غافلون

نعم يوقظوننا ويلفتون عقولنا ولكن لما نلابسه من المآكل والملابس والصحة وما أشبه ذلك مما تشاركنا فيه أخس الديدان واتعس الحيوان وأدنى الحشرات ، ولعمرك لم يشاءوا أن يحركوا من وجداننا ويوقظوا من غفلتنا وينبهوا من شعورنا الى ما حولنا من جمال وبهاء وحسن وكمال فى بدائع المخلوقات ومحاسن الموجودات فى الحقول والحدائق والجنات فذلك الجلال والمجد لاينال إدراكه إلا الانسان خاصة وبه وحده يعرف حب إلهه وعنايته ويعشقه قلبه ويميل اليه بعقله .

يأمروننا بعبادته ولكن فى حجر ضيقة ولم يشاءوا أن يرسلونا إلى الحقول والمناظر الطبيعية لننظر ذلك الصنع البهيج والعمل الجميل وقصروا هممنا على النظر فى عيوب النفوس الخ اه . ولما وقفت على هذا قلت ياليت شعرى من لى بأن يقف الكاتب على ما تضمنه

القرآن الشريف ويتأمل قوله تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فى مَلَكُوت السموات والأرض وما خلقَ اللهُ مِنْ شيْءٍ وَأَنْ عَسَي أَنْ يكونَ قدْ اقترَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حديثٍ بعدَهُ يؤمنونَ) وهذه الآية أعظم ما أنذر به البشر يوبخ الإنسان على عدم النظر فى بواطن علوم السموات والأرض وهو المعبر عنه بالملكوت وقوانين الأشياء التى ذرأها الله وأنذرهم بقصر الآجال وذهاب الأمم من الوجود فكأنه يقول من لم يفطن لهذه ساءت حياته فقصرت زمانا إذ لا قوام لها لذهاب العلوم فيعم الخراب وإذا كانت المادة ولا علوم تفيد العقول عاشوا عيشة الجهلاء لا يفقهون للحياة معنى ولا للعقول ثمره فحياتهم أقصر من يوم فيوم من عليم أفضل من آلاف السنين من الرجل الجهول. والأمم كالأفراد فى ذلك، فان لم تعرف الأمة علوم العمران وتنظر فى الخليقة ساءت حالها وضل رجالها وقصرت آجالها وخمدت أنفاسها وساء مصيرها. ذلك مغزى الآية وتفسيرها ومقصودها ومرموزها فقال: أى قول أجمل من هذا وأبين وأحسن وأصدق فيؤمنون به ويصدقون بمضمونه ويقول الله فى آية أخرى (قلْ أُنظرُوا مَاذَا فِي السموَاتِ والأَرْضِ) ويقول (وفِي الأَرْضِ آياتٌ

للموقنين وَفِي أنفسكم أفلا تبصرُون وَفِي السماء رِزقكمْ وَمَا تَوعدُون) ويقول (وكأَيِّنْ مِنْ آية فِي السموَات وَالأَرْضِ يَمرون عليها وهم عنها معرضون) إلى غير ذلك من الآيات والحكم وأنا الآن أكتب هذا وأعجب كل العجب من الشرق والغرب وكيف غفل أهل أوروبا عن الدين الذى يناسب مشارب عقولهم ويلائم أفكارهم ويوافق آراءهم . دين من قرأه لا يرى فيه إلا العلوم والمعارف كما سأوضحه لك بأجلى بيان إن شاء الله تعالى فى هذا الكتاب[1] وأذكر ما ورد فيه من الحث على العلوم ومكارم الأخلاق وأن قصصه ومواعظه كلها ترجع إلى ذينك الأمرين وكذا عبادة الله من الزكاة والصيام والحج فانتظروا البيان فى الكتاب . أنا أعجب كيف أغفله الشرق وكفره الغرب هذا . وقد كنت حين قراءة كتب العلامة جون لبك أؤلف فى كتاب نظام العالم والأمم فنقلت منه ما سرنى ولخصت الكتاب فى كتيب اسميته الزهرة

---

(١) لقد اتضحت خلاصات هذه العلوم فى كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الذى شرعت فى تأليمه بعد هذا الكتاب بنحو ١٧ سنة وأمضيت فى نشره نحو ١٠ سنين وقد نشر منه الآن ٢٤ مجلدا مزينة بمئات الصور وسيكون ٢٥ مجلدا اه

ووضعت فيها جملا من كلامه وكلام الشيخ الغزالى وأهديتها
له وأرسلت له خطابا هذا نصه « تحية وسلاماً من شرقى مشوق
إلى عالم عظيم غربى جمعتنى وإياه روابط الحكمة والشوق إلى الحقائق
والبحث عما فى هذا العالم من الجمال والبهاء وأنى وأنا أكتب هذا مشرف
على ما فى خزانة الخيال من جمال غابر ومستقبل جميل زاهر فأما
الأول فهى تلك الحكمة الزاهرة العربية والكتب الفلسفية
ككتب ابن رشد والغزالى وابن سينا والفارابى وما لخصته من
آرائهم ومزجته بما عن لنا من علوم الغربيين الأوروبيين ، وأما
الثانى فاطلاعى على بعض كتبكم ككتاب جمال الطبيعة ومسرات الحياة
ولقد عجبت من تطابق الشرقى والغربى وزاد تعجبى إذ رأيت
شوقكم وفرحكم بما جبلت نفسى عليه فى حداثة سنى من التأمل فى
العالم وجماله وحب البحث عن العلماء السابقين واللاحقين حتى
أنى ما درست ذلك القليل من اللغة الانجليزية إلا حبًا فى مطالعة
كتبكم . ومن العجيب أنى أرانى مشوقا اليكم وأرى عقلاء بلادى
مشوقين لما أكتب ، وهذه قد أحدثت عندى أملا أن أكون وسطا
متناسبا بين الطرفين ، فأصل ما بين علماء المشرق والمغرب وأطلع

كل فريق على ما لدى الآخر . وأرجو أن أقف حياتى على ذلك حتى يتسنى للشرقى أن يعرف الغربى وللغربى أن يعرف الشرقى وإنى الآن أجد نفسى أشرفت على عالم الجمال واستولت فى مقعد الجلال ورأيتها تطالبنى أن أبث لاخوانى الشرقيين ما أحبه وأميل إليه

ولقد كنت أرى كثيراً من النفوس فى الأقطار الاسلامية تصبو إلى ما أكتب فى ذلك ولما وقفت على قليل مما كتبتم أخذت الدواة والقرطاس ونقلت ملحا ولطائف من كتاب جمال الطبيعة وقارنتها بمقالات بعض العلماء فى الاسلام فى القرون الأولى وأتبعتها بآيات من كتابنا المقدس وعجبت كيف كنت أجد هذا الوجدان فى نفسى ثم أقرؤه فى كتب العرب ثم فى القرآن ورأيت أن هذه هى مناهجكم بنصها وفصها وإن أكثر أهل بلادى غافلون عن ذلك فنشرت هذه الرسالة المهداة إليكم بينهم بعبارة يألفونها وهاهى ذه مرسلة اليكم اعترافا بفضلكم وابتداء لصلة التعارف وهذه تجعل عندى أمل أن أستمد من آرائكم ما به أوالى هذه المباحث لأرى أمتى وأبناء بلادى ما اندرس من علوم آبائهم وأقارنه بمجمل من آثاركم وأقبل التحية من المخلص ، فأجابنى بما يعرب عن شكره

وسروره وارتياحه وأهدانى كتابه جمال الطبيعة وأذن لى بترجمته وقدترجمت أحسن مافى ذلك الكتاب بعد ذلك ووضعته فى الجزء الأول من كتاب نظام العالم والأمم وقد طبع وانتشر ودارت بيننا المكاتبات آنا فآنا وهاك بعض ما كتبناه فى الزهرة

﴿ الجوهرة الحادية عشرة مقارنة بين علماء المشرق والمغرب ﴾

ومن العجيب أن يتحد على هذا المبدأ الشرقى والغربى فهل لك أن تعيرنى التفاتة وتصغى إلى ما أنقله لك عن العالم الشرقى المتوفى فى أوائل القرن السادس من الهجرة حجة الاسلام الغزالى وعن العالم الغربى السياسى الكبير جون لبك الذى يشاركنا فى الحياة ويتمتع معنا بضوء الشمس وهبوب النسيم وتتأمل سيدى كيف اتفق الرجلان واصطحب العالمان واتحد الرأيان . أو ليس من العجب بل من أهنأ السعادة فى الحياة أن يبحث كاتب هذه الرسالة عن الاتحاد بين الشرقى والغربى فيعثر عليه

وها أناذا أملى عليك أولا كلام حجة الاسلام الغزالى ثم نطابقه بكلام العالم العصرى .

قال الغزالى رحمه الله فى باب الحب إن المدركات كلها التى هى

شاهدة على الله إنما يدركها الانسان فى الصبى عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله خارقا للعادة عجيباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعا وأعضاءه فقال (سبحان الله) وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ولو فرض أنه بلغ عاقلا ثم إنقشعت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب لخالقها . فهذا وأمثاله من الأسباب مع الإنهماك فى الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة . فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل اذا كان راكبا الحمار وهو يطلب حماره والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة . فهذا سر هذا الأمر فليتحقق ولذا قيل

لقد ظهرْتَ فلا تخفى على أحـد
إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لـكن بطنت بما أظهرت محتجبا
فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

وقال العلامة جون لبك . ما أسعد الناظر فى جمال الخليقة إذ تتزين له العوالم وتسفر عن أبهى جمالها وزينتها . وما فصول السنة إلا أحباؤه القدماء وأصـدقاؤه الندماء يجددون له اللذات ويعيدون له السعادات، وإذامشى منفرداً تجلى له من الطبيعة ماتقر به عينه ويشعر منه باللذة والسعادة فتطل له الأزهار من سياجها أو تخرج باسـمة من أرضها وتغنى له الطيور على أشجارها محوطة بأوراقها الناضرات وأزهارها الباسمات ، فاذا انقضت تلك السنون أعقبها الذكرى السارة وخـلدت فى صحائف مخيلته وذاكرته ما يرتاح له ضميره . فهو إذن ما بين حاضر جميل وغابر لذيذ : الناس فى هـذه الدنيا فى غمرة ساهون منغمسون فى تيارها تحت رحمة أمواجها فلامناص لهم منها ولا قوة لهم على دفع حوادثها إلا فى أويقات قليلة . أقول فـكأنه اقتبس من مشكاة قوله تعالى (مَثَلُهُمْ

كمثلِ الذى استوْقَدَ ناراً فلما أَضاءتْ ما حوْلهُ ذَهبَ اللهُ بِنورِهمْ وتَرَكهمْ فِى ظلماتٍ لاَ يبصرُون) ثم قال وليس حب الطبيعة ما يعتاده كثير ممن لا يعلمون فيجمعون ماجمل من الأزهار وينثرونه على الأرض. ولعمرى كيف يهان هذا الجمال الباسم والحسن الباهر ؟ أهذا حب الطبيعة وجمالها . ساء ما يحكمون . اضاعة الجمال وإهانته أشنع اضاعة وأنحسها . لو تصورنا أن هذه الدنيا طالت أيامها وقلت حوادث الشروق والغروب فلم يكد يسمع الرجل بالصباح والمساء إلا مرة واحدة لاشتاق إلى ذلك أشد الاشتياق وفرح بما يبدو له من ذهب أصفر فاقع . جمال الشمس فى شروقها وغروبها سعادة فى نفسه يترقرق حسنه على بساط البسيطة فى الصباح والمساء . لكننا لا نعير جمال الطبيعة التفاتا لأنها حاضرة لدينا مشاهدة أمامنا صباحا ومساء فهانت على النفس بتكرار المشاهدة قال سبكير عن ارسطاطاليس إذا تصورنا قوما عاشوا تحت طباق الثرى فى منازل جميلة مزدانة بالتماثيل والصور وقد أوتيت من كل شىء حتى يحسبهم كل من أطلع عليهم أنهم أسعد الناس حظا فى الحياة وأرقاهم منزلة . فاذا فرض إن الأرض انشقت

تخرجوا من تحتها ونظروا هذا العالم فلا جرم أنهم ينسون نعيم بيوتهم الأرضية ويهجرونها ويخرجون سراعا . فياليت شعرى كيف يكون سرورهم وفرحهم وتأملهم إذا نظروا هذه الأرض وجمالها والبحار واتساعها والأنهار وجريانها والرياح وهبوب عواصفها والسحاب الملحقات والشمس ونورها وإشراقها وجمالها وعظمة الخالق فى إبداعها وتأملوا القمر وهو يبدو دقيقا ثم يتسق كما قيل

المرء مثل هلال حين تبصره   يبدو دقيقا ضئيلا ثم يتسق
يزداد حتى إذا ماتم أعقبه   كر الجديدين نقصا ثم ينمحق

ثم تأملوا النجوم وهى تتلألأ فى السماء مشرقة بهجة وعرفوا حسابها ونظامها فى شروقها وغروبها فاذا تأملوا ذلك كله ولاحظوه فلا جرم يستنتجون منه أن لهذه الكائنات صانعا مدبرا قادرا مهيمنا عليها وإن هذه العوالم مصنوعات له . اه . أقول أليس هذا قبسة من مشكاة قوله تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ، كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ، وَالذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) . وقوله عز وجل (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) أى الى أى مكان يصرفون إذ لا محيص لهم عما أجمع عليه خواص نوع البشر وقوله تعالى (قلْ الحمدُ للهِ وسلامٌ على عبادهِ الذينَ اصطفى آللهُ خيرٌ أمَّا يُشرِكونَ أمَّنْ خلقَ السمٰوَاتِ والأرضَ وأنزلَ لكمْ منَ السماءِ ماءً فأنبتنا بهِ حدائقَ ذاتَ بهجةٍ ما كانَ لكمْ أنْ تُنبتُوا شجرَها ءإلهٌ معَ اللهِ بلْ همْ قومٌ يعدلونَ أمَّنْ جعلَ الأرضَ قراراً وجعلَ خلالَها أنهاراً وجعلَ لها رواسيَ وجعلَ بينَ البحرينِ حاجزاً ءإلهٌ معَ اللهِ بلْ أكثرُهمْ لايعلمونَ) ثم بعد أن ذكر هذه العجائب التى شغف بها الغربيون أفاد ان الامم المتدينة المسيطرة على العالم هى التى عرفت هذه العلوم وأن أى أمة خلت

منها فانها تقع تحت سيطرة غيرها لامحالة فاشار لهذا كله بقوله تعالى عقبها (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السوءَ ويَجْعَلُكُمْ خلفَاءَ الْأَرْضِ ءإلهٌ مَعَ اللهِ قليلاً ما تَذَكَّرُون)

فانظر كيف ذكر خلافة الأرض بعد ذكر هذه العجائب الجميلة ولقد ذكرت لك أيها الأخ مقارنة بين علمائنا السابقين وعلمائهم العصريين وآيات من القرآن فانظر كيف دلت على حكمة بالغة وعظة تامة. وتأمل الآن فى آباء الأروبيين وما كانوا يدرسونه أيام شباب الدولة الاسلامية وكيف كانت تعاليمهم وخرافاتهم. فاذا قارنت بين الآباء فارجع البصر وقارن بين الأبناء لتقف على مراكز الأولين والآخرين. ثم قلت بعد كلام طويل ما نصه فهل لك ياسيدى بعد ذلك أن تقرأ الآيات القرآنية. وتتخيل الأمة العربية إذ ذاك وهى تترنم بقوله تعالى (خَلَقَ السموات والأرضَ بالحقّ تَعَالَى عَمَا يُشْرِكُونَ خَلَقَ الانسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ والأنعامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ومنافعُ ومِنْهَا تأكلونَ ولكُمْ فِيهَا جمالٌ حينَ تريحونَ وحينَ تسرحونَ وتحملُ أثقالكُم إلى بلدٍ لم تكونُوا بالغيهِ إلا بشقِّ الأنفس إنَّ ربكمْ لرؤفٌ رحيمٌ

والخيلَ والبغالَ والحميرَ لِتَرْكَبُوهَا وزينَةً ويخلقُ مالا تعلمون وعلى اللهِ قصدُ السبيلِ ومِنها جائرٌ ولَوْ شاءَ لَهَدَاكُمْ أجمعينَ هُوَ الَّذِي أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لكُمْ مِنْهُ شَرابٌ ومنهُ شجرٌ فيهِ تُسيمُونَ يُنْبتُ لكُم بهِ الزَّرْعَ والزيتُونَ والنخيلَ والأعْنَابَ ومِنْ كلِّ الثَّمَرَاتِ إنَّ فى ذَلِكَ لآيةً لقَوْمٍ يتفكَّرُونَ وسخَّرَ لكُمْ الليلَ والنَّهارَ والشمسَ والقمرَ والنُّجُومُ مُسخَّرَاتٌ بأمْرِهِ إنَّ فى ذَلكَ لآياتٍ لقَوْمٍ يَعْقِلونَ وما ذَرَأَ لكُمْ فى الأرْضِ مختَلفاً ألوانُهُ إنَّ فى ذَلكَ لآيةً لقَوْمٍ يذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذى سخَّرَ البحْرَ لتأكلُوا منْهُ لحماً طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجُوا منْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فيهِ ولتَبْتَغُوا مِنْ فضْلِهِ ولعلَّكُمْ تَشْكُرونَ. وألقَى فى الأرْضِ رَوَاسِيَ أنْ تَميدَ بكمْ وأنْهاراً وسُبُلاً لعلَّكمْ تَهْتَدُونَ. وعَلامَاتٍ وبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. أفَمَنْ يخلقُ كمَنْ لا يخْلقُ أفلاَ تذكَّرُونَ وإنْ تَعدُّوا نِعمَةَ اللهِ لا تُحصُوها إنَّ اللهَ لَغَفورٌ رَحيم.)

فهذه وأمثالها معارف عند عامة العرب الاسلاميين فأدناهم من يقرأ هذه الآيات ويعلم أن الله عز وجل أظهر قدرته وامتن على

عباده بخلق السموات والارض لأنها أعظم مشاهد للانسان ، ولما كان الانسان أعظم نتيجة لهما أردفها بذكره . وفى عجائب خلقه أبهر دليل حيث خلقه من نطفة قذرة ثم صار أكثر شيء جدلا ، مع أن الأليق به أن ينظر إلى مبدئه ويتفكر فى ملكوت السموات والأرض ثم عدد عليه صنوفاً من نعمه وضروبا من آلائه ، فذكر ما ينتفع به من الحيوان والنبات والماء النازل من السماء النافع لهما وذكر كثيراً من أنواع القسمين مما ينتفعون به وعجائب السموات ومنافع الكواكب والليل والنهار لتوقف هذه الأنواع عليها وذكر الجبال ومنافعها وما يهتدى به من علامات الطرق وبعبارة أوضح أقول أن الله ذكر فى هذه الآية نعمه على عباده بخلق الحيوانات وان منها المآكل والملابس فاتخذوا منها ملابس الشتاء وملابس الصيف ويتخذ منه الأعراب خيامهم ثم منها ما يحملنا وأمتعتنا إلى الامكنة البعيدة ، ومع هذا كله فهى زينة يتجمل بها فيتسم أربابها بالابهة والجاه ، لما يرى عندهم من آثار نعم الله عزوجل. وكم له من مخلوق فى الأرض وفى السماء لا نعلمه . فعلومنا قاصرة على ما ننتفع به ، فلو بحثنا عما

لا نعرف لكان ذلك ظلما وجوراً وعبثاً ثم ذكر أنه أنزل الماء من السماء فهو لشرابنا وطهورنا وسقينا زرعنا وأنعامنا وأن ينبت به الزرع وهو الحب الذى نقتات به كالحنطة و الشعير وما أشبههما وقدمه فى الذكر لأن به قوام أبداننا وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن والبركة وثلث بذكر النخيل لأن ثمرتها غذاء وفاكهة وختم بذكر الأعناب لأنها شبه النخلة فى المنفعة من التفكه والتغذية، ثم ذكر بقية الثمار اجمالا، ولما كانت الاجرام العلوية لا بد منها لنمو هذه المخلوقات ولنهتدى بضوئها أعقب ماذكر بذكر تسخير الليل . والشمس والقمر والنجوم، فلعمر الحق أن من لم تدهشه هذه العجائب فيوقن برب البريات لابعد عن العقل والفهم بعد مابين المشرقين . فان فى بعض هذه فضلا عن جميعها دلالات واضحات على كمال بارئها وجمال مبدعها الحكيم وقدرته . وانظر رعاك الله إلى ألوان الزرع كيف اختلفت مع اتحاد الأضواء السماوية والماء والعناصر والهواء والأرض وما أغفلنا عما بين أيدينا فكيف جعل هذا أحمر قانياً وهذا أصفر فاقعاً وهذا أزرق زاهراً وهذا أخضر ناضرا

وهذا أبيض ناصعاً وهذا أسود قاتما وكل منها يتلون ألوانا شتى وأشكالا متخالفة، فسبحانه وتعالى، ثم هذه البحار من أدل الدلائل وأعجب العجائب فقد جعل جل جلاله فى الماء جزءاً عظيما من الملح لولاه لأنتن بطول المكث ففسد الهواء ولا نطيل بشرح ما احتوته هذه الآيات من العجائب الخلقية والحكم الغريبة وإنما شرحها وما ماثلها من آيات تبلغ نحو سدس القرآن جميع العلوم التى يفى الزمان وهى تتجد وتزداد وضوحاً مصداقا لقوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أنفسهمْ) وقوله (سأريكم آياتى فَلاَ تستعجلونَ).

هل لك أن تنظر فى هذه الآيات كيف ابتدأ فيها بالكلام على السموات ثم خلق الإنسان فالحيوان فالنبات وأخذ يشرح العوالم كلها واحدا واحدا وانتهى بنتيجة استخلصها منها وهى إن لها صانعاً

ثم انظر حكاية الالهة المتشاكسين وكيف احتال بعضهم أن قتل إله الرحمة فانتزعت من بينهم (١) فانظر يارعاك الله كيف خلف من بعدهم خلف قبضوا على زمام الأمم بالعلم ودرس الفنون

(١) انظر الزهرة

التى يشير لها القرآن ويتفكرون ويعقلون وينظرون. أما نحن فما بقى لدينا منها الاحتمالات فكأننا ورثنا آباءهم وورثوا آباءنا فقلدنا قدماءهم وقلدوا قدماءنا ولم يبق لنا سوى الدعوى العمياء والتبجح بقولنا أتبعنا القرآن

﴿ الجوهرة الثانية عشرة — القرآن والمسلمون ومتأخرو الأفرنج ﴾

ثم تعجب يا أخى من هؤلاء الأقوام فى ديارهم فانك تراهم يعظمون الحكيم سنيكا الرومانى حتى إنهم ليضعون حكمه فى أوائل كتبهم ويقدسونها ويقتدون بأقواله ويعولون على آرائه

ثم ترى آيات القرآن بين ظهرانينا أبدع وأكمل من حكمه وأبهى وأبين وآنق فى النفوس وأروح للعقول. ولأذكر لك طرفا من كلامه ثم اتبعه ببعض آيات من القرآن ثم أكل الأمر لك فى حال قوم أضاعوا أجمل نفيس لديهم وآخرين خاضوا البحار وقطعوا الفيافى والقفار وركبوا المهارى واجتابوا الصحارى وأخذوا يستمدون من آيات البشر. قال سنيكا: إذا

وهبك إنسان ضيعة واسعة ذات أشجار وبساتين وحقول وأنعام، أفلا تعد ذلك منه جزيلة، ومن ذا ينكر أن الأرض وسعتها وجبالها وأنهارها أعظم عطية وأجمل هبة من مدبر الكائنات ولو أن رجلا حباك دراهم ودنانير لعددتها هبة ومنة عظيمة. أوليس الذى دفن المعادن تحت أطباق الصخور وكون فى ظلمات الأرض الذهب والفضة وغيرهما من المعادن أكبر اعطاء وأجمل هبات. ولو أن رجلا بنى لك منزلا من المرمر الجميل وزين سقفه بالألوان البديعة البهجة وزخرفه بالذهب والالماس وأسداكه، أفلا تعدها لديك تحفة جميلة. أليس الله بني لك قصراً مشيداً متين البناء ثابت الدعائم قوى الاركان آمناً من البوار بالنار والخراب بالامطار. سقفه مزين بأجمل الالوان وأبهاها. مرصع بالدراري اللامعة. والاقمار الساطعة. والشموس المشرقة. فأضاء بالليل والنهار وازدان بالأنوار. فيه مايحتاجه الانسان والحيوان. منه يخرج الهواء لانفاس نرددها والضياء لاعمال نزاولها ونهتدى سواء السبيل. ويتولد الدم الذى عليه مدار حياتنا والغذاء المقيم لاجسادنا. الله عز وجل بث فى الارض من كل دابة وفرقها فى أنحائها وأنبت فيها

من كل زوج بهيج من أنواع النبات متاعا لنا ولانعامنا . سخر الرياح تجرى متصرفة بأمره مختلفات فى الصيف والشتاء • الله عز وجل كرم بنى آدم وألهمهم الصنائع والعلوم . وركب فيهم النغمات وجبلهم على الاصوات المختلفات ليشتقوا منها نغمات الموسيقى ويزنوا الالحان . وهل نحن غرسنا فى نفوسنا أصول العلوم والصنائع أم الله هو الذى ركب فينا تلك القوى الشريفة والملكات الفاضلة . الله سيدنا أخرج من ظلمات الطين نور العقل وأبرز هذه الصنائع والعلوم وجمال الموسيقى من ماء مهين • اشتق من سلالة من طين (يُخْرِجُ الحيَّ منَ الميتِ) اه ماقاله الحكيم سنيكا

وقال آخر من فحول كتابهم أكثر الناس فى هذه الدنيا لهم عيون ولكن لايبصرونَ بها وآذان ولكن لايسمعون بها وأعظم منة من الله أن يفاض على المرء منحة الفهم والاعتبار وأن يعبر عما شاهده بعبارات تعقل عنه اه اليس صدر هذا القول قبسة من قوله تعالى (ولقدْ ذرأنا لجهنمَ كثيراً منَ الجنِّ والانس لهمْ قلوبٌ لايفقهونَ بِها وَلهمْ أعينٌ لاَ يبصرونَ بِها وَلهمْ آذَانٌ لاَ يسمعونَ بِها أولئكَ كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ أولئكَ همُ الغافِلونَ) وعجزه

قبسة من قوله تعالى (الرَّحمنُ عَلَّمَ القُرآنَ خَلَقَ الإنسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ) ولو علمت مقدار أعظامهم واجلالهم لمقام هؤلاء الحكماء لعجبت من أمة الاسلام كيف غفلت عما أبدع فى القرآن من نفائس الدرر وبدائع الحكم فى نفس هذه المناهج التى ينتهجها أكابر كتابهم . وإذا كان علماء وأكابر أوروبا وقادتهم يعظمون هؤلاء الكتاب فكيف بهم إذا تلوا من هذا المنهج قوله تعالى (إنَّ فى خلقِ السموَاتِ والأرضِ وَاختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التى تجرى فى البحر بِما يَنفعُ الناسَ وَما أنزَلَ اللهُ مِنَ السماءِ من مَاءٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبثَّ فيها من كلٍّ دابةٍ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخرِ بينَ السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون) أو مايقرب منه فقال فى موضع آخر (اللهُ الذى خَلقَ السموات والارضَ وأنزلَ من السماءِ ماءً فأخرج به منَ الثمراتِ رزقاً لكُمْ وسخَّرَ لكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِىَ فى البحر بأمره وسخَّرَ لكم الأنهارَ وسخَّرَ لكمْ الشمسَ والقمرَ دائبين وسخَّرَ لكم الليلَ والنَّهارَ وآتاكم من كلِّ ما سألْتمُوهُ وإن تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لاتحصُوها إنَ الانسانَ لظلومٌ كفارٌ) أو بما هو أوجز للخاصة فقال (هوَ

الذى خلَق لكُم ما فِى ألأَ رضِ جميعا ثمّ استوى إلى السماء فسواهُنّ سَبْعَ سموات ٍ وهو بكلّ شئ ٍ عليمٌ) وخاطب ذوى الالباب بما هو أوجز فجمعه فى ثلاث كلمات فقال (بديعُ السّموات ِ والأرضِ) ثم فى كلمة وهي اسمه (البديع) وهكذا مما فاض به القرآن وهجره المسلمون لما ظن أهل العلم أن الفقه وحده كاف فى السعادة والحياة والدين حتى قام الافرنج فسبقونا شوطا بعيداً فى الماديات والادبيات على نحو ماذكرنا فى تلك الآيات . أو لسنا نحن أولى بما حث عليه القرآن ان ندرسه ونسارع فيه ولذلك وضعت كتاب نظام العالم والامم اهـ(١)

﴿ الجوهرة الثالثة عشرة ﴾

(نتيجة المباحث السابقة)

كانت نتيجة مباحثى السابقة وما رأيته فى الكتب الحديثة والعلوم المصنفة أن العالم منظم ورسخ ذلك عندى كما أنبأ

---

(١) هذا قلته منذ ٢٧ سنة ولكن الآن أقول قد جاء بعد نظام العالم والأمم الجواهر فى تفسير القرآن المقدم ذكره وكتاب الأرواح وكتاب النظام والاسلام وكتاب جمال العالم وكتاب نهضة الأمة وحياتها وكتاب القرآن والعلوم العصريه وكتاب الموسيقى وكتاب الحكمة والحكماء وكتاب الهلال وكتاب سوانح الجوهرى وغيرها

الكتاب المقدس وهو القرآن وقررته المباحث اليونانية المنقولة عنهم بمؤلفات ابن سينا والفارابى وكتاب اخوان الصفاءوابن رشد والغزالى.وكنت مقتنعاً بأن العالم النباتي والحيوانى لهماقوى من الغاذية والنامية والمولدة والمصورة وهكذا وان القوة النامية تنمى الجسم بانتظام واشكال متسقة وهذا كما أسلفت انما كان اجمالاوقولا غامضاً حتى اتضح فى أقوال علماء العصر الحاضر وتحليلهم وردهم النبات والحيوان الى عناصر مركبة بذرات معلومة متلائمة الوضع ووضعوا لها الجداول والحساب ورقموا لها الارقام من مائة كما أوضحناه فى كتبنا لاسيما الزهرة ونظام العالم. وقلنا هناك أن الذرة والقمح والقطن موادها واحدة كالبوتاسا والصودا وكان هذا قطنا وهذا قمحاً لاختلاف المقادير فى المواد. فظهر هناك بأجلى بيان قوله تعالى (وكلُّ شيء عندَهُ بمِقْدَارٍ عالمُ الغيْبِ والشَّهادَةِ الكبيرُ المتعالِ) عجبا كيف وصلت الى هذه الحقيقة التى كنت يائسا منها أشد اليأس وكنت أظن أن بينى وبينها بعد ما بين المشرقين وهكذا معادلات الكيميا كتحليل الماء إلى عنصريه الأوكسوجين والايدروجين وظهور قوله تعالى (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)

وقوله (وَالأَرْضَ مددْناها وَألقينا فيها رَوَاسِيَ وَأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تَبْصِرَةً وذِكْرى لكلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) وقوله (وهو الذي مَدَّ الأَرْضَ وجَعلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فهذه العلوم المشاهدة الآن هى عين ما يطلبه هذا الكتاب أنا أكتب هذا وأنا أعجب من كتاب بين ظهرانى هذه الأمة ويطلب ما عرفه الغربيون وكأنى فى وسط غريب. فمن لى بأن يقف علماء الملل على ما أقول ومن لى بأن يصل كتابى الى علماء اليابان ومن نحا نحوهم ممن يطلبون دينا حقاً، ليس المقام مقام شرح العلوم و بيان القضايا إذ كتابنا هذا انما وضعناه لعلماء درسوا تلك العلوم فالاشارة لهذه القضايا تكفيهم والشرح والتطويل عليهم أما الشروح فقد استوفيناها فى تصانيف مختلفة

* الجوهرة الرابعة عشرة *

(تربية الوجدان فى الاسلام)

لقد ترك الشرقيون الطريقة التى أشار اليها القرآن الشريف واتبعها الافرنج كما درسته فى كتب الغربيين وكلاهما ناقص بتر والطريقة المثلى أن يؤخذ النشء بدرس الأشياء فى صغرهم على شريطة أن يذكروا ربهم عند درسها وفهمها ليكون ذلك داعياً لتربية حبه فى القلوب وخشيته فى النفوس فلا تمر قاعدة أوعجيبة أو قانون طبيعى أو نظرية فلكية إلا ويقرن بجلالة من سنها ويذكر من رسمها فيشب الفتى دارساً للعلوم محباً لمبدع الكائنات كما طلب نبينا صلى الله عليه وسلم فقال كل شىء لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبتر أو أجذم أو أقطع ولا معنى لذلك ألا تذكر أن هذا المخلوق الذى أزاوله أو آكله أو أدرسه أو أفكر فيه إنما هو أثر من آثار جلاله مذكر لنعمائه. ولذلك ترى كل سورة فى القرآن الشريف بدئت بسم الله الرحمن الرحيم تدريباً على ذلك وتعليما وتنويها بانتهاج هذه الخطة. ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول « اذكروا الله عند كل حجر وشجر » ومعناه ملاحظة مبدع

الشجر والحجر عند رؤيته أو درسه وتذكر أنه خلقه وعلى هذا تنمو فى المرء قوة الدين والوجدان وحب صانع العالم فيهما به ، ويعمل له ويراعى عباده وهذا بعينه هو ما قرره العلامة سبنسر الانجليزى إذ أبان أن التعليم لا يجدى بمجرد البرهان بل بتربية الوجدان بالمحادثة والتذكير وترى هذه طريقة القرآن والاسلام لا المسلمين إذيذكر محاسن العالم وجماله ويذكر بالشمس وغروبها وشروقها والكواكب وغرائبها الى غير ذلك. أما تعليم الشرقيين المسلمين فانما يأخذون الناشئة بالكلام العرضى والتطوح بهم فيما يرجع الى القضايا التى تحوم حول فلسفة اليونان رداً على قوم واراهم التراب وانقرضوا فى الغابرين وذهبوا مع أمس الدابر وتراهم ينافشونهم فى قبورهم وينازعونهم فى برازخهم ويذرون ما خلق لهم ربهم مما أبدع وأحكم ولم يعلموا أن علماء الغرب برعوا حتى قاربوا دينهم القويم وصراطهم المستقيم فأحاط بنا الفقر والصغار والذل والشنار واحتلتنا الأعداء وَأحاطوا بنا من كل جانب ، أما الغربيون فقد وَرثوا الأرض بما أوتوا من العلم الناقص ولكن مدنيتهم ذاهبة الى الزوال بما عصوا ربهم وَلم يبنوا العلم على أساس

متين أما وربك لو انهم اعتقدوا أن هذه العلوم عبادات وانها كالصلوات والقربات وانها نفسها الدين حقيقة كما سأذكر لك بمئات من الأدلة كانت مدنيتهم أثبت المدنيات فكانت المعاصى تزول والشرور تقل وخوف الله يلازم النفوس ملازمة الخيال للذهن والتصور للعقل (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

﴿ الجوهرة الخامسة عشرة ﴾

(الاحزاب فى أوروبا ومسألة الانسان والحيوان)

أذكر أنى مرة بدت لى سانحة من الفكر فى ترتيب الحيوانات وصفاتها وغرائزها فرجعت الى ما درسته فى المنطق والحكمة وما سطره اليونان ونقله علماء العرب من أنها أنواع لكل نوع تعريف خاص فيقولون الانسان حيوان ناطق والفرس حيوان صاهل والكلب حيوان نابح وهكذا ورأيت نفسى تطالبنى بأجلى من هذا وكان ذلك والليل قد أرخى سدوله وكنت فارغا من الشغل أيام البطالة وأنا تلميذ بدار العلوم وقد شاهدت ثعلبا يجرى بالحقول خارج قريتنا فأخذت أجيل الفكر فى ذلك وقلت

ان لها غرائز وصفات وأحوالا هذا ماكر وهذا بليد وهذا جبان وهذا جميل وهذا جبار جرىء وكل منها أعطى من القوة والجسم والأعضاء ما يناسب استعداده كما أوضحناه فى غير هـذا المقام بأجلى بيان ويفقهه من زاول العلم . ليس المقام مقام بيان بل انما نكتبه لعلماء الأمم الدارسين وأن لها عقولا ومدارك وغرائز كل بمقدار مايحتاجه والانسان منها أعطى عقلا وأعضاء تناسب حاجاته وما يلزم له فى الحياة ثم قلت كيف يحاسب الانسان وهى لا تحاسب أم كيف يعذب وهى لا تعذب وهذا السؤال أبنته فى كتاب ميزان الجواهر وأجبت عنه هناك بما يطول شرحه هنا ولا يهم ذكره ثم اطلعت على أحوال الأوربيين كبعض النهليست والفوضويين الذين انتشروا فى أنحائها لا سيما الروسيا وهم هم الذين ماجت بهم فرنسا وألمانيا وانكلترا ولهم البطش والقوة فوجدت انهذه الشبهة هى العامل الأول فى مناوأتهم حكوماتهم وتفانيهم فى دعوتهم وتماديهم فى قتل الملوك والأمراء والعظماء وهم فرق وأصناف متشاكسون ، قهروا الأمم وأبادوا الأغنياء قالوا ما أرباب الديانات الا مسيطرون بلا حجة ولا برهان ولا هدى ولا سلطان

يقولون العذاب العذاب الحساب الحساب هذه الحيوانات أمم أمثالنا لها نظم وقوانين وسياسات كما ترى فى حكومات النمل والنحل ونسج العنكبوت وحيل الطيور والجوارح وبنائها والأسود والنمور وما شاكل ذلك وما نحن الا أمة منها فكيف نحشر وهم لا يحشرون أم كيف نعذب وهم لا يعذبون هذه شبههم وهذه نحلهم وهذه آراؤهم ويستترون بقولهم أمام العالم . الانسانية المساواة . والحقوق . الناس اخوان ولا معنى لهذا عندهم الا عدم الثقة بالأديان يريدون أن تمحى ويمحى ذلك التمييز بين الأفراد لما شاهدوه أن ديناً نشأوا فيه عودهم على مثل ذلك التميز والظلم .

وقد اطلعت على كتاب الأسفار للشيرازى فذكر الحيوان والانسان وأبان أن كل ذى روح من حيوان وانسان بل وكل ماله نفس نباتية بل كل ماله صورة معدنية ستحشر ولا معنى لذلك الا بقاء أرواح ذوات الأرواح لتحشر فى عالم يناسبها وصور ذوات الصور وكأن هذا العالم المشاهد يذهب شخصه ويبقى رسمه كل بحسبه فالحيوان والانسان بروحه فالراقى برقيه والأخس بخسته والشرير بشره والبعوض بغطرسته والأسد بجراءته تبقى غرائزها

وآراؤها وصفاتها فى أرواحها كما تبقى أرواح الانسان منعمة أو معذبة بصفاتها التى كنت فيها ، هذا ما أبانه الشيرازى فى الأسفار مصداقاً لقوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) من لى بأن يقف أولئك الأمم الفوضويون والفرق المتشاكسون على ما أجاب به القرآن وما سطره الوحى قبل خلقهم بألف وثلثمائة سنة رداً على شبههم وإقناعهم ثم يقول لهم (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ) الذى كتبناه عندنا وهو اللوح المحفوظ الذى أودعنا فيه ما كان وما يكون (مِنْ شَيْءٍ) فلا نترك حيواناً لنقصه ولا انساناً لفضله (ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

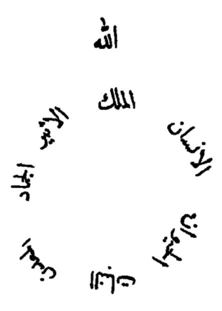
﴿ الجوهرة السادسة عشرة ﴾

(فصل)

(ليس مذهب داروين جديدا)

لا عجب إذا تفكرت فى سلسلة الحيوان أولا ولم أكتف بما سمعت من التعاريف المنطقية ثم وجدت القوم فى أوربا بحثوا فيها ودونوها وجعلوها سلسلة واحدة وكان ما كان بل العجب

كل العجب أن أقرأ هذا الموضوع بنفسه فى الـكتب العربية كابن خلدون وتهذيب الأخلاق لابن مكسويه والرازى وغيرها من كتب مشاهير العلماء فلقد رأيتهم جعلوا العالم دائرة سموها دائرة الوجود فقالوا الله أبدع الملك فالمادة الأثيرية . فالجماد . فالمعدن فالنبات. فالحيوان . فالانسان فالملك هكذا



وقالوا أن الجماد أدنى مرتبة من المعدن والمعدن درجات بعضها فوق بعض أعلاها الذهب فالفضة وهكذا إلى تمام المعادن السبعة ويلى الذهب أدنى النبات ويرتقى درجة فدرجة وأعلاه النخل لاستيفائه مكملات النبات العشرة المعلومة عندهم كالجمار والليف ولابد بين كل نوعين من مخلوق يأخذ شبهاً منهما ، وبعد هـذا

الحيوان ويرتقى شيئاً فشيئاً حتى يصل الى الحيوان المفترس ثم ما يقبل التعليم عن الانسان كالكلب وآخره مرتبة القرد ويليه الانسان . قالوا ضعف القرد عن ربط الحيوان بالانسان لمشاكلته فى الصورة والتقليد فقط وكان الفيل رابطة فى الذكاء والفرس فى الأدب والطاوس فى الجمال الصورى والبلبل فى جمال الصوت ثم قالوا ان سكان أطراف المعمورة أقرب الى القرود كقوم من الزنوج ومن فى شمال روسيا ، ولا يزال الانسان يترقى كلما قرب من المناطق المعتدلة حتى يصل الى الجهات التى أنجبت الأنبياء والحكماء والعلماء وهؤلاء أقرب الى الملك فلما وقفت على ما كتبوه وأوضحوه فى محله

لم أجد فرقاً بين هذا وبين ما ذهب اليه دارون الا أنهم نظموا العالم قلادة منتظمة كأنها دائرة أولها آخرها وأرجعوها الى جمال الأحكام وحسن النظام وبهجة الاتقان وقد أشار الرازى الى خلاف حصل بين قدماء الحكماء . هل تولدت هذه الأنواع بعضها عن بعض أم هى منفصلة ؟ ولقد عجبت كيف سبق الافرنج بعلماء العرب فى اتصال هذه السلسلة ، ولما خاطبت بذلك أحد

حكماء الانجليز تعجب جداً وقال ليس تحت الشمس من جديد وهذا مثل مشهور

﴿ الجوهرة السابعة عشرة ﴾

(فصل)

علم الله قبل أن تخلق أوروبا أنهم سيخوضون فى شأن الخلائق واشتراك الحيوان والإنسان فى الصفات والعوائد والسياسات وكان أرباب الدين السابقون وحكماؤهم السالفون إذا سألهم السائلون عن الحيوان وحياته والإنسان وحده قالوا لهم الفرق شاسع ولا مناسبة بين الطرفين فالأول كالمعدوم والثانى يقرب من من الملائكة الكرام بل بعضهم شرفه بل فضلوه فعبدوه واتخذوهم آلهة كالفراعنة المصريين كما ذكر عن فرعون (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) وقوله (ما علمت لكم من إله غيرى) فبذلك الفرق الشاسع والبون البعيد بين الانسان والحيوان كان الجواب للأمم السالفة والفلاسفة الغابرة حتى إذا قرب زمن رقىّ العلم والفلسفة وضع للعالم دين جديد حتى يرجعوا إليه إذا كشفوا نظام الحيوان وسياسته

وحيله وعلومه ومعارفه بالتفصيل أصبحوا يرون فيه كل يوم آية وأصبحت تلك الأحزاب إذا رأت تلك العجائب تحسد الحيوان على هنائه وراحته وسعده فى الفلوات وعزه فى الغابات فلا هو بالعبادات والتكاليف ملزم ولا عليه مسلط قاهر ولا تمييز بين طبقاته ثم حكم عليه أرباب الدين بالتلاشى مع أنه لا فرق بيننا و بينها إلا فى الكم فلا بد أن نتلاشى مثله وتلك التكاليف والعبادات والأحكام مخترعة مفتراة .

ولما أسسوا هذا الأساس بنوا عليه قصرين مشيدين أولهما ألاَّ حَجْرَ على الشهوات ولا إثم فى المحرمات ولا ذنب على أحد فى عمل ولاَ دين ولا يقين والثانى فك الأغلال والحكومات والتميز بين النوع البشرى إذ يدعى بعضهم التأله والكبرياء والعظمة ويتيه ويتجبر بنسبته إلى الاله وإن البقية عامة جهلاء لا يدخلون حماه إلا باذن أولئك السدنة والتقرب إلى أولئك الكهنة .

جاء القرآن فهدم ذلك الأساس وقصريه والأصل وفرعيه ، أما الأصل الذى أفسده فانك تراه يذكر فى الحيوان انه ذو نطق كالانسان فى مساق قصة سليمان (يٰا يُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ

وَأُوتِينا مِنْ كلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ الخ) نبه بما ذكر على ان للحيوان منطقاً كمنطق الانسان يذكرنا ان نهتم به حتى نقف عليه وأعقبه بأنهم أعطوا كل شيء كأنه يشير إلى أن الأمم متى علمت علوم الحيوان ارتقت إذ هو المعلم الأول ثم ذكر حديث النملة والهدهد وانذار الأولى لاخوتها واحتراسها من سليمان وهذا ليس القصد منه حكاية بل مجرد التنبيه والايقاظ ويقظة

الأفكار إلى العلوم من باب الكناية لم يقصد به الوقوف على الظواهر فحسب .

وانظر كيف جعل الهدهد يعرف مالم يعرفه سليمان ، وهو ماقاله الفوضويون والاشتراكيون والنهليست وكل من قرأ أو علم مذهب داروين إذ رأوا من أعاجيب تلك الحيوانات ما أدهشهم حتى اصغروا الصنائع للانسان فى جانب صنائعه ، ولقد قرأت فى كتاب انكليزى ان صنع النمل والعنكبوت فى نسجها لأجمل وابهى من صنع الإنسان وترتيبه فلا نساج فى الدنيا ولا بناء يساوى العنكبوت فى نسجه ولم نرعنكبوتا غلطت يوماً فى نسجها وبنائها ولا نحلة ضلت طريقها فى غدوها ورواحها ولا امالت حائطا فى بنائها والانسان غالط ساه يدرس الهندسة ويزاول اعمالها فاذا بنى او حفر تراه يخطئ اياما واياماً ويسهو حينا وحينا ، فكان ما جاء فى القرآن مناسباً من حيث فحواه لما اظهره الاكتشاف ، وإياك ان يجمد طبعك على ظاهر القول فتعده حديثاً من الأحاديث ، بل هذه رموز أريد مغازيها لا ظواهرها .

فظواهرها إقناع للجهلاء وبواطنها علوم الحكماء ، واحذر أن تكون فى منزلة بين المنزلتين : فلا أنت من العوام المقلدين ، ولا من الحكماء المحققين ، فان الذكاء المحدود هذا حده فيضيع صاحبه ولتعلم أن البلادة خير من الذكاء المحدود هذا وفى القرآن آيات غير ما ذكر كقوله تعالى . (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيه قال يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) فهذه الأخرى أقعدت الانسان عن طغيانه وأرته مركزه وأنه أحق أن يتعلم من الحيوان الاعجم ولا نطيل بمثل هذا ونقول ان الأصل الأول وهو أس الفوضويين والاشتراكين والنهليست قد انهارت دعائمه وخر بناؤه وتهدمت أركانه ، فخر عليهم السقف من فوقهم وبان أن الانسان والحيوان فى الدين الجديد بينهما نسبة ومجاورة فى الدنيا بما قدمناه من الآيات وفى الآخرة بما ذكرناه من قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) فهل بعد هذا بيان وبهذه الأد-

العقلية انهد شامخ واندك جبل وَخر سقف عليهم من فوقهم فانه ر
عليهم . فلنبحث الآن عن أول الفرعين

﴿الجوهرة الثامنة عشرة﴾

أولهما انتهاك الحرمات وخرق سياج الأدب بلا رادع يردعهم ولا زاجر يزجرهم مشابهة للحيوان ومطاوعة للشيطان وانه لا حشر لنا كما لا حشر لها وانا سنكون ترابا (إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) ونحن إذا هدمنا الأصل انهدم ما فوقه ونزيد ايضاحاً لما أسلفنا أنه يحشر كل بأخلاقه وأرائه شرفا وضعة وبعبارة أجلى سيمر المخلوقات فى العالم من مدرسة الى مدرسة مدرسة الحياة ومدرسة البرزخ والحيوان جاهل لم يمكنه التعلم فى الابتدائية فقير لم يصل لدرجة الأغنياء وأخوه الانسان أمكنه بما أوتى من المواهب أن يلحق بالتلاميذ ويرقى وجدانه ويلحظ جمال العالم ويشاهد حكمه ويتنحى عن المعاصى فلا يدنس روحه فاذا انتظم فى سلك الجند المسافر إلى الميدان واصطف فى صف من حازوا درجة فى الامتحان جاز المدرسة

الثانية البرزخية . شرف لا يحلم به الحيوان . فروحه خالصة وأرواحها شهوانية ما بين سبعية وبهيمية .

وهذا القول وأن يكن فى العقليات أشبه بالفرض فهو أقرب حل يركن إليه نوع بنى آدم فى حياتهم كما قبلوا فرض (لابلاس) فى منشأ العالم وخلقه وأنه كان كرة غازية فتكورت وتدورت وكان منها شموس وأقمار وأرض الخ وبنوا عليه كثيرا من الآراء فى العلوم والأعمال وكان مبناه التوراة فى سفر التكوين فليكن هذا الذى ذكرناه ملجأ العقلاء فى مصير العالم بعد الموت ليكون لهم اطمئنانا وراحة ومستندهم هذا الدين والآية المتقدمة . على أن هذا فى الحقيقة ليس أمراً فرضياً وهمياً بل قامت عليه البراهين العقلية وأيدته الفلسفة والحكمة ، وليس المقام مقام ابراز البراهين عليه لئلا يخرج بنا القول عن الخطة التى رسمناها فى هذا الكتاب ، والجادة التى انتهجناها ، فانما نريد الفرض من أقرب الطرق واسهلها على نفوس العقلاء . ومن لم تقنعه البراهين العقلية ووقف فى مواطن الشكوك والحيرة والأوهام فلم لا ينظر الى التاجر والصانع والزارع والجندى فأولئك يجدون ويعملون طمعاً فى نيل

ما يبتغون ويصبرون يومهم ويسيرون ليلهم ويجدون السير لا ليقين الثمرات بل لظنهم انها تثمر وكم من مسافر أخذه اليم بسفينة وكم من مزارع اجتاحت ثمراته البوائق وأهلكتها الصواعق فبارت وأصبحت أرضها صعيداً زلقاً وأصبح ماؤها غوراً فلن يستطاع له طلب ، وذلك دليل على ان الثمرات ليست من اليقين فى شىء وترى العقلاء قاطبة يهرعون اليها ويصبرون قليلا ليربحوا كثيراً ، فليس الشك بمانع من العمل فللظن درجة عظمى فى أعمال الانسان فلم لا تكون تلك النشأة التى وعد بها الناس داعية للعمل فى الحياة بالاحتياط مرغبة فى الحزم عند الذين يظنون ظناً ولا يوقنون ، فلم لا يفكر فى هذا بعض الدين ينكرون من السوسياليست (هم الاجتماعيون) والنهليست (هم العدميون) (والكمونيست) هم الاشتراكيون فى هذه النظريات ولا يحتجون بالحيوان فهو انما خلق للرقى كجميع المواليد والى هنا وقف بنا الجواد فى ميدان البحث فى الأصل الثانى

﴿ الجوهرة التاسعة عشرة ﴾

(الاصل الثالث وهو الفرع الثانى)

قال بعض الطوائف الثلاث : الاجتماعيين والعدميين والاشترا كيين كما قدمنا لا بعث ولا حشر كما تكون البهائم فلم نرى رجالا نعدهم عظماء علينا يهيمنون على أرواحنا ويسيطرون على أجسامنا يحكمونا ويقهرونا ويستحلون ماحرم فلم لانشارك الحيوانات فى ملاذها وتصرفاتها.ولم يتميز بعضنا عن بعض ونحن شركاء فى الحيوانية والناطقية وهذه الطبيعة والشمس والقمر والهواء والماء والأرض محيطات بنا من كل جانب . فما الذى ميزهم بالرفع ووسمنا بالخفض ، وظنوا هذا من لوازم الديانات فنبذوها لما شاهدوا دين المسيح اذ لم يروا سواه. تقول لهم هذا القرآن أثبت ماذكرتموه وجاء اشترا كيا اجتماعيا اذ جاء فيه (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) فلم يكن لأحد فضل على أحد الا بالتقوى وعمل البر وصلة الرحم والنفع العام حتى ورد فى السنة (لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) وورد يا فاطمة بنت محمد

لا أغنى عنك من الله شيئاً. عجباً لك أيها الانسان تعاليت وتشامخت وتعاظمت فى ملكوتك وتكبرت فى عظمتك وترفعت الى الجوزاء بل وسمت نفسك بالألوهية فقال فرعون اذ جمع الجموع وحشر الرجال . أنا ربكم الأعلى . فجاء فى الكتاب الحكيم على لسان سليمان عليه السلام (يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) فجمع الأول جمعه لاعلان الألوهية فطأطأ الثانى وخفض من حدته وكسر من شرته فهدَّ ذلك الصرح الذى شيده الانسان من قبل فخر كثيباً مهيلا وتنازل الى الحيوان وجمع الجموع وناداهم بالبشرى ها أناذا نبي ولقد أوتيت علما عظيما أعطيت علوم الطيور ففهمتها فأوتيت كل فضل وهذا فضل مبين . عرف الانسان قدره ولزم حده وزال التباين واتخذ الانسان الغراب أستاذاً فى قصة ابنى آدم بل دعا على نفسه بالويل وتحسر أن لا يلحق شأوه فى العمل فقال (يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) أبان لنوع الانسان القرآن تقارب بنى آدم اذا علموا تواضع أنبيائهم ، فوجب تواضعهم ونبذ الكبرياء والعظمة هذا وترى ابن العربى

فى الفتوحات يتجاوز فى ذلك حتى عد الحيوان أعلى درجة وأسمى منزلة مستنداً على علومها ومعارفها و نظامها وأحكامها وما أوتيت من خدمة الانسان وكنسه لروثها واحتياجه لها بل استدل بفداء اسماعيل بكبش فكان الفداء لنبي من الأنبياء عنوانا على فضل الفدية وهكذا تعالى تبعا للخيال بل اتخذ الانسان منه الأساتذة والمرشدين ولسنا نقصد الا أن شريعتنا أعطت الانسان درجته الخاصة به فلم ترفعه الى درجة يتميز بها البعض ولا أنزلته عن درجته بل رفعته عن الحيوان وأنزلته عن الألوهية (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

فانظر كيف استوى الناس فى مقام الوسط فصاروا إخوانا أخدانا وتراه تعالى يقول: (قلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

أمر أن تخص العبادة والخضوع بالله وحده لا شريك له ،

وأن لا يكون لأحد فضل على أحد بل يكون الناس سواء أمرهم شورى بينهم ، جاء فى الكتاب فى اليهود والنصارى (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

وسئل صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل كيف يعبدون الأحبار والرهبان فقال أليسوا يسنون لهم السنن ويشرعون لهم الشرائع ألا فليتفطن العقلاء ولينظر البلغاء والحكماء وليعلموا أن الأمر بالتوحيد وكسر الأصنام ونبذ التثليث ، كل ذلك لم يكن الا لتكسير قيود الرق والاستعباد وتقارب نوع الانسان ، أتدرى ما أثر هذه الآيات أثرها أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل الى ملوك العالم قاطبة أرسل الى قيصر وكسرى وملوك العرب ، وهذا خطابه الى قيصر :

(من محمد بن عبد الله الى قيصر عظيم الروم السلام عليك . أما بعد فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم الأريسيِّين (الفلاحين) ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء

بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون

هذا هو نص الخطاب المرسل إلى قيصر

تأمل كيف كان التوحيد هو السياسة وهذا هو مقصد الاشتراكيين والعدميين والاجتماعيين فى السياسة فعلى هذا ترى دين الاسلام دين عمران وسياسة إذ ترى توحيد الخالق نزع السلطان من نوع الانسان وحصر الكبرياء والعظمة فى مدبر العالم ويقول (لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ الهٍ إلاّ الهٌ وَاحِدٌ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إلى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَه وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِّيقَةٌ كانَا يا كلانِ الطَّعامَ، انظُرْ كَيفَ نُبَيِّنُ لهُمْ الآياتِ ثُمَّ انظرْ أنّى يُؤفَكونَ) نبذ التثليث ترفعا بالالوهية أن ينالها البشر أو تحل فيه لئلا تضل السياسة كما فعل القسيسون فى أوروبا وقد تدارك الله العالم بالاسلام فأفاض النور حتى انزاحت الغشاوة عن عين (لوثر) فنادى برفع الميزة بين البشر وترى

الخلافة بعد النبى صلى الله عليه وسلم فى الثلاثين سنة سارت على منواله وناهيك قصة جبلة بن الأيهم وتصميم عمر على القصاص منه بلطمة إعرابى كسرت رباعيته وقوله له إن الاسلام ساوى بين الناس . وانظر كيف يقول بعض الأصحاب لعمر وهو يخطب لو علمنا فيك إعوجاجا لقومناك بسيوفنا وقصة عمرو بن العاص مع ابن القبطي فى مصر معلومة إذ تسابق ابن عمرو مع ابن القبطى فضرب الأول الثانى وقال أنا ابن الأكرمين فبلغ عمر فأحضرهما بين يديه وضرب الثانى الأول بحضر من الصحابة حتى اشتفى ثم قال عمر لعمرو بن العاص متى اتخذتم عباد الله عبيداً

مضت الثلاثون فرجعت الخلافة ملكا عضوضا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدى ثلاثون ثم تصير ملكا عضوضا فلا بدع إذا كانت أمة الاسلام على ما هى عليه من التمايز بين الطبقات ونبذ الشورى فذلك لنبذ ما أمر به الدين

اعتاد أهل العلم أن يوردوا فى هذا المقام قوله تعالى وأمرهم شورى بينهم ونحن نقول لو قرأنا ربع القرآن وجدناه فى رفع الميزة بين البشر . ترى قصة سليمان يقول فيها قالت أى بلقيس يا أيها

الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ونرى هذا الكتاب الذى أرسله صلى الله عليه وسلم يدعو العالم أجمع للتساوى فى الحقوق ويدخلها فى الدعوة إلى الحق ولئن بقى دين على الأرض فلن يبقى إلا هذا الدين الذى هو السياسة الحقيقة فى العالم كما جاء فى الكتاب (هُو الذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحقِّ لِيظْهِرِه عَلَى الدِّينِ كلهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكونَ) وسنورد فى قسم السياسة ما فيه غنى للفطن اه

﴿ الجوهرة العشرون ﴾

(منزلة العلوم من القرآن وكتاب العرب والافرنج)

مزج القرآن مصالح الدين بالدنيا فأورد فى التوحيد وحب الله آيات تجمع حكمة الكون وبهجة العالم ونظامه فبينما يتأملها المبتدى لمعرفة الله ترى الذكى يشتاق إلى ما أبدع فى العالم من النظام والعجائب بل كثير من الآيات أوضح مشكلات منها وانذر من أعرض عن التوسع فى العلوم الكونية من الفلك والطبيعة والجبال والأنهار والنبات والحيوان والانسان والروح وما يشمل ذلك من قوانين . وعير قوما أعرضوا عنه وقرظ آخرين عرفوه ولكم قرر

مسائل كشفها المحدثون وأهملها الأقدمون كقوله فى ناموس الترقى (أَنْزَلَ مِنَ السَّماء مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيهِ فى النَّارِ إبتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثلُهُ كَذَلِكَ يَضرِبُ اللهُ الحقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَا مَا يَنفَعُ النَّاسُ فَيَمكُثُ فى الأَرْضِ) فتراه قرر أن مالا نفع فيه وأن ظهر واشتهر فما مثله إلا كمثل الزبد على الماء وفوق ما فى القدر على نار الطبخ وفوق الحلية المعدنية آن أذابتها بالنار لتصاغ حلية فترى الباقى النافع للناس مااستتر بالغشاوة كالعلم إذا استتر بالجهل فيبقى المـاء والذهب والفضة الخالصة فهكذا يبقى فى الامم والأشخاص والعلوم ما يصلح لنفع الناس وحياتهم وحاجاتهم ويذهب ما لا ثمرة فيه وسترى فيما سنورد ذلك فى الباب الآتى وهو باب العلوم

أن الدين باعتبار أصل وضعة هو نفس الدنيا والرقى فى الحياة والمـادة والروح وما مثل مصالح الدين والدنيا إلا كالروح و الجسد والمعنى والـكلم وكيف تعقل العقول الحكمة أو تنار بضياء الفهم وتبزغ فيها شموس المعارف إذا لم تنجل لهاتلك الأنوار والاضواء

المشرقة من لمحات محيا العوالم المشاهدة التى وجد فيهـا الانسان .
هذه العوالم غذاؤه فهى الغذاء وهى الدواء وهى المعقول ومنهـا تستمد آثار المعارف الحقة وتمتلأ الأفئدة منها حكما ومعارف فهى غذاء الأجسام بأحجامها ومخازن العقول بمعانيها فهى بنية الأجسام ومعناها غذاء الأرواح والعلوم والتبصرة

وورد فى هذا الكتاب المقدس ما بين سبعمائة وثمانمائة آية كلها فى الكون والاحاطة به وجاء فيه مقدار هذا العدد فى الآداب ومحاسن الأخلاق والشيم وتهذيب النفوس والعجب من كتاب العرب والافرنج إذ أراهم إذا مدحوه أطنبوا فى معاملاته وعباداته وجمعياته وأحسانهم ولم أر منهم من حام حول علومه فابرزها أو معارفه فأظهرها إلا ما كان من حكم أودعها الغزالى فى مؤلفاته فقد أبدى نكتا وأودع ملحاً مع ما كان من غشاء فلسفة اليونان والجدل والمناظرة وانصراف العقول عن العلوم إلى الفضول

﴿ الجوهرة الحادية والعشرون ﴾

(مباحث الاسلام ست)

وهى (١) العلوم جميعها وفى ذلك نحو ٧٠٠ آية (٢) نبذ ما يشين العلوم من الخرافات والضلالات والبدع والاوهام كالاصنام والرقى والكى بالنار والتفاؤل بالشر وهذا من الآيات مايربو على الألف (٣) العمران والنظر فى أحوال الأمم والسياسات وفى هذ أكثر القصص القرآنية (٤) الآداب ولها من الآيات مايربو على السبعمائة (٥) العبادات وهى عبادات فى صورتها آداب فى معناها (٦) نظام الجمعية الانسانية فى شكلها من العقوبات والأحكام والحدود وهى فى الحقيقة ترجع إلى نظام الدنيا بالذات والى الدين بالتبع نص عليه الغزالى وهذا القسم وما قبله لهما نحو ١٥٠ آية. وما كان أغلب اهتمام الكاتبين على الدين إلا بها وانى أربأ بقلمى أن يتجاوز أربعة وعشرين جزأ من خمسة وعشرين فى الدين ويقف فى جزء يضيع فيه حياته وليس الايمان هو هذه العبادات وحدها، كلا بل هذه هى نفس الاسلام أما الايمان فانما هو تلك العلوم والآداب والعمران ممزوجة بهذه العبادات وسنوفى

كل مقام ما يستحقه وأنى أرى حياتى سعادة وهناء إذا لويت عنان عقول كثير من ذوى النظر إلى احتناء العلوم والمعارف الكونية باعتبار أنها دين. فمن أيقن بذلك تراه يقرؤها وهو يعتقد أنه فى عبادة ولتعلم أن علماءنا رضى الله عنهم يقولون أن جميع الأعمال الدنيوية متى عرف مقصدها فى الدين كان لكل حركة فيها أجر ولكل سكون ثواب بل إذا نام الحكيم فى مخدعه عدت أنفاسه حسنات . وإذا استيقظ فلحظاته ونظراته وكلماته وخطواته تكتب له فى عليين فتثقل ميزانه وعندهم أن تفكر ساعة خير من عبادة سنة بل لحظة من الفكر خير من حياة الغافل وعابد بلا علم كشجرة بلا ثمرة . وربما ظن العاجز فى الدين أن ذلك العلم هو معرفة أحكام الصلاة والصيام إلى آخره ، كلا فهذا لم يخرج عن كونه معرفة عبادة عملية اما العلم المقصود فهو آيات الكون وحكمه ومحالى بهجته وآثاره وهل ترى دليلا على ماذكرناه آنفا آنفاً أجمل من قوله (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) بعد ذكر النظر فى الجبال والأنهار والثمرات والألوان والدواب والأنعام

﴿ الجوهرة الثانية والعشرون ﴾

(مدح العقل من الاحياء)

نرى هذا الدين يأمر بالنظر والفكر والتعقل يقول تعالى (اللَّهُ نورُ السَّمٰوَاتِ والأرْضِ مَثَلُ نورِهِ كَمِشْكاةٍ فيها مِصباحٌ) يمدح العقل ويسميه نوراً مظهراً لشرفه وسمى العلم المستفاد منه روحاووحياً وحياة فقال (وكذَلِكَ أَوْحَيْنَا اليكَ رُوْحامن أمْرِ نا) وقال تعالى (أَوَ مَنْ كانَ مَيتاً فأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لهُ نوراً يمشى بهِ فى الناس كَمَنْ مثلهُ فى الظُّلُمَاتِ ليسَ بخارجٍ منها) يمدح العلم بأنه حياة ونور ويذم الجهل بأنه ظلمة ، وفى الآثار : «يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه يخبركم عن ربكم واعلموا أن العاقل من أطاع الله وان كان دميم المنظر حقير الخطر ردىء المنزلة رث الهيئة ، وإن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحا نطوقاء الحديث وفيها أيضا « أول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً هو أعز

على منك بك أثيب وبك أعاقب وبك آخذ وبك أعطى وقال صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه ابليس . وقال صلى الله عليه وسلم لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار في النار (وقالوا لو كنَّا نسمعُ أوْ نعقلُ ما كنا في أصحابِ السعير) . وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لتميم الداري ما السودد فيكم قال العقل قال صدقت . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت . ثم قال سألت جبريل عليه السلام ما السودد فقال العقل . وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال كثرت المسائل يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن لكل شيء مطية ومطية المؤمن العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون فلان أشجع من فلان وفلان أبلى مالم يبل فلان ونحو ذلك فقال صلى الله عليه وسلم انهم قاتلوا على قدر ماقسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيلهم على قدر عقولهم فاجيب منهم

من أجيب على منازل شتى فاذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم . وعن البراء بر عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال جد الملائكة واجتهدوا فى طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجد المؤمنون من بنى آدم على قدر عقولهم فاعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا وعن عائشة رضى الله عنها قالت قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس فى الدنيا قال بالعقل قلت وفى الآخرة قال بالعقل قلت أليس انما يجزون بأعمالهم فقال صلى الله عليه وسلم لكل شيء آلة وعدة وآلة المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعى العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل ولكل امرىء عقب ينسب اليه ويذكر به وعقب الصديقين الذى ينسبون اليه ويذكرون به العقل ولكل سفر قسطاس وقسطاس المؤمنين العقل اه(١) .

(١) تذكرة : هذه منقولة من الأحياء وبعضها ضعيف والعلماء أجازوه لفضائل الأعمال

فاذا كان العقل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه المنزلة من الشرف وانه لا إيمان ولا دين ولا علم ولا دنيا ولا آخرة إلا بالعقل فليكن هذا الدين دين العقل والفكر لا دين تقليد ولذلك لا يسمى الانسان فى نظر علمائه مؤمنا مصدقا بما سمع إلا إذا عرفه بعقله وصدقه وأقام عليه البرهان وعندهم أن العقل إذا صادم النقل يقدم العقل عليه والنقل مؤول لمعنى يناسبه وإلا كان مما اختص الله بعلمه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

﴿ الجوهرة الثالثة والعشرون ﴾

(الأقسام مفاتيح العلوم)

اعلم أن الله أقسم بأشياء مما خلق وعمد إلى ما جمل شكله وعظم نفعه وبهر حسابه فعدده فى أقسامه

ولعمرى أن النوع البشرى لن يقسم إلا بمعظم لديه أو بمسيطر عليه . يقول الولد وحق والدى . وتقول الرعية ورأس فلان الحاكم . والجندى يقسم بشرف الجندية ويقسم الوزراء بالملوك ونسمع لرجل يحلف بعينيه لما يرى من منفعتهما وزينتهما . وقد أقسم الله بأشياء عددها وصنوفا من نعم أبدعها كالشمس والقمر

والكواكب ولم يكن ذلك لخوفه منها فأنه الخالق لن يهاب ماخلق ولن يحتاج لما ذرأ وأبدع . أقسم بها إذ رأى نوع الانسان يقسم بما عظم نفعه وعز عليه فلفتهم وأيقظهم إلى ماذرأ ونبههم إلى مصنوعاته ليعرفوها فلم يرد أن يعبدوها إذ لا إله إلا الله فالأقسام بها يرجع إلى عزتها وشرفها ولم يكن ذلك لتحريضهم على الحصول عليها بوجودها فى حوزتهم فذلك مستحيل فرجع الأمر إلى العلم وفات الانسان أن يملك هذه العوالم ويسيطر عليها إذ لاسلطان إلاالواحد هو الله فكان المقصود من الأقسام فى حقهم أن يعرفوا جلالة ما صنع ويتبعوا حركات الافلاك وعلوم الضوء وحسابه والمشارق والمغارب ويشرحوا تلك الأجسام ويلاحظوا حركاتها وسكناتها لترقى نفوسهم إلى علوها وشرفها فتراه عز شأنه أقسم عشرين قسما بالاجرام العلوية وخواصها وأضوائها ومواقعها تراه أقسم بالفجر والفلق وهو الصبح والشمس والضحى والنهار والعصر والليل إذا يغشى (يغطى) المخلوقات كأنه ملاءة منشورة عليهم والليل إذ يسرى يسير حول الكرة الأرضية تابعا النهار والنهار يتبعه وأقسم بالليالى العشر فى أول كل شهر عربى لغلبة ظلامها على ضوئها وأقسم

بالنجم إذا هوى تنبيها على مغارب النجوم وإيقاظالها وأقسم بمواقع النجوم وأما كنها الواقعة فيها ودوائرها ثم أعقبه بقوله وإنه لقسم لو تعلمون عظيم فاذا أقسم وعظم القسم فهل يكون ذلك إلا للفت النفوس اليها لتعرف مواقعها وقياسها وأبعادها وحركاتها وسكناتها وقال (أقسمُ بربِّ المشَارقِ والمغارِب) أى محل الشروق والغروب وأقسم بالشفق وبالليل وبما وسق الليل أى جمع وأقسم بالقمر وبالسماء ذات البروج تنبيها لمعرفتها لتعرف السنون والشهور والأيام وأقسم بالسماء ووصفها بأنها ذات الحبك أى طرق النجوم وبالقمر إذا اتسق أى امتلأ بالنور وأقسم بالسماء وبمن بناها وأقسم بالنازعات غرقا وهى النجوم التى ترمي شهباً عن دوائرها المشبهات القوس فكأن النجم انسان والدائرة قوس والشهاب الساقط سهم وذكر أنها نشطات فى سيرها مسرعات فيه تتم دورانها كالشمس فى سنة والقمر فى شهر فقال (والناشطات نشطا والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً) أى النجوم التى تسبق غيرها وتتم دورتها سريعاً (فالمدبرات أمراً) وهى هذه النجوم لانها بهـا يتم تدبير العالم فذكر هذه الكواكب والعوالم ومواقعها ليحرض السامعين على

البحث عنها فيعرفون الفلك والميقات وحساب الكواكب وابعادها واجرامها وتحليلها واعدادها بقدر الاستطاعة ويبحثون عن الضوء فى الطبيعة . ثم انه تعالى أقسم بذكر أشياء أخرى مما تحت الفلك وأحاط بالكرة الأرضية فأقسم بالرياح الذاريات) وبالجبال فقال (والذارياتِ ذَرواً فالحاملاتِ وقراً) أى الرياح التى تحمل السحاب وتذرو الأشياء . وأقسم بالارض وما طحاها فالأرض مفهومة وطحوها دحيها وتسويتها وإتقانها وأقسم بالجبل فقال وطور سينين وبالنبات فقال (والتينِ والزيتونِ) وبالبلد الذى خرج منه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (فقالَ وهذَا البلدِ الأمينِ) وأقسم بالخيل فقال (والعادياتِ ضبحاً) أى الخيل التى تعدو وهى تضبح فى الجرى ضبحا وأقسم بكل من يحس وكل ما يحس فكأنه أقسم بكل محسوس وبكل ما يحس به وكأنه أقسم بالناطق والصامت فقال (وشاهدٍ ومشهُود) وأقسم بيوم القيامة وبيوم الجزاء ويوم الميعاد الذى سيجازى فيه الناس وأقسم بالكتب المسطرة المنثورة وهى ما يقرؤه الناس وأقسم بالبحر ثم عمم القسم بكل ما خلق فقال : (أقسِمُ بما

تُبصِرُون وما لا تُبصِرون) فكأنه أقسم بكل شيء إذ العالم قسمان : مايبصر ومالا يبصر وجاء بتعميم آخر فأقسم بالشفع والوتر ولا ريب أن العدد أما شفع أو وتر هذه نحو عشرين قسما أحاط بها الأرض والهواء والسحاب والجبال والنبات والحيوان وخصص الانسان منه فقال (ووالدٍ وَماوَلد)أى أقسم بآدم وأولاده وغيرهم وخصص ذلك بعد فقال (ونفسٍ وما سَوَّاها) فأقسم بالنفوس وتسويتها فتراه أقسم بامهات العالم كلها وأخيراً أقسم بكل ماخلق مما نشاهد ومالا نشاهد. تفيد هذه الأقسام بالعلويات وهى تبلغ العشرين وبالسفليات وهى تبلغ العشرين أيضا ان الله أمر عباده وأوجب عليهم النظر فى العلويات والسفليات بالتساوى وفى الحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلم العمران والنفس وجميع العلوم إذ لم تخرج فى البحث عما ذكر فى تلك الأقسام التى أقسم بها مبدعها وكأن الأمة التى جهلت ما أقسم به وأعرضت عنه ولم توفه حقه فى النظر قد أعرضت عما أقبل عليه مبدعها وأزورت عما أراده خالقها . جعلنا هذه الأقسام مفاتيح العلوم لأنه ذكر جواهر الأشياء فيها ليلفت اليها العقول ويحرض على البحث عليها العلماء والأمم ولم نقل انها العلوم لأن الآيات التى سنذكرها

قريبا سنعطى لكل جوهر من هذه الجواهر قسطه منها وتوفيه نصيبه غير منقوص فاذا طالعت أيها القارىء ما سأقص عليك من كتاب الله تعالى والآيات الواردة فى الحض على العلوم فستعجب كل العجب ولتجدن أن الدين دين العلوم والحكم . دين العمران والنظام دين المدنية الحقة . دين رقى النفوس . دين ارتقاء نوع الانسان . دين بقى كنزاً مخفيا لم يكتشفه علماء العصر المفكرون دين خيم عليه عنا كب النسيان وأحاط به سور الهجران واضحى فى خبر كان اللهم الا جزءاً قليلا من عباداته ومعاملاته التى تكفى لحياة الضرورة وانى لارجو أن يكون كتابنا هذا كاشفا عن محيا جلاله . مظهراً جمال بهائه . مسفراً عن كنه معانيه . باسطا شارحاً مبيناً . وانى أستعين بمسبب الأسباب مدبر الخلائق القادر الحكيم أن يلهمنى الصواب ويوفقنى كما ألهمنى أنه سيجيبنى أنه لطيف بعباده رؤف رحيم

﴿الكلام على معارف الدين الاسلامى﴾

نذكرها هنا بعد ماذكرناه سابقاً لفوائد

إعلم أن معارفه تنقسم كما قدمنا إلى ستة أقسام (١) العلوم الكونية وهى أهمها ويدخلها توحيد الله تعالى (٢) نبذ الخرافات

كعبادة الأصنام والشرك بالله (٣) الاخلاق كالصدق والأمانة وحب المؤمن للمؤمن (٤) العمران والنظر فى أحوال الأمم (٥) العبادات وهى تتمم الأجزاء السابقة فى الدنيا وتعرج بالعبد إلى ربه فى الآخرة (٦) الأحكام والحدود والعقوبات وهذه ترجع إلى أحوال الدنيا ونظامها بالذات والى الآخرة بالتبع ولنذكر هذه الأقسام اجمالا من كتاب الله تعالى حتى يتخيل القارىء هذا الدين من نفس الكتاب الأصلى المقدس ويقف عليه اجمالا ثم نرجع فنفصله بقدر الاستطاعة مع الاختصار ومع التنبيهات اللائقة بها تذكرة للقارىء ولعلنا نفسرها تفسيراً وافيا إن شاء الله تعالى

﴿ الجوهرة الرابعة والعشرون ﴾

(القسم الأول اجمال معارف القرآن)

(١) العلوم الكونية أوجب الله على الناس تلك المعرفة فى الكتاب المقدس فقال (قلْ انظرُوا ماذا فى السمواتِ والأرضِ) فأمرهم بالنظر ولم يكن النظر مجرد التحديق إلى السماء بالحدقة فأدنى رجل ينظر ببصره وإنما ذلك الاعتبار بالبصيرة والفكر بالقلب ولما أعرض قوم عن ذلك وبخهم وأنذرهم فقال (أَوَلمْ يَنظُرُو فى

مَلَكوتِ السموَاتِ والأرض وما خلقَ اللهُ منْ شيء وأنْ عَسى أَنْ يكونَ قد اقترَبَ أجلهُمْ فبأىّ حديث بعدَهُ يؤمِنون) وأنذر الأمم أنها إن لم تنظر فى هذه الدنيا وعوالمها فسوف تفنى أجمعها بالجهل وتذهب إلى النار وقال (إنّ فى خلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلاف الليلِ والنهار لآياتٍ لأُولى الألبابِ الذينَ يذكرونَ الله قياماً وقعوداً وعلَى جنوبهمْ وَيتفكّرُونَ فِى خلقِ السّمواتِ والأرضِ ربّنَا مَاخَلَقْتَ هذَا باطلاً سُبحَانَكَ فقِنَا عذابَ النَّار) وقال (إنّ فى خَلْق السّموَات والأرضِ واختلافِ الليل والنّهَارِ والفُلكِ التى تجرِى فى البحْرِ بما ينفعُ الناسَ وما أَنْزَلَ الله منَ السّماء منْ ماءٍ فأَحيا بهِ الأرضَ بعْدَ موْتِها وبثّ فيها منْ كلّ دَابةٍ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المُسَخّرِ بينَ السّماء والأرضِ لآياتٍ لقوْمٍ يعقلون) وقال: (إنّ فى خلق السّموات والأَرضِ لآياتٍ للمؤمنينَ) (وفى خلْقِكمْ وما يبُثّ منْ دابةٍ آيات لقوْمٍ يوقنُونَ واختلاَفِ الليلِ والنهارِ وما أنزلَ اللهُ منَ السماء منْ رزْقٍ فأَحيا بهِ الأرضَ بعدَ موتِها وتصريفِ الرياحِ آياتٌ لقومٍ يعقلون) فهذه خمس آيات تشمل النظر فى

العلوم جميعها من الفلك والسحاب والماء والهواء والحيوان وتشريحه والسفن ونظامها وإن شئت أن تسمع آية تشمل العوالم كلها فاقرأ قوله تعالى فى سورة النحل (خلقَ الأنسانَ منْ نطْفَةٍ فإذا هوَ خصيمٌ مبينٌ إلى قوله تعالى وان تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحْصوها إنَّ اللهَ لغفورٌ رحيم) ولأكتف الآن فى القسم الأول وهو قسم العلوم بهذه الآيات ونكل الأطناب إلى التفصيل الآتى فى القسم الثالث

ألا تنظر أيها القارىء كيف كنت إلى الآن لم أذكر التفصيل وتعجب كيف ورد على سمعك مادعاك إلى التصديق والاذعان ألم تسمع ما أقسم به من أجرام العالم العلوية والسفلية مما يهيج النفوس العاقلة والقلوب المفكرة والنفوس الذكية إلى البحث والنظر وها أنت ذا سمعت بعض الآيات وهى ست من سبعمائة ونصف مائة وكلها فى الحث على العلوم كلها مابين روحانية وجثمانية علوية وسفلية فكيف بك إذا سمعت ماسنتلوه عليك مما ستستغرب منه تأخر المسلمين الحاضرين ورجوعهم إلى مصاف الضعفاء ذلك أنهم نبذوا أعظم الأشياء ورؤسها واتبعوا ماسهل مأخذه من الحركات الجثمانيةوفروا من العقلية والادبية

﴿ الجوهرة الخامسة والعشرون ﴾

(القسم الثانى نبذ مايضر العقل ويخالف العقيدة)

يقول توبيخا للجهال على عبادة الأصنام (١) أفرأيتم اللاتَ والعُزّى ومَناتَ الثالثة الأُخْرَى) اللات والعزى ومنات هى ثلاثة أصنام يعبدونها كأنه يقول لهم أما رأيتم إلا هذه الأصنام المحقرة التى لا تنفع (٢) قال (أتَعبُدُون مَا تنحِتُونَ واللهُ خَلَقَكُمْ ومَا تَعمَلُون) فيقول لهم كيف تعبدون ما صنعتموه بنفوسكم والله خلقكم وهذه الأصنام المنحوتة (٣) وقال (أف لَكُمْ ولما تعبدُون منْ دونِ اللهِ أفلاَ تَعقِلون) يقول لهم موبخا بعداً لكم وسحقاً أنتم وكل ماتعبدون غير الله فان المعبود لابد أن يكون واحداً ويقول الله (٤) (وقَالَتْ اليهودُ عُزيرٌ ابنُ اللهِ وقالتِ النصَارَى المسيحُ ابنُ اللهُ ذَلِك قولُهُمْ بأفواههم يُضَاهِؤنَ قولَ الذِينَ كفروا منْ قبل قاتَلَهم اللهُ أنَّى يؤفكونَ) يذم قوما جعلوا لله ولداً كالنصارى وبعض اليهود وقال أنهم يشابهون من قبلهم من الأمم يعظمون بعض العظماء حتى يتخذوهم أبناء الله ثم دعا عليهم فقال قاتلهم الله وهذه إشارة إلى لعنتهم وخزيهم وقال أنى يؤفكون أى كيف يصرفون عن

العذاب وقال (ولقد أتينا ابراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قبلُ وكنا بهِ عالمينَ إذْ قالَ لأبيهِ وقومِهِ ماهذهِ التماثيلُ التي أنتم لها عاكفونَ قالوا وجَدْنا آباءنا لها عابدينَ قالَ لقدْ كنتمْ أنتمْ وآباؤكم في ضلالٍ مُبين قالُوا أجئتَنَا بالحقِّ أمْ أنتَ منَ اللاعبينَ الخ) وهكذا حكاية موسى فنها (قال بلْ ربُّكُمْ وربُّ آبائكم الأولين قالَ إنَّ رَسُولَكم الَّذِي أُرْسِلَ إليكُم لمجنُون قالَ ربُّ المشرقِ والمغربِ وَمَا بينَهما إن كنتم تعقلونَ) هذه صورة محاورة بينَ ابراهيمَ وقومه، وموسى وفرعون ذكرت فى القرآن لترشد الأمة إلى ترك الأضاليل وانتهاج الحكمة والعلم وتوحيد الله.

هذا الدين لا يأخذ إلا بما هو معقول ولا يرضى بالتقليد فى جميع الأمور قال تعالى (فبشرْ عِبادى الذينَ يستمعونَ القولَ فيتّبعون أحسنهُ أولئكَ الذينَ هداهُمُ اللهُ وأولئكَ همْ أولوا الألباب) فأمر الإنسان بالأحسن ألا وهو المعقول النافع وأن ينبذ الناس ماليس بأحسن وبشرهم وجعلهم خواص عباده وأثنى عليهم بأنهم مهديون وأنهم أولو الألباب وانظر المحاورة التى جرت بين موسى والسحرة وبنى اسرائيل فيما ذكر الله فى القرآن تر أن سحرة

فرعون علموا مقدار علم السحر وأيقنوا أن العصا لن تبتلع الحبال بنواميس السحر الذى يشاركهم فيه موسى فلم يبق إلا أن هذا أمر سماوى فآمنوا بالبرهان المناسب بإذواقهم وعقولهم فثبت الإيمان عندهم وأصبحوا موقنين مع أنهم أعداؤه وهم عبدة فرعون وجنوده وأعوانه وسحرته وعليهم كان اعتماد أمة المصريين فى نشر دينهم القديم ونبذ هذا الدين الحديث. أما بنو اسرائيل فلما لم يكونوا من الحكماء ولاهم من جلة العلماء خاطبهم بما يليق بعقولهم وما يناسب علومهم مما يحس بحاسة البصر فرأوا العصا تلقف السحر العظيم ويد موسى بيضاء بعد أن كانت سمراء فأمنوا إيمانا ظاهريا حتى إذا مضت الأيام وخرجوا من البحر إلى حدود آسيا (قالوا ياموسى إجعلْ لنا الٰها كما لهمْ آلهةٌ قالَ إنكم قوم تجهلونَ أنَّ هؤلاءِ متَبرَّماهمْ فيهِ وباطل ما كانوا يعملون) أى أن عمل هؤلاء هالك وباطل قال (أغيرَ اللهِ أَبغيكم الٰها وهو فضلَّكمْ على العالمين) هذه المحاورة كجميع قصص القرآن جعلت عظة للناس وتفقها وحكما بالغة يرادمنها تلك المغازى والحكم والأسرار والسرّ هنا أن الجاهل الذى يؤمن بالظواهر لاثبات لأيمانه إلا بما يقومه آنا فآنا.

ألا ترى أن موسى عليه السلام إذ غاب عن بنى اسرائيل أربعين يوماً أشركوا بالله وعبدوا العجل لأن من آمن به لأجل العصا وهى من عالم الشهادة وقد تلقفت السحر لا محالة يؤمن بعجل من ذهب له خوار لالتباس المحسوسات بخلاف المعقولات إذ هى متمايزة صادقة لا ليس فيها فسحرة فرعون خاطبهم فرعونهم بقوله لأصلبنكم فى جذوع النخل فقالوا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وصبروا على القتل والموت بثبات اعتقادهم بدينهم أما بنو اسرائيل فتزلزل إيمانهم لشىء صغير وهو رؤية عجل مصنوع بهرهم صنعه ولما رأوا أقواما يعبدون صنما تقهقروا إلى عقلهم المعهود وفكرهم المحدود وسألوا الأصنام أن يعبدوها .

هذه المحاورات وأمثالها كثيرة فى القرآن حتمت على الناس أن يكونوا فى امورهم الدينية والعقلية والمعاشية متبعين العقل - ذم من أعرض عن التعقل فى آيات كثيرة فقال (أَمْ تَحسبُ أنَّ أَكثَرَهُمْ يسمَعُونَ أَوْ يَعقلونَ إنْ هُمْ إلاَّ كالأنْعام بِلْ هُمْ أَضل) والآيات فى هذا ربما تبلغ نحو الألف فى القرآن وكم ندد على من ترك التذكر والتعقل وكم مرة يقول أفلا تعقلون أفلا تبصرون

أفلا تذكرون وبالجملة فهذا الكتاب كله يبحث عن العقل والفكر والنظر والتأمل حتى لايعمل الأنسان عملا إلا عن صدق وسيأتى تفصيل هذا فى الباب المفصل فيه

(القسم الثالث) الآداب فى الكتاب الكريم نحو ثمانمائة آية فى الآداب ومحاسن الأخلاق والمعاملات فتراه تعالى يأمر بالصدق وبر الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ومواساة الفقراء والجهاد فى سبيل الله علما وعملا وحكمة ولأذكر لك الآن آيات فى هذا الفصل تناسب الاجمال كسابقيه فنقول قال الله تعالى (قد أفلحَ المؤمنونَ الذينَ هُمْ فى صَلاَتِهِمْ خاشِعُونَ وَالذينَ هُمْ عنِ اللغوِ مُعْرِضُونَ وَالذينَ هُمْ للزَّكاةِ فاعِلونَ والذينَ هُمْ لِفرُوجِهِمْ حَافِظونَ إلاّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيمانُهُمْ فانَّهُمْ غيرُ مَلومينَ فمن ابْتَغَى وَراءِ ذلكَ فاولئكَ هُمُ العادُونَ والذينَ هُمْ لأماناتِهِمْ وعهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالذينَ هُمْ على صَلاَتِهِم يحافِظونَ أولئكَ هُمْ الوَارِثونَ الذينَ يَرِثونَ الفرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالدُون) فى هذه الآية أمر بالخشوع فى الصلاة لترجع النفس فيها إلى عالمها المقدس. وأمر بترك اللغو من الأقوال والأفعال

فيزن الانسان جميع حركاته وسكناته وأمر بالزكاة وهى إخراج جزء من المال للفقراء والمساكين معلوم فى بابه . وأمر بترك الزنا. وقربان النساء إلا ما أحل ومدح الذين يراعون الأمانة والأموال والعلوم والأسرار والعهود التى أخذها الله أو الناس . ومدح الذين يحافظون على صلواتهم ثم ذكر أنهم هم الوارثون وهذه الآية فيها ثمان وصايا . وهاك آية فيها عشر وصايا فمدح الذين يدينون بهذا الدين . ويصدقون ويطيعون الله . ويصدقون فى الأقوال والأفعال . ويصبرون على ما ألم بهم وعلى الأعمال الواجبة. ويتواسون ويتصدقون بما قدروا . ويصومون أياماً فى السنة لتنجلى لهم روح عالية فى نفوس صافية . ويحفظون فروجهم . ويذكرون الله كثيرا فهذه عشر صفات للمؤمنين والمؤمنات جمعت فى آية وهى بترتيب ماذكرناه كالشرح لها مقدماً (إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصادقينَ والصادقاتِ والصابرينَ والصابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتصدِّقينَ والمتصدِّقاتِ والصائمينَ والصائماتِ والحافظينَ فروجهم والحافظاتِ والذاكرينَ الله كثيراً والذاكراتِ

أعدَّ اللهُ لهمْ مغفرَةً وأجراً عظيما) وهاك آية جمعت اثنى عشر وصية وهى (وعِبادُ الرَّحمٰنِ الذينَ يمشونَ على الأرضِ هَوْنا) بالوقار والكمال (وإذَا خَاطبهمْ الجاهِلونَ قالوا سلاَما) العفو عن أراذل الناس والمسامحة فى صغار الأمور (والذينَ يبيتونَ لربِّهمْ سُجَّداً وَقياما) التهجد. ويلحق به كل عمل من العبادات (والذين يقولون ربَّنا اصرفْ عنَّا عذَابَ جهنمَ إنَّ عذَابَها كانَ غراما) لازما. يريدون أن تخلص نفوسهم من ذنوبها ويعرفون أن بين ذنوبهم وعذاب نفوسهم ملازمة فاذا لازمتهم الذنوب بالغرام بها لازمهم العذاب فى نفوسهم. ولحقهم الأذى العظيم بعد موتهم فى جهنم (انها ساءتْ مُستقَراً ومُقاما والذينَ إذَا أَنْفَقوا لم يسرِفوا ولم يقْتُروا وكانَ بينَ ذلكَ قَواما) وسطا. حث على التوسط فى النفقات وترك التبذير والبخل (والذينَ لايدْعُونَ معَ اللهِ إلهاً آخرَ) لايشركون بالله شيئاً وذلك لأن العالم الذى نحن فيه واحد وكل كوكب أو مجموعة شمسية كعضو من أعضائه فكأن العالم كله إنسان واحد له أعضاء فالمدبر له واحد كما أن الانسان الواحد تدبره نفس واحدة (ولا يقتلونَ النفسَ التى حرَّمَ اللهُ إلا بالحق

ولاَ يزنونَ ومنْ يفعل ذلكَ يلقَ أثاما يضاعَفُ له العَذابُ يومَ القيامةِ ويخلُدْ فيهِ مُهاناً إلاَّ من تابَ وآمنَ وعملَ عملاً صالحاً فأولئكَ يبدِّلُ اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ وكانَ اللهُ غفوراً رحيما ومن تابَ وعمِلَ صالحاً فانهُ يتوبُ الى اللهِ مَتابا والذين لا يشهدُونَ الزور) كل مشهد محرم أو لغو لا منفعة فيه لايحضرونه (واذامروا باللغْو مرُّوا كراما) هم لايحضرون واذا مروا به بلا قصد مروا سكوتا (والذينَ اذَا ذكرُوا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا) انهم فى مجالس اللغو كارهون واذا سمعوا الحكم والعلوم ومعرفة الله تعالى أذنوا لها واستمعوا لها (والذين يقولون ربنّا هب لنا مِن أزوَاجنا وذرياتنا قرة أعين) يجهدون أنفسهم بالدعاء والعمل أن يتبعهم أزواجهم وأبناؤهم (واجعَلْنَا للمتّقينَ إماماً) يداومون على دعوة الأُمة لما يعلمون فيهذبون أنفسهم وأهليهم وأمتهم (أُولئكَ يجزَوْنَ الغرفة بما صَبرُوا ويُلَقّوْنَ فيها تحيّةً وسَلاَماً) وعدهم بالجنة وبالبشر لهم عند اللقاء (خالدين فيها حسنَتْ مُستقراً ومُقاماً)

وفى سورة الأسراء أربع وعشرون وصية متتابعة :

(١) عبادة الله (٢) و نبذ الشرك (٣) والوصية بالوالدين إحسانا (٤) ولا يقال لهما أف أى يترك أقل هفوة من قول أو عمل معهما (٥) ولا ينهرهما أى لا يقل لهما قولا فى غلظة (٦و٧) التواضع لهما والدعاء لهما بالرحمة بما ربياه من قبل (٨) الاحسان لذوى القربى والمساكين وابن السبيل « المسافر » (٩) ترك التبذير فى الاحسان والانفاق (١٠) الاعتذار بجميل القول إذا قلّ ماله (١١) ترك البخل (١٢) التوسط فى الانفاق فيكون قواما « وسطا » (١٣) لاتقتل النفس إلا بحق (١٤) ترك الزنا (١٥) النهى عن قتل الأبناء (١٦) ترك الاسراف فى القصاص عند القتل (١٧) عدم الظلم فى مال اليتيم (١٨) الوفاء بالعهد لله وللناس وللرسول وللكتاب وللعلم (١٩) وفاء الكيل (٢٠) وفاء الوزن (٢١ و٢٢ و٢٣) ترك الفضول من القول والعمل لأن السمع والبصر والقلب يسأل عنها المرء يوم القيامة (٢٤) ترك الخيلاء والكبر هذه أربع وعشرون نصيحة وضحت

فى الآيات المتتابعات بالترتيب الذى ذكرناه والنسق الذى انتهجناه وهى (وقضى ربكَ ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوالدين إحسانا إمّا يبلغنّ عندكَ الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقُلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولاً كريماً واخفضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرَّحمةِ وقُلْ ربِّ ارحمهما كما ربيانى صغيراً ربُّكم أعلمُ بما فى نفوسكم إنْ تكونوا صالحينَ فإنَّهُ كان للأوَّابين غفوراً وآتِ ذا القربى حقهُ والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولا تبذِّرْ تبذيراً إنَّ المبذِّرينَ كانوا إخوانَ الشياطينِ وكان الشيطان لربِّهِ كفوراً وإمّا تعرضنّ عنهمُ ابتغاء رحمة منْ ربِّكَ ترجوها فقلْ لهما قولاً ميسوراً ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً الى عُنقِكَ ولاَ تبسُطها كلَّ البسْطِ فتقعُدَ ملوماً محسوراً انّ ربّكَ يبسُط الرِّزْقَ لمنْ يشاء ويقدِرُ انّهُ كانَ بعباده خبيراً بصيراً ولا تقتلوا أولادَكمْ خشيةَ املاقٍ نحنُ نرزقهُمْ وايّاكمْ انَّ قتلهُمْ كانَ خِطأً كبيراً ولا تقربوا الزِّنا انّهُ كانَ فاحشةً وساء سبيلاً ولاَ تقتلوا النّفسَ التى حرّمَ اللهُ الاّ بالحقِّ ومَنْ قتِلَ مَظلوماً فقدْ جعلنا لوليِّهِ سُلطاناً فلا يُسرِفْ فى القتل انّهُ كان منصوراً ولاَ تقربوا مالَ

اليتيم إلاّ بالتى هِىَ أحْسَنُ حتى يَبلغَ أشدَّهُ وأوْفوا بالْعهدِ إنَّ العهدَ كانَ مَسئولاً وأوْفوا الكيْلَ إذا كِلتُمْ وزنوا بالقسطاس المُسْتقيم ذَلِكَ خيْرٌ وَأَحْسَنُ تأْويلاً وَلاَ تقفُ مَا ليْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبصَرَ وَالْفُؤَادَ كلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئُولاً وَلاَ تَمْش فِى الأرْض مَرَحًا إنَّكَ لنْ تخْرِقَ الْأَرْضَ ولَنْ تبْلغَ الْجبالَ طُولاً كلُّ ذَلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكرُوهًا ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إليْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تجْعَلْ مَعَ اللهِ إلَهًا آخرَ فتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا) وهذا آخر (٢٤) نصيحة ولأقص عليك فى هذا الاجمال آية فيها اثنتا عشرة وصية وهى (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتَالاً فَخُوراً) أوصى بعبادة الله وتوحيده والاحسان الى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والجار القريب الملاصق والجار البعيد غير الملاصق والصاحب الملازم لك

فى مدرسة أو منزل كالزوجة ونحوهم والمسافر فى الطريق وأعلن عدم حبه للمتكبرين المفتخرين البخلاء بالمال والعلم ، فهذه ١٢ وصية ، وهاك عشر نصائح فى آية وهى التوبة والعبادة والحمد لله والسياحة فى الأرض والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وترك المحرمات والتصديق بالبراهين وهذه هى الآية : (الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) فهذه ٧٦ وصية جاء فى آيات ذكرناها لك الآن فى هذا الاجمال تعجيلا للفائدة وقبل فتح باب التفصيل لترى أمراً غريباً عجيبا فى هذا الكتاب ولا مسك بعنان القلم عند هذا الحد فى الآداب وأكل الاسهاب فيه الى وقت التفصيل فيما سيأتى ان شاء الله تعالى قريباً

﴿الجوهرة السادسة والعشرون﴾

(القسم الرابع – العمران والسياسة فى القرآن)

سترى فى كتابنا هذا أن أكبر اهتمام القرآن بالعمران وأحوال الدول والممالك وكم أمر بالنظر فى أحوالها والتأمل فى دمار قوم وحياة آخرين . ولنذكر لك فى هذا الاجمال آيات تتضمن جملا من علوم العمران . ونتبعها ببضعة أحاديث إجمالا على شريطتنا التى اشترطنا وخطتنا التى التزمنا . ترى القرآن يأمر الناس فى سورة بل فى كل بضع آيات بالتوحيد وترك الاشراك بالله وقد بالغ فى ذلك وكرره وأكده وأوعد بالعذاب حتى قال إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فاعلم أن ذلك لحكمة عظيمة وهما أمران عظيمان وركنان قويان وأصلان مهمان

ألا وهما تحقيق العلم ودوام العمران أما الأول فاذا علم المرء أن الخالق القاهر المسيطر العالم بالغيوب الحكيم واحد لا غيره عرف أن العالم كله لم يصل أحد فيه إلا لشىء محدود من علمه فيجد فى المعارف بالبرهان لا بالتقليد . ويتحقق منها أن لا وحى

بعد من أنزل عليه هذا الكتاب واتخاذ الأبناء لله قد بطل حكمه وظهر كذبه فلم يبق إلا التشمير عن ساعد الجد فى فهم العلوم بالعقل انتهاجا لخطة هذا الدين . ولقد كانت الأمم البائدة تتخذ الأحبار والرهبان أربابا فيعتقدون كل ما أوحوا اليهم من الخرافات وظلمات سحب الجهل فيغشون أعينهم بمفترياتهم وأباطيلهم . ولعلك تقول فلنأخذ عن نبينا . وهاهو ذا كتاب الله وهاهو ذا الحديث قلنا نعم ولكن ترى هذا الكتاب والحديث يرشداننا إلى النظر فى كل شىء . والتحقق من كل شىء فى آلاف من المواضع فالبحث فى العالم من مقتضيات هذا الدين والتاركون آثمون . أما قرأت (وكأين من آيةٍ فى السموات والأرض يمرُّونَ عليها وهم عنها معرضون)

« وأما الثانى » فان الأمة إذا شعرت بمساواة النوع البشرى فى الحقيقة . وأن الاله مترفع عن المادة وما تراه فى الأرض متساو فى الوجود والعدم مربوب مخلوق مقهور سار على قوانين اخترعها مبدعها فلا شك أن الأمة تشترك فى كل شىء ويقتسمون الحياة كل بقسطه عدلا وصدقا ويتشاورون . فيكونون خلفاء الأرض

جميعا ولهم الشورى وسن القوانين وغير ذلك على ماعليه الأمم المتدينة . على هذا نرى التوحيد يقصد به الصدق فى العلم تحقيقا وفى العمران صدقا ولعلك تستبعد ماذكرناه وتعده من المغالاة فى التفاسير والاحتيال فتذكر ماقلناه آنفا فى قوله تعالى (اتخذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبابًا منْ دُونِ اللهِ والمسيحَ بنُ مريمَ) الخ « وفسره النبي صلى الله عليه وسلم » إذ سئل عن ذلك فقال يسنون لهم السنن ويشرعون لهم الشرائع فسمى سن القوانين الوهية وبهذا اتضح ماذكرناه . ولو تذكرت كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العرب والعجم والروم وقوله (يا أهلَ الكتابِ تعَالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بَيْنَنَا وبَيْنكم ألا نَعْبُدَ إلاّ الله ولاَ نشركَ بهِ شيئًا ولاَ يَتخذَ بعضُنَا بعضاً أرْبابا مِنْ دُونِ الله)

فتأمل كيف جعل صلى الله عليه وسلم ترك ربوبية المخلوق من لوازم الدعوة إلا وهى التساوى فى الحقوق وأن لايسن قانون إلا بعرضه على الأمة حتى يكون اجماعا برضاها وهاك آيات تحث الناس على النظر فى أحوال الأمم والاعتبار بها . وبخ الله قوما

وندد عليهم فقال (١) (أَفلمْ يَسيرُوا فى الأرْضِ فتكونَ لهمْ قلوبٌ يعقلونَ بها أو آذانٌ يَسْمَعُونَ بها) ورب قائل يقول هاهم أمم الشرق لهم أعين ولهم قلوب ولهم آذان ومع ذلك فما عرفوا شيئا عن أحوال بلادهم فضلا عن غيرها فقال عقب الآية السابقة (فانها لاتعمى الأبصارُ ولكن تعْمَى القلوبُ التِى فى الصدور) وقال فى هلاك الأمم بظلمها (٢) (وكمْ أهْلكنا مِنْ قَرْيةٍ كانتْ ظالمة وأنشأنا بعدَها قوما آخرين) فالأمة الظالمة مستعدة للهلاك وحلول غيرها محلها وقد جرت عادتهم أن يحسوا بمستقبل أمرهم فيريدون التخلص من الدمار والافلات من العذاب فلا يقدرون (فلما أَحسُّوا بأسَنا إذاهُم منها يركضُونَ لاتَرْكُضُوا وارجعُوا إلى مَا أُتْرِفتُمْ فِيهِ ومَسَاكنِكُم لعلكم تُسْئَلُون قالوا ياويلنا إنَّا كُنَّا ظَالمينَ فما زالت تِلْكَ دَعْواهُم حتى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِين (فلا يزالون يعترفون بالظلم والكذب والجهل ويودون المهاجرة من البلاد والعدول عن الظُّلْمِ والأخلاق الفاسدة فترهقهم أخلاقهم ويغشيهم ظلمهم وهم فى أماكنهم (٣) (ظَهَرَ الفَسادُ فى البرِّ وَالبحرِ بما أيدى الناسِ وليُذِيقهم بعضَ الذى عملوا لَعلَّهم يَرْجِعون) وذلك

بِقَطْعِ المُوَاصَلات البَرِّية والبحرية وتخريب البلاد وقطع الأسلاك البرقية برا وبحراً أو عدمها .

ينشأ ذلك إما من الظلم أو الجهل بصنعها فتتحزب ويفنى صانعوها ويبقى الناس منفردين متقاطعين كما كانت الأمم فى زمن الجاهلية من العرب . الشرك فى العبادة داع حثيث الى ظلم المستبدين من حملة الدين أو من أقامهم أولئك الحاملون . وعليه حرمت عبادة أى مخلوق من إنسان وحيوان وحجر مصنوع ونبات وشجر وجبل وطير وحشرات فالاعتقاد بذلك يجر الى الاعتقاد بتنزيه الانسان ولو بطريق المشاكلة فيستبد بالناس ويهلكهم (٤) (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْض فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُشْرِكِين) خربت بلادهم لشركهم بالله الداعى للشرك فى السياسة (٥) (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ) وقد تقدمت فلا نطيل بشرحها (٦) (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْض وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُم فِيمَا آتَاكُمْ) خاطب الناس جميعاً بالخلافة فكل مسئول عن أمته لافرق بين رفيع ووضيع فتراه رفع الدرجات وقسم العقول وسأل

كلا بمقدار ماأوتى من العقل والصناعة والعمل فذلك قوله (ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) (٧) (وإذ يتحاجون فى النَّار فيقولُ الضُّعفاءِ للَّذِينَ اسْتَكبرُوا إنَّا كُنَّا لَكُم تبعاً فَهَلْ أَنْتُم مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّار قَالَ الَّذِين اسْتَكْبَرُوا إنا كل فيها إنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ وَقَالَ الَّذين فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جهنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّف عَنَّا يَوْماً مِنَ العذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكم بالْبَيِّنَاتِ قَالوا بَلَى قَالوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكافِرِينَ إلاَّ فِى ضَلَال) فترى هذه المحاجة هى الحاصلة الآن فى الدنيا مشاكلة لما يحصل بعد مفارقة الأرواح أبدانها . يقول الضعفاء لرؤسائهم أنتم المسئولون ونحن الاتباع فهل لكم أن تدفعوا عنا الدمار والخراب فيقول العظماء عظم الكرب وحكم الرب وجاء الويل وطم وعم فيسأل الناس جميعاً بقلوبهم وألسنتهم . كما نشاهد فى الأمم المظلومة ويقولون من لنا بالخلاص فلا يجاب لهم . كما قال هلاكو اذ دهم بغداد .

وقال للمعتصم وهو على شفا الموت هاهو ذا اهمالك فى أمور رعيتك أوقعك فى العذاب وانظر هذا الجوهر والزمرذ والياقوت

والمرجان الذى تراه أمامك نهبته من خزائنك وأنت بين يدى ، وإذا كان هذا فعل الله فى الدنيا فسيكون الحكم هكذا فى الآخرة (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)

فمن هنا ترى أن الرؤساء والمرءوسين مسئولون عن أممهم ، وهذا معنى مسألة الانتخاب والشورى ومجلس النواب وهكذا وفى آية أخرى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) (قَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فكأنه يقول ماجعلت الأغلال فى أعناقهم فى الآخره الا وقد وضعتها فى أعناقهم فى الدنيا فغلت أيديهم وعقولهم بالجهل وذلوا لاستبداد الرؤساء وبلدوهم واتكلوا على ما لديهم من السطوة وظنوها مناط العلم

فجازاهم الله فى الآخرة وجعلهم جهلاء معذبين محقرين لجهلهم فى الدنيا وتبرأ الرؤساء من المرءوسين كما يحصل فى الدنيا عند استبداد الحاكمين على المحكومين ووقوع العذاب عليهم فتراهم يتبرءون ويقول الضعفاء جهلنا بمكركم علينا وتدبيركم الحيل فى الليل والنهار لتبقى لكم الرئاسة وحدكم وتدعونا فى جهلنا نرسف فى قيود الذل والجهل وترسلوا علينا غاشية من سحاب الجهل المزجاة بعواصف المكر المدبرة بأيدى استبدادكم وظلمكم (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات أفلا يَسْمَعُونَ)

أمرنا أن ننظر آثار الأمم ونحفر الآثار ونقرأ الأحجار ولم يكفه ذلك حتى قال أن فى ذلك آيات أى علوماً وآداباً وأخلاقاً ثم قال أفلا يسمعون ما خطه الأولون وزبره الأقدمون فى مطمورات الارض (١١) (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) وعد ببقاء الأمم النافعة الصالحة فى الأرض كما وعد باهلاك الأمم التى لا تنفع لعمارتها

(١٢) (قلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعالَوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيْننَاوَبيْنكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ولاَ نشْرِكَ بهِ شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ الله) ولقد قدمنا فى هذه الآية أنه صلى الله عليه وسلم أرسل كتابه الى الملوك بهذا الوضع كما فى البخارى وفسر الربوبية بسن السنن وتشريع الشرائع . فخاطب النبىصلى الله عليه وسلم الملوك بالصيغة النيابية ونبذ الاستبدادية . ولذلك نرى العلماء يعتبرون عندنا الاجماع من الأدلة الشرعية فكأن القرآن إذ ظهر فى الشرق ظهرت ثمرته فى الغرب . فكأن الشرق الى الآن لم يستيقظ من غفلته فسبحان مقسم العقول والحظوظ . أكثر قصص القرآن وردت للعمران . وسيرد عليك عند التفصيل قصة فرعون وموسى وما كانمن اذلال بنىاسرائيل واستكبارفرعون وقومه وتكوين دولة جديدة من الأمة الصغيرة فى الشرق بفلسطينوهم بنو اسرائيل(١٣) (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ونُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) يشير الى أن الضعيف متى صبر أضحى ذا شوكة الخ .

وترى يوسف وقصة عاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وقوم نوح وقصة آدم وخلافته فى الأرض . وكل منها له قسط من العمران فعاد أهلكوا بطغيانهم . وثمود بافترائهم . وقوم شعيب بتطفيف الكيل وقوم لوط باللواط فقل النسل وقوم نوح هلكوا لأنهم لايصلحون لعمارة الارض . وقصة آدم تشير إلى أنه وبنيه خلفاء الله فى أرضه متساوون فى الحقوق ولنقتصر على هذا القدر من الكتاب وهاك ماورد فى السنة من جمل تريك علامات دنو أجل الأمة وسقوط الدولة

فأخبر صلى الله عليه وسلم أن أسافل الناس إذا علوا على الحكومة سقطت الأمة وتقلص ظلها وعبر عنه بتطاول رعاة الابل فى البنيان وقال أيضاً ان الرجال إذا أكثروا من الاسراف واقتناء الجوارى كان علامة على دنو زوال الأمة من الوجود وعرفه بأن تلد الأمة ربتها أى سيدها وفى هذا القول معنيان مصطحبان كثرة النساء والاسراف فيهن واختلاط الاجناس فاذا اتخذ الرجال الاماء وهن من أمة أخرى جرى الدميان واختلط الجنسان وضاع كيان الأمة وسقطت من شامخ مجدها ورفيع قدرها وزالت وحدتها كما

ذكره اسبنسر الفيلسوف الانجليزى للفيلسوف للياباني إذ سأله عن اليابانيين أيتزوجون من الاوروبيين قال كلالئلا يختلط الجنسان ولايحفظ الكيان ولا يلتئم الزوجان وعلله بعلة صحية ونحن نعلل بالصحة والاجتماع معاً . والحديث فى البخارى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بارزاً للناس فأتاه رجل فقال ما الايمان . فقال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وبكتبه ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان قال ما الاحسان ؟ قال : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك . قال ما الساعة ؟قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطهاإذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمها إلا الله ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام الآية ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئاً . فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم وعبر عن المعنى السابق بما هو أوضح فى حديث آخر قال إذا أضيعت الأمانة فانتظر الساعة

وفى حديث أن من إشراط الساعة أن يقل العلم ويكثر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد وفى حديث أن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهلاء فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا اه وإشراط الساعة هنا المراد بها الصغرى وهى الدلالة على خراب أمة من الأمم أو قبيلة أو قرية . ولا ريب أن الزنا يقل النسل . وظهور الجهل من أشد العوامل فى التخريب وارتفاع الاسافل بارتقاء المناصب بلا استحقاق يورث ضياع الأمة . وقلة الرجال بالحروب وكثرة النساء داعيان لتغير الأمة وزوالها كما حصل فى زماننا فقد قتل التمايشى الرجال حتى لم يبق إلا العجائز والنساء فى كثير من القبائل ولم تكن تجد لنحو خمسين امرأة الاشيخاً أو صبياً واحداً وهكذا اختلاط العشائر فهذا كله من امارات زوال الأمة من الوجود كما عليه علماء العمران فى زماننا

﴿الجوهرة السابعة والعشرون﴾

(فصل)

وهناك عشرة خصال عمرانية تهذيبية تشترك فيها الأفراد والأمم وها كها

«الأول» بعث الشعور في النفوس واعدادها للمعالي لتحس بنداء يخالط الوجدان من السماء يقول الله تعالى (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

«الثاني» الاحساس بدوام الأمة (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) فشعور المرء بعلو مكانته إذ هو من أمة هي خير الأمم وإحساسه بما لأمته من الدوام على مدى الأزمان داعيان حثيثان إلى الأمل بالعمل وسمو النفس وشرفها والمسارعة الى اعدادها لمنصب سما قدره وعلا

«الثالث» الثبات (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) أي من الأمور التي يعزم عليها وكفاك قصة نوح

وثباته وتاريخ ذى النون وعجلته وما كان من مدح الأول الخ فهى جديرة بالاهتمام وكم فى الكتاب من آية تمدح الصبر حتى قال (إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) ولا ريب انه الثبات على المبدأ

« الرابع » التوكل وهو اشعار النفس بقوة تخالط الوجدان وتشارك الروح وتمد العقل مع اندفاع الأعضاء فى تيار العمل وأشغالها فى أعمالها التى غلب نفعها كالزراعة والتجارة والصناعة والامارة ونبذ ماقل نفعه ولم يعهد سبيلا للكسب والصحة كأولئك الذين يرقون الناس بالرقى للتطبب أو يكوونهم أو يتفاءلون تطيراً أو يزعمون أوهاماً فأولئك يحاسبون يوم القيامة كما ورد سبعون ألفاً من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب هم الذين لا يكتوون ولا يَتَطَيَّرُون ولا يَسْتَرْقُونَ وعلى ربهم يتوكلون . ولقد جاء فى خبر انه أعطى مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً ومع كل واحد من كل هؤلاء سبعين ألفاً

فانظر كيف خص الحساب بأولئك الأقوام الذين وقفوا أنفسهم فى سبيل الأعمال التى لم يغلب نفعها ورفع الحساب عمن حاسبوا أنفسهم بالسير على النواميس التى وضعها والقوانين التى سنها

« الخامس » اللين والشدة هذا الخلق ظاهر من أخلاق النبوة ومن الكتاب إذ مدح النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله فيه هو وأصحابه (أَشِدَّاءُ على الكفارِ رُحَماءُ بَينَهُم) فإذن الشجاعة ركن من أركان هذا الدين وناهيك السباق والرمى وانهما سنن اسلامية بل انها فروض واجبة كفائية باجماع علماء الاسلام بقوله تعالى (وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة) مع مزج هذا باللين فى محله وفى التنزيل (إنَّ رَبكَ لشديدُ العقاب وإنهُ لغفور رحيم) وما من آية فيها شدة إلا ومزجت باللين ولا ذكر العقاب إلا مقرونا بالثواب مشاكاة لفطرة العالم ونواميس الكون وقانون الحياة كما جاء (وانَّكَ لَعلى خلق عظيم) السادس مراعاة الزمن فى الاحوال الدنيوية مع الأعداء فلانبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أطوار طور ابتداء الدعوة ما كان ليظهر أمره. وإنما هى الحكمة فى الدعوة والتبليغ المسترسل حتى أن أصحابه هاجروا إلى الحبشة وغيرها. ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينة ولما كان أمر الحديبية كان أمر الصلح بينه وبين أهل مكة عن رضا أن يرد كل من جاء إليه مسلما مسلما منهم لهم وأن يردوا من ارتد عن الاسلام إن آووه فرضى

بذلك امتثالا للقضاء ومجاراة للوقت حتى إذا أمكنه الله بعد سنتين اثنتين ظهر عليهم وانتشر الدين انتشارا باهرا

« السابع » السلم فى العقائد لم يذم القرآن نبيا بل ورد فى الدين من كذب نبيا كفر فأصبح لدينا موسى وعيسى وابراهيم وادريس وغيرهم مصدقا بنبواتهم ومتى سمعنا بنبوة أنبياء لم نعرفهم جوزنا نبوتهم يقول تعالى (ولقدْ أَرسلنا رُسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) فذلك جمع للكلمة باعظام أكابر الأمم الذين أشربت العامة والخاصة حبهم فما كان للاسلام أن يكذب « برهمة » أو بوذا بل يجوز نبوتهم ولا ريب أن ذلك أدعى لائتلاف الأمم وجمع كلمتهم ولا أدرى دينا فى الأرض يحترم عظماء الأمم كهذا الدين . يؤمن المسلم بعلماء العالم ولا يؤمن من قبله بدينه فهم مشاكسون وهو مسالم محب ويعرض علوم الأوائل على العقل فما وافق اتخذه وماخالف نبذه (فَبَشِّر عِبادِيَ الذينَ يستَمعُونَ القوْلَ فيتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئكَ الذينَ هَدَاهُمُ اللهُ وأُولئكَ هُم أُولوا الألباب) وتراه عمد إلى النظر فيها فأزال ما يضر بالعقائد وسمعة الأنبياء

فنفى الصلب ونزه ذلك المقدس عن الاهانة وأمه من الخنا ونبيه من الألوهية بل جعله عبداً صالحاً نبيا كسائر الأنبياء وعمد إلى مافى التوراة من أقاصيص محرفة فصيغت صوغا ينفى عنها وضر الشرك ودنس الضلال كوصف بعض الأنبياء بالمحرمات . ووسم الرب فى تاريخ آدم بسيمة ملك متجسس على قومه يحسد من يعلم علما كعلمه بل يهاب من يخلد مثله مما يوصف به الملوك الذين قصرت أنظارهم على الشهوات البهيمية وكم اتصف هذا الكتاب بأنه مصدق لما بين يديه وهدى وموعظة للمتقين

« الثامن » مجاراة الأمم التى سيطر عليها أهل هذا الدين فى معاملاتهم واحترام شعائرهم كمعابد النصارى واليهود واحترام أحبارهم ورهبانهم واقرار عقودهم فى منا كحتهم . وأحوالهم المعيشية واستأنس بما فى قصة يوسف (قالوا) أى رجال فرعون لبنى يعقوب إذ كانوا بمصر (فما جزاؤه) أى السارق (إن كنتم كاذبين قالوا جَزاؤه مَنْ وجدَ فى رَحلهِ فهوَ جَزاؤه كذَلكَ نجزِى الظالمين) فعاقب بنى إسرائيل بقانونهم فى بلادهم

« التاسع » التدريج فى معاملات الأمم فلا يقهرون بالسطوة

ولا يكلفون الطفرة . اعتبر ذلك فى بيان ضرر الخمر أولا وما أيقظهم به من قوله (يسألونَكَ عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) إذ أبان الضرر والنفع وكشف وجه الحرمة باظهار وجهته إذ القضية التي جزمت بها العقول إن ما غلب ضرره حرم تعاطيه ثم كيف حرمها فى الصلاه بقوله (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ثم بت الحكم فيها وفى الميسر فى قوله (يا أيُّها الذينَ آمنوا إنما الخمرُ وَالمَيسرُ والأنْصَابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تُفْلِحُونَ) فهذا التدريج فى الدين عند نزوله داع حثيث إلى التلطف مع الرعايا . وأخذهم بسنة التدريج والنمو فى المعتقدات شيئاً فشيئاً حتى يتم الأمر ولا يهولنك ما ترى من دول سقطت برجالها فانما ذلك بما شغلوا به من أباطيل ولم يكونوا مسلمين إلا بالاسم أو الرسم أو بعض العبادات أو الأقوال . أما جوهر الدين فهو منبوذ نبذاً

« العاشر » مراعاة الأمم فى جواهر الأحكام . وناهيك ما ترى فى دية القتيل إذ جاء لى عادة العرب أن يؤخذ من الابل مائة على العاقلة فى قتل الخطأ وشبه العمد . وعلى القاتل فى العمد

عند العفو . هذه جاءت مطابقة لما عليه العرب فى جاهليتها مع اعتدال فى النهج وهذا باب واسع تدخل منه الأمة المتمدنة إلى سن القوانين بما يستقر عليه العرف والعادة وما يسمح به الزمن وما تقتضيه الأيام والزمان والمكان وهذا هو القصد الاسمى من كون هذا الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا . وجد الرجل يتزوج بلا حصر فرجعه إلى أربع مالم يخف من الجور ومتى خيف جور منع التعدد . وللحكومات أن تأخذ على يد الأفراد بحسب ماترى من استعدادها(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) الآية .

كان الرق سنة جاهلية فخففه ثم أدخل العتق فى أحكام الدين وكم من أمر دينى كان العتق أعظم أبوابه (وَما أدراكَ ما العقبة فكُّ رقبة) فلله ما أرحم هذا النبى فهو رحمة للبشر فمن هذا المنهج الوسط يجد رجال الأمم ميدانا واسعا فى معاملات الشعوب فى الشؤون المختلفة الدينية والدنيوية . وللعقول والعقلاء مجال . هنا وقف جواد القلم فى ميدان البيان اذ المقام أجمال لا تفصيل وفى هذا الأجمال مقنع فى العمران

﴿ الركن الخامس العبادات ﴾

ذكرنا هذا الركن بعد سابقه لما بينهما من الاخوة والرابطة والصلة والرحم والصداقة فالعبادات البدنية المسماة أركان الاسلام خمس فى حديث (بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا) فلهذه العبادات وجهان أولهما يعانق العمرانيات وثانيهما يترامى إلى أطراف المادة وبطوح بالنفوس إلى عالم القدس فأولهما اجتماع ونظام وحياة ورقى ونظام فى مادة . وثانيهما عروج الروح وصفاء النفس وبهجة القلب وخلوص إلى الرب ولقاء الله وأنس بأوليائه وفرح بأحبابه . فالأول شجر والثانى ثمر والأول جسم . والثانى روح . والأول لفظه . والثانى معناه . والأول صورة . والآخر حسنها وجمالها وبهاؤها ولئن سألت عنها نقول

الأول الكلام على شهادة أن لا إله إلا الله . أما توحيد الله فيها فقد قدمنا ذكره وأوضحناه بأنه اخلاص القلب اليه وتوجه الفؤاد نحوه . والوجه الثانى فيها تساوى الناس فى الحقوق ونبذ

الاختصاص وابعاد السدنة والكهنة وغيرهم وإذ أوضحنا هذا فلنمسك القلم عن الايغال فيه اكتفاء بما حررناه سابقا

﴿ اقامة الصلاة والحج ﴾

وجهه الاجتماعي ترى النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الناس بالصلاة خاصة وعامة في خمس أوقات من النهار بعد طلوع الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء في أعمال مخصوصة وأقوال معقولة ودعوات ترجع إلى أشعار القلب بعظمة الرب وتذكر الصالحين المصلحين والتسليم عليهم استحضاراً لهم واقترابا بالقلب منهم ، وليكونوا جماعات لهم إمام يصلى بهم . هكذا كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بحيث تكون الجماعات أمرها في كل وقت من الأوقات الخمس شائعاً في البلد منتشراً وفضل في الحديث الجماعة على الفرد بسبع وعشرين درجة .

وفي معنى الحديث لقد هممت أن أحرق بيوت قوم لتركهم الجماعة ولم يكادوا يتركون تلك الجماعة أثناء الحرب . وورد في تفصيلها أثناء القتال في الميدان نحو ستة عشر كيفية بحيث لا يتركون الصلاة ولا جماعتها في وقت من الأوقات . ولأهل الاسلام

عيدان فى كل سنة يجتمع فيهما أهل البلدة ومن حولها يتعارفون ويتزاورون وليكن المكان (مصلى العيد) خاصاً به يسع المدينة والقرى حولها بالغين ما بلغوا ولهم اجتماع يوم الجمعة يجتمع فيه أهل رجال البلدة يقوم فيهم أميرهم خطيباً أو ملكهم أو ذوالرأى فيعظهم ويذكرهم بما جنوا ويعظهم بكتاب الله ولقد مسخ ذلك كله فى هذا العهد وبقيت له صور شوهاء فهذه ثلاث اجتماعات اليومية الخمسة . والأسبوعية الواحدة . والسنوية المرتان هذا . عدا مجامع السبق والرمى والولائم والأفراح . وما يماثلها من كل ما ورد به الشرع • فاليومى لأهل المحله . والأسبوعى . لأهل القرية • والسنوى للبلد والقرى المجاورة لها . وهناك اجتماع للمسلمين كافة فى مشارق الأرض ومغاربها وهو الحج فى بلد بين الشرق والغرب ملتقى الجهتين منعزل عن معترك السياسة يحجون إليه كل عام أى من قدر منهم فى العمر ولو مرة واحدة يتذاكر فيه أهل الاسلام ما عليه دولهم واختراعها وأحوالها وحكامها ونظامها فيرجعون مفيدين مستفيدين فهذه هى المراتب الأربع العمرانية .
فأى أمة أتقنتها وحافظت على كيانها قويت دعامتها واتحدت

وجهتها وصارت كدول العرب فى أول نشأتها . وهذا الذى قدمناه عمل اجتماعى من هذا الوجه ينظم المدن ويديم الأمن ويؤمن السبل وينظم الممالك كما أوضحه الغزالى فى الاحياء

﴿ الجوهرة الثامنة والعشرون ﴾

(الوجه الثانى فى الصلاة والحج)

وهذه الأعمال فى الصلاة والحج تعرج بالعبد إلى درجات القرب . فالمرء باقباله على الله ومناجاته والاقبال عليه ووصفه بأنه رحمن رحيم . وأنه مرب العالم كله من إنسان ونبات وحيوان تربية مشوبة بالرحمة يشعر فؤاده ما أبدع فى العالم من الرحمة واللطف وكيف أعطى كل شىء خلقه برحمته من التدريج فى التربية ويتصور أنه أمامه يناجيه فيقول إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . ويدعوه فيقول أدعوك لتهدينى صراط قوم عرفوا لا صراط من جهلوا السبل فضلوا يتخبطون أو سبيل من غضبت عليهم لعنادهم وعصيانهم فاذا تكرر الاستحضار أشرق على القلب نور . لاسيما إذا صلى ليلا والناس نيام . وهذه الصلاة إذا خلت من هذا التوجه لم تغن شيئاً فى أجر القرب من الله وإنما ترجع إلى اجتماع محض

وحياة دنيوية . ومتى أخذ المصلى فى فهم معنى مايقول من المناجاة دعته مناجاته إلى التوغل فى العلوم والمبادرة إلى اقتنائها من أى سبيل كما هى سبيلى التى اختطتها لنفسى من أول نشأتى . وهكذا الحج فاذا حج المرء وهو غافل نال درجة الاسلام فحسب . وهو الانقياد الظاهرى وهو لا يفيد غير النظام الاجتماعى وحفظ كيان الملة باعتبارها إسلامية وليس له فى الآخرة ولا فى العقل أدنى نصيب . فاذا عرف مقصد الحج وأنه قد خرج من أصحابه واخوانه وأهله وولده وماله طائعاً لله قاصداً مكاناً جعله الله شعائره وهاجر له فاذا وقف بعرفات والشمس فوق الرؤس ذكر فى نفسه والجمع حوله أن الله يجمع الناسَ للحسابِ كما جمعهم للحج . وأنه سيخرج من الدنيا كما خرج من أكثر ما أحبه وأنه سيجرد منها كما جرد من المخيط من الثياب وهكذا فيرجع الحاج بعد التحقق من تلك المعانى كيوم ولدته أمه . ولا معنى لهذا الا أن نفسه انقطعت إلى الله ومالت إليه بما تذكرته بعد تهذيبها بمشاق السفر والنصب فأقلعت عن الذنوب حتى لاترجع . وماعدا هذا فهو حج ذو وجه واحد لا وجهين .

﴿ الجوهرة التاسعة والعشرون ﴾

(فى الزكاة)

وأعجب شيء فى هذه الشريعة الزكاة فترى الحكومات الشرقية والغربية تفرض على الناس مغارم فيدفعونها ومنهم قوم يعطونها وهم لها كارهون . ففرضت الزكاة فى الزرع والذهب والكنوز والفضة والتجارة بتفصيل ليس هـذا محله حتى أن من لديه شيء من هذا يجتهد فى تقديمه للعامل الذى ينصبه الحاكم تقرباً إلى الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم « صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » فجعلها صدقة وسماها زكاة أى طهارة فلها وجه عمرانى . وهو أن كل غنى يلزم بدفع جزء من تجارته كل سنة وهو ربع العشر يعطى للفقراء والمساكين والعاملين والقوم الذين نريد تأليفهم لنا ومن عليهم ديون وعلى الجيوش فى الحرب وعلى المسافرين ولا نطيل به . فقد ذكره العلماء فى الفروع فأدخلوا فرع العمران من الهندسة والطب وغيرها من المنافع العامة فى ذلك هذا وجه عمرانى . فبذلك تضمحل الأحزاب المتربصة للشر بالأغنياء إذ وجه حقدهم منبوذ . أما وجهة الشخص وقربه من الله

فاعلم أن النفس مجبولة على البخل فجاء هذا الدين داعياً حثيثاً إلى إخراج هذا الجزء من المال صدقة ظاهره الاحسان للفقراء ونظام المدنية وباطنه تطهير النفوس من رذيلة البخل . وفتح باب صفة الكرم التي أولها الزكاة . ووسطها الصدقات ونهايتها تعميم الخيرات فى الأعمال النافعة . وبناء المدارس والربط ومساعدة الجمعيات والحكومات فى أعمالها النافعة مع إكرام الضيف ومواساة الأغنياء والأصدقاء . وقطع ألسنة الذامين من السفلة كل هذا تقويم حتى لاتتقيد النفس بحب المال الموجب للتعلق بالمادة فى الحياة الدنيا فتخلص الروح لمبدعها وقد فرغت مما ألم بها من الغواشى الطبيعية

﴿ الجوهرة الثلاثون ﴾

(الصيام)

يلى الصيام الزكاة وهو صيام شهر تعود النفس على الاحساس بما يقاسيه الفقير من الآلام فى فقره حتى يواسيه وهذا وجهه الاجتماعى مع التعود على العفة ثم عروج الروح بخلو الجوف إلى عالمها بما نالت من الرياصة بترك الطعام والشراب مده النهار حتى

تتجلى فى عالمها وتبتهج بصفائها وترفل فى حلل كمالها وهذا وجهه الروحانى الدينى اهـ وإلى هنا وقف بنا جواد القلم فى قسم العبادات ونحن الآن شارعون فى قسم المعاملات والحدود والأحكام

﴿الجوهرة الاحدى والثلاثون﴾

(القسم السادس المعاملات والاحكام والحدود والتعاذير)

هذا القسم فى الاسلام خاص بنظام المدن ثم يقول العلماء رحمهم الله ان الأنسان يجرى فى سبيل أوله الولادة جادته الحياة مراحله السنون. نهايته الموت. غايته لقاء الله تعالى دابته البدن وبقاء شخصه بالغذاء وبقاء نسله بالزواج فرجع أمر الحياة جميعها الى ركنين المال والتزاوج. فهذا القسم الأخير فى الدين الاسلامى أقل الأقسام ورودا فى الآيات القرآنية وأكثرها عناية لدى العلماء وتراه هو والعبادات قد صنفهما العلماء فى علم الفقه فكم زاولوا من أحكام وقوانين ليسوسوا الناس ويضبطوا المدن ويقيموا العدل والقسط فى الأمم التى يحكمونها ويديرون شؤونها ولعمرى أن نظام القضايا أمر دنيوى يرجع إلى الدين بغايته. فالمرء فى الحياة لا بد من بقاء شخصه بالغذاء ونسله بالتزاوج.

وبعد ذلك يهذب نفسه ويغذى روحه بأنوار العلوم والعرفان. ويروض روحه على العروج إلى مبدع العالم بأنواع العبادات مع الملاحظة والفكر والفهم والتأمل. وترى علماءنا إذا اضطرت لذلك وجهوا الهمم إليه فى غالب العصور لما رأوا من احتياج العالم اليه فى نظام المدن وغلب على ظن كثير ان اتقانه وحده موجب لسعادة الآخرة كلا ثم كلا ثم كلا ألا إنما ذلك سعادة الدنيا بل شرط من شروط سعادتها. أما الآخرة فمرجعها الفكر فيه والبصائر الوقادة والعقول النافعة عقول تهذبت واستنارت وفكرت فى العالم ونظامه وعرجت إلى الخالق بصفاتها. وعليه فأرقى الأقسام الست وأعلاها وأجلها وأبهاها وأغلاها وأولها وآخرها قسم العلوم الكونية الذى صدرنا به مباحثنا فى كتابنا ألا ترى أن الكتاب الكريم كرره مراراً وتابعه تكراراً ولعمرك لن ينتظم أمر الغذاء والسعادة فى الحياة الا بأقسامه وعلومه. ولن يتحلى الفكر بأنوار المعارف إلا بجماله وصيائه ويليه اهتماماً ما ينبذ البدعة فقسم السياسات فالآداب فالعبادات وأما قسم المعاملات فأنما يراد كدواء وشفاء للسقام إذ العلوم العقلية

من الأمم منزلة منزلة الغذاء والأحكام الشرعية منزلة منزلة الدواء وهل ترى أحكام الميراث والهبة والبيع وغيرها إلا للمنازعة والخصومة فى الأموال . فصل العلماء أحكام البيوع والربا والقرض والهبة والاجارة والعارية وأحكام اللقطة والميراث والوصايا وأحكامها والوقف والعقود والدعاوى وفصل الخصومات وأحكام القضاة وتوليتهم وشروطها والعقوبات والسرقة والغصب وهذا للمال . وأما للنسب فحد الزنا واللواط . وأحكام الزواج والطلاق والخلع والظهار والملاعنة ، وقد تجمع الأقسام النظامية فى خمس كلمات حفظ الدين بقتل المرتد ، والعقل بحد الخمر ، والنسب بحد الزنا والمال بحد السرقة . والنفس والأعضاء بالقصاص . وهذه الحدود أخص ما جاء به الاسلام من العقاب فى الدنيا وهناك عقوبات أخرى لقطاع الطريق بالنفى . أو قطع الأيدى والأرجل ، وحد القاذف ثمانون جلدة .

﴿ الجوهرة الثانية والثلاثون ﴾

(الشرع ميزان)

إعلم أن عقوبات هذا الدين على قسمين أحدهما الحدود كقتل المرتد لحفظ كيان الأمة من تفريق الجامعة بشروط مخصوصة كثيرة ورجم الزانى المحصن وجلد البكر ونفيه من البلاد سنة . وحد شارب الخمر أربعون جلدة بالضرب بالسياط وقتل القاتل وقطع عضو بقطع عضو آخر نظير ما صنع . وقطع يد السارق وهكذا « الثانى » التعاذير كالحبس والتغريب والضرب والتوبيخ والاعراض فى كل ما كان حراماً ولم يرد فيه حد وهو تابع لاجتهاد القاضى ورأيه وفراسته متنوعا تنوع أصناف الناس فى درجاتهم وأخلاقهم وعوائدهم من الاشراف أو الأوساط أو السوقة . هذا ما قرأناه فى بعض المذاهب كالشافعى . وترى أبا حنيفة يرجع إلى رأى القاضى أكثر ويمنحه أوسع . حتى انك لتراه يبيح القتل فى التعذير . فلو شهر انسان سيفا على الناس جاز قتله . ولو اتضح للحاكم وثبت أن رجلا يؤذى الناس جاز قتله سياسة

﴿ الجوهرة الثالثة والثلاثون ﴾

(مقصود الشرع ودرجات الامم فى العلم)

وردفى السنةقوله صلى الله عليه وسلم «أدرءوا الحدود بالشبهات» وقوله تعالى (والسَّماء رَفَعَهَا وَوَضعَ الميزَان ألاَ تَطْغَوا فى الميزَان وأقيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ وَلاَ تُخسِرُوا الِميزَان) ترى الحدود والتعاذير وردت عن الشارع فى الأول تحديداً وفى الثانى اجتهاداً من القاضى وترى الحدود حددت غاية العقوبات والتعاذير أدنى فأدنى وقد أرشد الله عباده إلى التيقظ والسهر والتشمير والجد بالاحصائيات ومراعاة درجات الأمم ووزنها بميزان العقل وتقديرها وأن يكيلوا للأمم كيلا ويزنوا لهم وزنا فى الحقوق والقوانين حسبما يناسب حالهم ناظرين إلى سنن الشرع حائمين حوله مع أخذ رأى نواب الأمة فى ذلك ألا ترى قوله صلى الله عليه وسلم « لا تجتمع أمتى على ضلالة » وهـذا أصل من أصول الحياة الاجتماعية وأنت لو تأملت كتب الأمم المتعاقبة أجيالها المتتابعة أصنافها أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل فى أماكن مختلفة من ترك وفرس وهند وصين

وأسيويين ومصريين وغيرهم لرأيتهم سلكوا مناهج تناسب استعدادهم وتوافق مشاربهم (قدْ علمَ كلُّ أناس مشربهمْ) ولن تفهم الأمة الجاهلة ما تفهمه العالمة وناهيك أهل البرابرة بالمغرب اعتنقوا مذهب الامام مالك رضى الله عنه . وهو أقرب إلى الفطرة وأبعد عن التأويل لم تتناوله الحضارة ولم تصهره مراجل المدنيّة كما صهرت منهج أبي حنيفة بالعراق إذ ثم ملوك العباسيين ومن خلفهم من أمم الترك السلجوقيين وبنى عثمان وغيرهم فأولئك دون علماؤهم ما احتملته عقولهم من الفروع والأحكام وهكذا ترى أن الأمم الحية إذا اعتنقت هذا الدين كانت أبعد نظراً وأسمى فكراً وأسرع خاطراً من أمة رسخت فى البداوة ولم تصهرها نار المدينة .

﴿ الجوهرة الرابعة والثلاثون ﴾

(العقل والشرع)

لا غنى للعقل عن الشرع ولا للشرع عن العقل . ومما تقدم علمت ان القوانين العامة فى الاسلام نورها الدين سياجها العقل صاحبها الفهم غايتها العدل يقول صلى الله عليه وسلم : « ادرءوا

الحدود بالشبهات » وهذه قاعدة عجيبة مختصرة فتحت لواضع القانون بابا من العلم .

ألا ترى انه جاءرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال زنيت يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم لعلك لمست فقال الرجل زنيت يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : لعلك قبلت فقال : زنيت يارسول الله وهكذا ، وكان صلى الله عليه وسلم فى كل مرة يستدير يمينا ويسارا وأماما وخلفا أمام الرجل فلما أصر إلا أن يقر أمر به فرجم وأخبر أنه دخل الجنة .

وترى الفقهاء فى الفروع ينصون على أن شبهة وان قلت تدفع الحدود ويرجع للتعاذير بل مجرد الانكار فى السرقة والزنا يدرؤهما واثبات الزنا أمر يستحيل إلا بالاقرار والسرقة تثبت ولكن القطع فيها عسر لأنه يحتاج لنفى الشبهة ولو قال ان لى فيما سرقت جزءا وأن عليه حقا أو نحو ذلك سقط القطع وبقى التعذير .

هذه القاعدة أشبهت فى شكلها قاعدة الشفقة عند القاضى الأهلى فيستبدل الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة بالقتل وهذا الحديث يدرأ الحد ويثبت التعذير وللأمة ان تقرر فى مجالسها

الشورية ما يناسب استعداد الأمة انحطاطاً وارتفاعاً وهاهو أمامها أقصى عقوبة فلتجعلها نهاية القسوة عند الحاجة ولها أن تزن عقوباتها بأحوالها .

ولتكن هذه شبهة كما جاء فى التنزيل (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) ، (أن لا تطغوا فى الميزان) وأرسل صلى الله عليه وسلم معاذا الى اليمن فقال يامعاذ كيف تقضى فقال أنظر فى كتاب الله تعالى . قال فان لم تجد قال فبسنة رسوله قال فان لم تجد ما أردت فى سنة رسوله . قال الفهم يارسول الله وهذا معنى ماورد فجعل للفهم مقاماً ولعلك تقول انما يفهم من مضى وقد سد الباب ولم يبق من ذوى العلم من يتسنى له الفهم ومجتهدو الأعصر الأولى يغنون عمن بعدهم قلت ذلك لم يرد فى النقل ولا يسلمه العقل بل ورد أن بعض من يبلغه خير ممن سمع فعن أبى بكرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى رواية البخارى قال (فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض الا ليبلغ

الشاهد منكم الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه ألا هل بلغت ألا هل بلغت) اه . وهذه الحجة آخر سنة من سني حياته صلى الله عليه وفي هذا دليل على أن الأمم المتأخرة لها أن تنظر وان نظرها ربما كان أدق . والقاعدة التي قررناها ضابطة شاملة . وهي أن الدين قواعد كلية تتنزل من الأمم على قدر عقولهم ومنزلتهم من الفهم فلن يغني متقدم عن متأخر ولا متأخر عن متقدم . ولذلك نرى كثيراً من نصوصه كالآيات والأحاديث متعارضة متشاكسة . فمن نظر اليها بحسب ما يتجلى منها أول أمرها بانت مستصعبة قد تضله عن الدين وتزيغه وتوقعه في الشك والإثم . ولكن العقول الراجحة والقلوب الواعية والنفوس الراقية والأذهان الذكية تفصل المعاني تفصيلا وتورد لكل آية تأويلا وكم من رجل ضل وكفر إذعبس وبسر بعد أن نظر نظرة أفقية . وما مثل الدين إلا كمثل الماء ينزل من السماء ويحيي الأرض قطره ويجللها مزنه فتكون منها الصخرية واليابسة والرملية والسبخة والجيدة النبت وهي الخندج كما ورد في حديث البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي

صلى الله عليه وسلم قال (مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلا. فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به اه . وهذا بلا ريب ظاهر فى الأمم واختلافها فى الفهم والتعقل على قدر ما وهبها الله من القوى والعقول وجاء فى حديث (أمتى كالمطر لا يدرى أولها خير أم آخرها) وهذا إنما يكون بالتعقل والفهم وفى قصة سليمان وداود عليهما السلام غنى لطالب الحكمة فى هذا المعنى ذلك أنه ادعى صاحب حقل على رب غنم أنها أهلكت حرث حقله فقضى داود بتسليمه الغنم جماء ملكا . وقضى سليمان بأن يعطى الغنم ينتفع بدرها ونسلها ويحرث الأرض رب الغنم ويزرعها حتى يبلغ الزرع مبلغه اذ أفسدته الغنم . ثم يأخذ رب الغنم غنمه . فكان قضاء صادف محله ووافق المحزن ولم يعب على أحدهما بل كلاهما يسمى

ذا فهم وجاء فى هذا المعنى قوله تعالى (وَداودَ وسليمانَ إذْ يحكُمان فى الحَرْثِ إذ نفشَتْ فيه غَنَمُ القومِ وكُنَّا لحكمِهِمْ شاهِدِين فَفَهَّمْناها سليمانَ وكلاً آتيناحُكْماً وعِلْماً) فمدح سليمان بالفهم وأثنى على كليهما بالعلم والحكمة . ومقصودنا من هذا القول أجمعه أن الأمم التى تنظر فى هذا الدين ينبغي أن تلاحظ استعدادها وإدراكها وتفهم الكتاب والسنة وتراجع كلام الأئمة وتجتهد لنفسها هى وإن هذا لا يعد مساساً بحقوق الأوائل فلكل حال مقتضى وعمل يناسبها والقاعدة العامة واحدة . وورد أنه لما نزل قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكم عن دينهِ فسوفَ يأتى اللهُ بقومٍ يحبهمْ ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين) أشار صلى الله عليه وسلم إلى سلمان الفارسى وقال هم قوم هذا . وقد اعتاد دين الاسلام أن تحمله أمة بعد أمة . حملته العرب وأوصلته إلى الفرس وحملوه فلما ضعفت الدولتان ظهر التتار وحملوه فنشروه فى الهند والصين انتشاراً أوسع . وفى هذا المقدار مقنع لمقتنع . وإلى هنا وقف جواد القلم عن الجرى فى ميدان الحدود والأحكام فى هذا الأجمال . هذا أجمال قواعد الاسلام الست التى وعدنا بالاجمال

فيها واكتفينا بهذا القدر وسنشرع الآن بعون الله تعالى وتوفيقه في تفصيل الأقسام على ترتيب الاجمال . ولنوجه العناية إلى قسم العلوم والعمران والآداب إذ هي التي يعوزها الأطناب

﴿ تفصيل مقامات الاسلام ﴾

(القسم الأول العلوم)

قبل الكلام على هذا القسم نورد ثمانية مباحث (الأول) الدين والعقل (الثانى) الدين والطبع (الثالث) خوارق العادات (الرابع) من أخذ العلوم من الدين بدون فكر (الخامس) الغلو في الدين (السادس) وجوب العلوم العقلية على الأمة لا يكلف الله نفساً إلا وسعها (السابع) الصناعات (الثامن) الوجوب الكفائى وعناية الدين بالعلوم

﴿ الجوهرة الخامسة والثلاثون ﴾

(الأول الدين والعقل)

أورد الغزالى في كتاب أحياء العلوم ، جملا في الدين والعلم وإن العلوم العقلية تجرى من الأمم مجرى الغذاء . والعلوم النقلية

مجرى الدواء ، ومتى عكفت الأمة على الدواء ولم تفكر فى الغذاء اضمحلت أجسامها وهزلت أبدانها ومرضت أرواحها وانحرفت أمزجتها ودنت من الزوال وساء الحال فلا غنى للدين عن العقل وعليه فالعلوم الطبيعية جمعاء من طب وتشريح وطبعية وكيمياء وعلم النبات والحيوان والانسان وكذا علم الاجتماع ضرورية للعمران واجبة على الانسان وأى أمة أقامت الحدود والاحكام وجهلت مواردالرزق ساء مصيرها وكيف تقيم الحدود على معدوم والناس إذا لم يزاولوا هذه العلوم فلا حياة لهم وإذا لم تكن حياة فعلى من تقام الحدود وكما وجبت العقليات فى الأحوال العامة للناس فهكذا فلتكن للمرء فى نفسه . إننا تارة نجد نفوسنا تطمح فى الشدة والغلظة وتارة للين والرقة وربما تجاوزنا الحد فى أحد الطرفين وكانت تلك العظات والحكم الواردة فى كل منهما مرشداً قوياً وناصحاً أميناً ومداويا للعلة والسقم الروحى . وكما أن العضو إذا اشتدت عليه الحرارة وزاد سقمة عالجناه بالبارد . وإن مرض بالبرودة عالجناه بالحار فأصلحناه . ولن نعرف الحرارة من البرودة إلا بالعقل والتمييز ، وبعد ذلك نعالجه بضدما سقم به العضو فهكذا

نفعل بأخلاقنا ونداوى نفوسنا ، فاذا مالت إلى أحد الطرفين رجعناها إلى الاعتدال بنصائح الدين فاذا طغت نفوسنا بالأموال وشرهت وقست القلوب وحرصت على المطامع الشهوانية ومدت الأعين إلى زينة الحياة الدنيا قرأنا قوله تعالى (المالُ وَالبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا) وإن كرهنا المال وابتعدنا عن الأعمال ووقعنا فى الاهمال وتباطأنا عن المنافع روينا قوله صلى الله عليه وسلم « لا حسد إلا فى اثنتين رجل أتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس ورجل أتاه الله مالا فسلط على نفقته فى الخير » وإن بخلنا قرأنا قوله تعالى (وَمنْ يوقَ شحَّ نفسهِ فأولئكَ همْ المفلحون) وإن بذرنا قرأنا قوله تعالى (ولاَ تبذر تبذيراً إنَّ المبذّرينَ كانُوا إخْوَانَ الشياطين وكانَ الشيطانُ لرَبهِ كَفُوراً) فبهذا نفهم أن ما فى الدين أدوية لا أغذية والعقل هو الغذاء والدين هو الدواء وفرق بين العقاقير الطبية وبين الأغذية التى بها قوام الأبدان ولا ريب أن الأغذية تتعاضد على إقامة الصحة فى الجسد وأما الأدوية فتضاد أفعالها ورب دواء يصلح الجسد ويزيل المرض وآخر يبيد المريض فى يوم أو بعض يوم .

﴿الجوهرة السادسة والثلاثون﴾

(الثانى الدين والطبع)

طباع الناس ميالة إلى اللذائذ والشهوات منقادة بالطبع مقهورة لها مسخرة كأنها لهـا عابدة فتراها ميالة إلى اللذات البدنية من المآكل والمشارب والملابس والتزاوج والأبنية والمفاخر والزينة والذهب والفضة والخيل المسومة واقتناء الأنعام والحرث والنسل وهذا الميل ضرورى للحياة ولولاه لخلا وجه الكرة الأرضية من ساكنيه وبادوا ولـكن عادة الانسان أن يتغالى فى شهواته ويمعن فى لذاته فجاءت الشرائع لتضاد الطباع النهمة وتهاجم وحوش النفوس الكاسرة فتجذبهم إلى الطرف الآخر جهد الاستطاعة ، عشق الناس المـال وأفرطوا فى عشقه فجاء ذمه مراراً وذكر تكراراً وما القصد من ذلك الذم تركه وإلا ضاعت الحكمة وإنما القصد الحقيقى من الذم إنفاقه فى مواضعه واتلافه فيما خلق له ، ولم يكن المرام من ذلك الذم إلا تهوينه على النفس ليصرف فى المصالح العامة لا نبذه ظهريا ، فالطبع فى طرف والدين فى طرف ، فيعتدل الانسان فى الوسط ولا ريب أن الأخلاق أوساط وإذا وجدنا من ترك

السعي على المال مراعاة لذم الكتاب زجرناه وأمرناه بجمعه ومدحناه وزيناه له حتي يعتدل ، وعلى هذه القاعدة سنجرى فى كتابنا إذ رأينا الأمة الآن لا تعير العلوم جانب الالتفات لظنها براءة الدين منها فلهذا ندحض حجة المنكرين ونبين وجوبها للمفكرين .

﴿ الجوهرة السابعة والثلاثون ﴾

(الثالث خوارق العادات مع الدين)

جرت عادة الديانات أن تؤسس على خوارق العادات وتبنى على أساس يأبى أن يتوازر مع العلم أو يتآخى مع الفلسفة فيكون العلم مع الدين فى شقاق بعيد . وترى القرآن الشريف رغماً مما عليه عامة المسلمين صرح بمقصده فقال (وما مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بالآيات إلا أَنْ كَذَّبَ بها الأَوَّلُون وآتينا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهِ وما نُرسِلُ بالآياتِ إلا تخويفاً وإذْ قُلنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناسِ وما جعلنا الرؤيا التى أَرَيْنَاكَ إلا فِتْنَةً لِلنَّاس والشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فى القرآن ونُخَوِّفُهُمْ فما يَزِيدُهُمْ إلا طُغْيَاناً كَبِيراً) فذكر أن مسألة الاسراء ورؤية بيت المقدس ليلا وأخباره عنه وهو لم يره قط

وهكذا ماقرره فى مقام آخر من ذكره شجرة ملعونة وهى شجرة الزقوم فآمن قوم وكفر قوم فهذا كله إنما هو تخويف وأرهاب فما أزداد السابقون إلا طغيانا وكفرا . وذلك بعد أن مضت قرون وذهبت أمم وأجيال كذبوا إذ خوفوا كثمود أرهبوا بعجائب الناقة ذات اللبن الغزير تسق عشائرهم فعقرها قدار بن سالف فأهلكهم الله فخوارق العادات لاتؤسس أمة ولا تبنى مجداً فكانت دعامة هذا الدين الحجج الدامغة والبراهين العقلية ودراسة العلوم على اختلاف أشكالها . فكأنه يقول كنا نرسل بخوارق العادات إذ كانت الأمم أطفالا والأجيال جهالا فنخوفهم ونزعجهم بغرائبها فما زادهم ذلك التخويف إلا كفرانا ولا أرهقهم إلا جهلا . ومثل خوارق العادات مثل العصا يزعج بها الصبيان وهم يتعلمون لايدركون النافع والضار ولا الخبيث من الطيب . وهكذا كان شأن الأمم السابقين والأجيال السالفين أخفناهم ببعض الغرائب لما جهلوا . ومع ذلك لم يكن لها حظ من تقويم النفوس وإصلاح الشؤون إلا بمقدار ما يتعظ الصبيان بالعصا وتزول البغتة المباغتة والهجمة المزعجة وتؤوب العقول إلى الرؤس . وما مثل تلك

الخوارق إلا كضاغط ثقيل على الهواء لايثبت أن يتمدد إذا كشف عنه غطاؤه ويأخذ شكله الطبيعى فهكذا عقول الأمم الجاهلة صبيان الأمم ترسل عليهم الآيات فتضغط على العقول ضغط اليد على الهواء فى قربة فاذا تنوسيت تلك المعجزه زال الايمان بزوالها . فأما الأمم التى تعقل ما يلقى اليها فايمانها بالقاء المعارف والعلوم وتعليمها التفكر والتبصر والتعقل كما أنزلنا عليك القرآن لهذه الأمة لينظروا فى العلوم ويتفكروا فى خلق السموات والأرض

لم يزل خرق العادات عصياً تفزع تلك الأجيال البائدة كل حين فأبدلناها بما يصقل العقول آنا فآنا فى هذه الأمة إذ دينها يستقبل العلوم بوجه باش وصدر رحب وسنتابع بعده الاكتشافات كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقال فى آية أخرى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع الا مايوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) فهنا يقول ليس أمر الله بيدى حتى أتصرف فى خزائنه ولاعلم عندى فأخبر

بالغيب ولست من الملائكة المجردين عن المادة وغاية ما الذى إنى
أنبئكم بما يوحى إلى وقصارى أمركم أنكم « قسمان » عاقل وغير
عاقل فمن عقل وفهم ما ألقيته إليكم فقد اهتدى ومن ضل فما أصنع
له . أجهلتم فلم تتفكروا قد سأله أهل مكة مرة يقولون إن كنت
نبينا فلتدع ربك يفجر لنا أرض مكة ينابيع ولنر فيها بساتين ذات
أشجار وأثمار وأنهار أو تتساقط السماء قطعاً علينا أو نرى ربك وملائكته
عياناً أو نرى لك بيتاً مشيداً وقصراً من ذهب أو نراك تصعد فى
السماء ثم تأتى بكتاب من عنده تقرؤه فقال (سبحان ربى هل كنت
إلا بشرا رسولا) كما قال فى الآية السابقة ليس عنده خزائن الله
ولا يعلم الغيب وليس من الملائكة فلم يبق إلا أنه رسول من
عند الله يبلغكم ما يقول وأنتم فيه تتفكرون فحجته الدامغة هى
التعقل . وهذا لا ينافى أن خوارق العادات جاءت على يديه ولم
يكن يقصد بها الاعجاز وحده . وإنما معجزته الحقيقية القرآن
والتفكر فيه كما قال فى آية أخرى (وقالوا لولا أنزل عليه آية من
ربه قل إنما الآيات عند الله وما يُشعِركم أنها إذا جاءت لا يُؤمنون
وتُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونَذَرُهم فى

طغيانهم يَعمَهُون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كلّ شيْء قُبُلا ما كانوا ليُؤمنوا إلا أن يشاء اللهُ ولكنّ أكثرهم يجهلون) والمقصود أن خوارق العادات إذا جاءت لاتفيد الفائدة المطلوبة وتقلب القلوب والأفئدة كأنها لم تؤمن بل لو رأوا الملائكة وكلمهم الأموات من القبور لم يفدهم ذلك فائدة . ويبقون جاهلين وأبان أن المدار على الفهم فى القرآن الذى نص عليه فى آية أخرى (قال أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إن فى ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يُؤمنون (وقال فى آية أخرى (ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكْثَرْتُ من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذيرٌ وبشير لقوم يؤمنون) فهو يقول أن المصائب والآلام تحيق بى والمكروه يسوءنى فلو علمت الغيب لاحترست من مزعجات الليالى أو توقيت منها وما أنا إلا مبشر ومنذر لمن يصدقون بعقولهم وكفى هذا شرحاً لحال الرسول صلى الله عليه وسلم ايما تبيان وإذن لا يهولنك ما روى عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم مر على قوم يلقحون النخل أى يضعون الطلع الذى فى ذكرانه فى أناثه فقال صلى الله عليه وسلم

« لو لم تفعلوا لصلح » فتركوه فخرج شيصاً فمر بهم فقال مالنخلكم قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم أعلم بدنياكم وفى رواية مسلم قال « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيى فانما أنا بشر » وفى رواية أخرى « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوا فانى ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل »

ومن هذا تعلم حال هذا الدين أن مداره على العقل والعلم والفكر. ولذلك سيرد عليك نحو ٧٠٠ آية فى العلوم . وليس فى العبادات والمعاملات والحدود أكثر من ١٥٠ آية أشارة إلى القصد الأول منه

﴿الجوهرة الثامنة والثلاثون﴾

(الرابع من أخذ العلوم من الدين بدون فكر)

من أخذ العلوم من الدين بدون فكر فهو غر جاهل قال الغزالى فى الأحياء فى الجزء الرابع فى باب الشكر فان قلت قد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد فى حيز النعم . وقد ذم الله تعالى المال والجاه . وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا

العلماء. قال الله تعالى (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) وقال عز وجل (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) وقال على كرم الله وجهه فى ذم النسب. الناس أبناء ما يحسنون وقيمة المرء ما يحسنه. وقيل المرء بنفسه لا بأبيه فما معنى كونها مذمومة شرعا. فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعموميات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى أدراك العلوم على ما هى عليه ثم يترك النقل على وفق ماظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى. فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها إلا أن فيها فتنا ومخاوف إلى آخر ما قاله من تمثيله المال بالحية ومنافع الدين بالترياق وغرور الدنيا وشهواتها بالسم والعلماء والأنبياء والحكماء بالرجل المعزم. والناس كلهم يجهلون الترياق إلا المعزم فانه قادر فيجب ابتعادهم عن المال كما يبتعدون عن الحية وهكذا شبهه بالبحر والشهوات بالتمساح ومنافع الدين بالجواهر أسفل الماء والأنبياء والعلماء غواصون والناس جميعا لا يغوصون فلن يقدر على استخلاص الجواهر الا ذو الدراية. هذا ملخص ما أطال به فى هذا المقام والذى

نحتاج إليه فيه ما أظهره رحمه الله تعالى من أن المدار فى العلوم على العقل والبرهان والتحقق وأما ظواهر الآيات فلها أغراض تناسب الجمهور والخواص يحتاجون لدقة حتى ينالوا حظاً منها

﴿ الجوهرة التاسعة والثلاثون ﴾

(الخامس الغلو فى الدين)

الغلو فى الدين ممقوت قال الله تعالى (يا أَهْلَ الكِتابِ لا تَغْلوا فى دِينكم وَلا تَقولوا على اللهِ إلاّ الحق إنما المسيحُ عيسَى ابْنُ مَرْيم رَسولُ اللهِ وَكلِمَتهُ أَلْقَاها إلى مَرْيم وَرُوحٌ منهُ فآمِنوا باللهِ وَرُسلِه وَلا تقولوا ثلثةٌ انْتَهوا خيْراً لكم إنما اللهُ إلهٌ واحد سُبْحَانهُ أنْ يكونَ له وَلَدٌ لهُ مَافى السموات وَما فى الأرْض) نهى عن الغلو فى الدين فلا نرفع الرسل إلى درجة الالوهية ولا نسمهم بالعصيان بل يبقون فى درجة تناسب التبليغ وهكذا الأولياء والصالحون نعتقد فيهم أن لهم عند الله زلفى بقدر ما عملوا ولن ينفعوا ولن يضروا إلا باتباعهم ومخالفتهم وإنما هم قدوة فلنجتهد فى تقليدهم ولنسارع إلى الخيرات فتعظيم القبور والتغالى فيها ونحو ذلك كله غلو فى الدين ورجوع إلى الوثنية

﴿ الجوهرة الأربعون ﴾

(السادس والسابع وجوب العلوم العقليه على الامه والصناعات)

بناء على ما سمعت من المقدمات وما فهمت من المقاصد ترى أن العلوم العقلية من حكمة وطبيعة وفلك واجبة على الأمة. فاذا نبذتها عذبها الله مرتين مرة في الآخرة ومرة فى الدنيا بنقص المال والأنفس والثمرات. فنقص المال بذهاب العلوم الطبيعية المعينة على اقتنائه كالزراعة والبيطرة وعلم المعادن والتجارة والحيا كه وآلات السقى والطحن والخبز وآلات الحرث والبناء وهكذا. ونقص الأنفس بجهل الطب ونقص الثمرات بترك جميع العلوم حتى الفلك ويرشدك إلى وجوبه قوله تعالى (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) كأنه يقول إذا تركتم النظر فلا علوم وإذا لم يكن علم ذهبت دولتكم وقامت قيامتكم (فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقال (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض)

وهذا كما يقول الرجل لمن يعلمه أنظر الذى أمامك وافتح عينيك تحريضاً له على الانتفاع منه والعلم بما فيه . والآيات فى وجوب النظر فى جميع العلوم كثيرة فلا نطيل باعادتها بل سيأتى قريباً ما وعدناك به منها وقال صلى الله عليه وسلم « طلَب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » فاعلم أن وجوبه يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة كما أوضحه الغزالى فى الأحياء . وهو يدور مع الحاجة وجوداً وعدماً . فما احتاج إليه جميع الأفراد وجب عليهم وجوباً عاماً . وما احتاج له المجموع وجب على أفراد من الأمة يقدرون على القيام بأمره . وجبت الصلاة على كل عاقل ليذكر الله فى الأوقات الخمس حتى يرى فى نفسه نزوعاً إلى خالقه ويكون زاداً للمعاد . وأما وجوب الزكاة فعلى من لديه المال فيتعلم من الزكاة بمقدار ما أوتى من المال المزكى ويعلم من الصيام ماتمم الحاجة إليه . وإذا وجب عليه الحج وجبت عليه معرفته . ولما انتشرت المدنية وعمت الحضارة وجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم قليلا من القراءة والكتابة وأول آية نزلت قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم

علم الإنسان مالم يعلم) فأول ماقرع سمع النبى صلى الله عليه وسلم العلم والقلم وفى سورة أخرى (نُ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) فأقسم بالقلم تعليما لأمته وفتحاً لباب التعلم بالقلم الذى صار أول شرطمن شروط الحياة وكما يجب على العامة أن يتعلموا فن الكتابة يجب أن يعرفوا ما حولهم من الكائنات المسمي فن الأشياء . ولا ريب أن الأشياء هى مبادىء العلوم كلها فلا علم إلا وله مباد فيها كالنجوم والنبات والحيوان . وإذا تأملت الآيات التى سنوردها تجدها أشياء مما يحيط بالانسان بأسلوب جميل يشوق القارىء

وفى كل أمة أفراد امتازوا بقدرة فى المال وقوة فى العقل والفهم وميل إلى فن أو فنون من طبيعة أو غيرها وهؤلاء يجب عليهم بأعيانهم التوسع فى تلك العلوم حتى يفيدوا بها . وهذا هو الواجب الكفائى . وعلى الحكومات الزام عدد من الأمة كاف لتخريج أناس منهم لحفظ العلوم ودرسها ونشرها من رياضة أو طبيعة أو فلك أو حكمة فان قصر العامة أو الخاصة أو غفلت الحكومة عن حفظ الموازنة ضاعت الأمة وحق عليها القول ومما يستأنس به للوجوب قوله تعالى ((وَلْتَكُنْ مِنكم أُمَةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْر

ويأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُم المُفْلِحُون) وقوله (فلولا نَفَرَ مِنْ كلِّ فِرْقَةٍ مِنهُمْ طائفة ليَتَفقهُوا فى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجعُوا إِلَيْهِمْ لعَلَّهُمْ يَحْذَرُون) وعلى من آنس فى نفسه القدرة على نوع من أنواع العلوم أو الأعمال كالتجارة والصناعة أن يتقدم له ويجد فيه وهو فرض عليه . ومن العجب أنك ترى أن الفطرة الانسانية أودعت فيها أسرار وحكم ووزعت عليها الاعمال وفى ظنى أنك لو راقبت الصبيان وأحصيتهم لاستخرجت منهم الأعداد اللازمة لحفظ كيان الأمة ولتجدن استعداد الهندسة والزراعة والطب والميكروب لكل فن منها عدد يكفى الأمة كما خلق الذكر والأنثى بلا دخل للخلق فى تنويعها فهكذا فلتكن الأمزجة واستعدادها للعلوم والصناعات بل لاشك فى أن هذا حاصل . ولو أن الحكومات راقبت الغرائز فى إبان نشأتها لألفتها كما ذكرنا . ولكان هذا أجمل ما حصلت عليه المدنية قال تعالى (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْها) (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها) ولما سئل صلى الله عليه وسلم قال « جف القلم بما هو كائن أو كان » قال رجل أنتكل إذاً يارسول الله فأطرق

برأسه ثم قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » إشارة إلى ماقررناه الآن ومن ساعدته فطرته وقصر به ماله وجب على الأمة اسعافه بالمال حتى يحيوا فطرته ولا تموت غريزته وهـذا ما فهمناه من قوله تعالى (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا)

ومن هـذا عرفت الواجب العينى والواجب الكفائى والصناعات كالعلوم فى الوجوب فيجب على كل فرد أن يتعلم صناعة وإلا عاش ذليلا وعوقب فى الدنيا بالأحزان وفى الآخرة بالعذاب والحكومات مسيطرات فعليهن أن يلزمن الأفراد بذلك وما دامت الأمة تحتاج إلى إبرة أو محراث أو آلة بخارية من الخارج فهم يعاقبون فى الدنيا والآخرة وهذا هو مذهب علماء الاسلام قاطبة .

﴿ الجوهرة الحادية والاربعون ﴾

(الثامن عناية الدين بالعلوم)

مما سبق تعلم مقدار عناية هذا الدين بالعلوم العقلية والكونية حتى إنك لترى أن مناط جميع الأديان فى الأمم السالفة إنما هى العبادات والصلوات وأشياء أخرى ومناط هذا الدين . أولا وبالذات

العلوم النظر فى الكائنات لتربى فى المرء ملكة الوجدان ولقد جاء فى التنزيل (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً) وجاء فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام أن موسى قام خطيباً فى بنى اسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا أعلم فعتب الله عليه . إذ لم يرد العلم إلى الله . فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال يارب وكيف به فقيل له احمل حوتا فى مكتل فاذا فقدته فهو ثم وكان ما كان مما هو موضح فى القصة فى البخارى . ومنها أن الخضر عليه السلام قال لموسى عليه السلام انى على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت . وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه . ولما استويا فى السفينة جاء عصفور فنقر نقرة أو نقرتين من البحر قال الخضر ياموسى ما علمى وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور فى البحر وكان ما كان من العجائب التى جرت على أيديهما والحكم المودعة فى قصتهما

أيقظنا هذا القول إلى الاستزادة من العلم أمد الحياة وأن لانقنع بما لدينا من العلوم. كيف لا وهذا موسى وهو نبى سافر للعلم . وهذا الخضر يقول أنت نعلم مالا أعلم وعلم الله لانهاية له .

فالمرء مادام حياً ملزم بالتعلم من غيره حتى إذا استوفى علم المخلوق أخذ فى الاكتشاف والاختراع . وقد قلنا أن آيات العلوم تبلغ أربعا وعشرين ضعفاً من آيات العبادات وها نحن شارعون فى تفصيلها كما وعدنا وهى تبلغ نحو سبعمائة وثلاثه وستين آية جمعها الغزالى فى بعض مصنفاته وسنذكر كل آية ونعلق عليها مايناسبها عند الحاجة ونذكر ما أشارت إليه من العلوم فاذا تمت الآيات أحصينا عدد الاشارات للعلوم وجمعناها عدداً واحداً

وترى العبادات والمعاملات مائة وخمسين فاذا سقطت ماجاء فى المعاملات لم تبلغ آيات العبادات مائه

وترى علماء الاسلام قصرت عنايتهم عن العلوم وهى فى نظر صاحب الشرع عليه السلام أهم وفى الآيات التى سأوردها إيماء لجميع العلوم كالفلك والتقويم والعلوم الرياضية والنبات والحيوان والانسان والحكمة والتوحيد والطبيعة والكيمياء وغيرها من بقية العلوم التى تفتخر بها أمم العالم . ولعمرى من قرأ هذه الآيات وتدبرها ينمو فى قلبه وجدان صحيح ويشب فى عقله حب العلوم وغريزة الفهم ويقبل عليها . ولا يكاد يتمها حتى يحس بوجدان

إلهى وشوق لمبدع تلك العجائب وولوع وفرح بتلك الغرائب . وها نحن شارعون بحمد الله فى المقصود فنقول ان الآيات سترد عليك متتابعة تشمل النظر فى العلوم والتأمل فى الحكمة ولقد نرى فى الآية الواحدة آدابا وعلوماً فنذكرها لما غلب من علمها على آدابها

﴿ الجوهرة الثانية والأربعون ﴾

(سورة الفاتحة)

(بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) بدأ برحمة الله تعالى التى شملت العالم علويه وسفليه وثنى بالثناء على الله لنعمائه ورحماته التى وسعت العوالم كلها . فشملت الطير فى وكره والوحش فى فلواته . والنجوم فى مداراتها . والشموس فى أفلاكها . فنحن نحمد الذى ربى هذا العالم تربية مزجت رحمة عامة فتراه ربى النبات والحيوان والانسان وأعطى كل نوع منها مايدوم به ارتقاؤه . ويلائم مزاجه فلم تكن تربيته لعالم واحد

منها (الحمد لله رب العالمين) وتحتاج التربية إلى رغبة ورهبة فقوله (الرحمن الرحيم) هى الرغبة وهى ما أحاط بالانسان والحيوان فى حياته من النعم الوافرة والآلاء المتواردة والعطف والمنح الظاهرة والباطنة والرهبة فى قوله (مالك يوم الدين) فهو المالك للعالم يوم الجزاء والدهر كله يوم جزاء للنوع الحى فلا حى إلا وهو مجازى فى كافة لحظاته وحركاته وسكناته على ماقدمت يداه فيجنى المرء مما زرع فى شبابه عند هرمه ويحس المقصر بألم فى قلبه وفقر وأفلاس فى ماله والله هو المالك لنواصى الأحياء فى حياتهم وبعد موتهم فكأنه يقال الحمد لله على أن تربيته عمت الأنواع كلها. وشملتها الرحمة واللطف والعطف، ولم يذر العباد وشأنهم بلاارشاد وإيقاظ لئلا يفرطوا فى ذنوبهم ويجمحوا الى الشرور ويطمحوا إلى المهلكات. فمحصهم بالقهر وانزال المحن والبلايا على من لم يعتدل فى سيره. فملك الله زجره. وتولى بنفسه تأديبه فاللهم (اهدنا الصراط المستقيم) ومن شأنه الرحمة العامة والقهر العظيم نحن نطلب منه أن يهدينا إلى طريق استقامت جادته. ونجا مالكوه طريق من سعى اليك فخلعت عليه من نعمك خلعا.

وألبسته من رحمتك أثوابا ومن رضاك جلبابا . فسبقت رحمتك غضبك لا صراط من غالتهم غول العقاب والجزاء فغضبت عليهم فجهلوا جهلا مطبقا وجمدت قرائحهم على مالديهم من العلم . ولا صراط الذين ضلوا السبيل فلم يهتدوا فقوله أنعمت عليهم يناسب الرحمن الرحيم وقوله غير المغضوب عليهم الخ . . يناسب مالك يوم الدين وملخص هذا الثناء على الله بعموم رحمته العالم . وملكه نواصيهم ونحن ندعوه أن يقودنا بالرحمة ويجعلنا ممن قادهم اليه باللين والعطف و الرأفة بأن نعرف نعمه وأسرار علومها فنهتدى بها و ننهج نهج من ساروا على نهج الاعتدال وأن يجنبنا سوط غضبه بصفة القهر والسلطان التى لا يقاد بها الا المجرمون الذين جبلتهم تنبو عن الكرم والرحمة ولا يقادون الا بسياط العذاب واللعنة

والناس فى الدنيا قسمان قسم استقاموا وعلموا وأدركوا وفهموا أولئك ساقهم الله بصفة الرحمة وقسم جهلوا وإن تعلموا استعملوا العلم فى التسفل وأعمال الشهوات أولئك يقادون بسلاسل القهر والجزاء وعذاب الآخرة بصفة مالك يوم الجزاء . علوم هذه

السورة فن الحكمة إذ هو فن تدرس فيه عموميات العلوم وأصناف الموجودات ومبادىء العلوم

﴿ الجوهرة الثالثة والأربعون ﴾

(فى سورة البقرة اربع عشرة آية)

الاولى (الذى جَعلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّماءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لكم فَلَا تَجْعلُوا للهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُم تَعلَمُون) فى هذه الآية أربعة أصول الأول كون الأرض فراشاً كناية عن التمكن من الانتفاع بها وهذا لن ننال معرفته إلا بعلم طبقات الأرض — المعادن — الجغرافيا (الجيولوجى) وعلم المعادن (ميترولوجى) والسماء وعلم تقويم البلدان (الجغرافيا) الثانى جعل السماء بناء وهذا مداره على علم الهيئه (استرونومى) ألا ترى أن الهيئة تريك مجموعات الكواكب المنتشرة فى فضاء السماء فترى للناظران هناك فضاء عظيما . ولا ريب أن هذا بمعزل عن البناء وان يدرك عاقل ان العالم فوقنا بناء الا متى فقه سر الاثير المالىء للعالم المفروشة فيه الكواكب والشموس والأقمار كأنها مرصعة فى أطرافه ولكنها

مفروشة فى جوانبه وأكنافه . ولولا هذا الجسم اللطيف الشفاف ماتألق برق ولاجرت كهرباء ولا كانت اسلاك تلغرافية ولا كان تلغراف (ماركونى) الذى ينقل الاخبار بلا سلك تراه . فهذا الخلاء الذى بين هذه الاجرام المنيرة ممتلىء بجسم لطيف لا تراه العيون ولا تتخيله الظنون لا تخلو منه السماء ولا تخلو منه الأرض فهو بناء ثابت لطيف رقيق لا يتخلله أدنى شقوق (فارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فطور) وشأن البناء أجسام صلبة تتخللها أخرى لطيفة تتماسك بها . الثالث (وأَنْزَلَ مِنَ السَّماء مَاءً) وهذا يسلك بنا أن ننظر فى السماء وتكوينها وأقطارها وبرقها ورعدها وفيه علم الجو والسحاب والأنهار والبحر . الرابع (فأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لكم) وفيه الكلام على الثمار واختلافها لوناوطعماً وقدراً ومنها دواء وغذاء وفاكهة وزيت وأدم وكيف كان تكونها وما أسبابها

﴿ الجوهرة الرابعة والأربعون ﴾

الثانية (هُوَ الذى خَلَقَ لَكُمْ مافى الأَرْضِ جميعاً ثمَّ استَوَى

الى السّماء فسوّاهنّ سَبْعَ سمٰواتٍ وَهُوَ بكلّ شىء عَليم) فى هذه الآية أصلان عظيمان : الأول مافى الأرض جميعاً ، والثانى تسوية السماء وجعلها سبع طبقات ، الأول يحتاج إلى علم المعادن والحيوان والنبات والانسان والعمران ، وكيف يتسنى لامرىء أن ينتفع بما أجنته الصخور وضمنته البحور وكمن فى الهواء واستكن فى الماء من المعادن كالذهب والفضة والأحجار الثمينة والجواهر واليواقيت والمرجان والأسماك والكهرباء والأعشاب والغابات والسهل والجبل والقفر والسحاب والنبات والحيوان والانسان إلا اذا مارس فنون المعادن وطبقات الأرض وفن الحفر واستخراج السائل المسمى بالبترول وغاص البحار ونظر مافيها من المرجان والجواهر وعلوم الطبيعيات وقوله (لكم) داع حثيث للبحث والتنقيب والطلب ومتابعة الاكتشاف والجولان فى البر والبحر هذه الآية صورت الانسان بشكل الملك المسيطر والخليفة. الثانى تسوية السماء وكونها سبع طبقات ، أما تسويتها فأمر معقول بالهيئة يعلم بالنظر فى الحساب والهندسة والجبر ويليها الفلك ولعمرى كيف تعرف تسويةالسماء وهندستها

ونظامها وإتقانها إلا بعلوم الهيئة وكيف تدرك الهيئة إلا بالحساب والهندسة والجبر وهناك يدخل الانسان فى طور من الجمال مبهج يسره فهناك ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، وقف على الماديات وجهل العقليات ، وما أبهج نفس المرء إذ يعرف الشكل البيضاوى الذى تدور عليه الشمس والكواكب السيارة وما أسره حين يقف على دوائر الكواكب الثابتة بالبرهان العقلى ، وكيف تتركب الشهور والسنون والقرون ، وكيف يختلف الليل والنهار ويفهم إذ ذاك ما تخر دونه أعناق الملوك والجبابرة الجهال ، ولعمرى ليس كل ناظر للهيئة قرير العين . إلا انما ذاك الذى يدرسها ناظراً لحسن إتقانها ومحاسنها وجمالها ، ولقد أودعنا فى كتبنا الأخرى من هذا ما فيه غنى . ولولا أن هذا الكتاب لقوم برعوا فى العلوم لأطلنا المقام ولوفينا الكلام حقه ، أما كون هذا البناء الرفيع سبع طبقات فهو سر يعلم بمجرد الظن كأن تقول إن هذه الطباق أقدار الكواكب باعتبار الذى درس فى الفلك والتقويم والحساب والهندسة والجبر والكواكب وغير ذلك ولعل فى العلم بعد ما يكشف الغطاء عنه ولذلك أعقبه بقوله (وَهُوَ بكلِّ شيء عَليم)

﴿ الجوهرة الخامسة والأربعون ﴾

الثالثة (قالوا سُبْحَانَكَ لاعِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنا إنَّكَ أَنْتَ العليمُ الحكيم) هذه الآية تفتح باب الاكتشاف واستطلاع ماذرأ الله فى الأرض واشعار النفوس بأن وراء ماعلم الناس من المعارف حكما وغرائب، فهذه الآية تتطاول إليها الأعناق وتشخص لها الأبصار كما جاء فى مسألة الخضر الآنفة الذكر ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا كما نقص ذلك الطائر من البحر وقول الخضر أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا أشعار للنفوس واستنهاض للهمم وتحريك للعزائم وايقاظ للعقول وتنبيه للافهام بما وراء علومهم من الأسرار والحكم وانالا نستصغر فنا ولا نستحقر علما وإنا لا نأنف أن نأخذ عمن تظن نفوسنا انها أعلم منه فالعلم باب واسع وبحر لا ساحل له وقوله (إلا ما علَّمتنا) اقرار له بالشكر على ما نعلم من علمنا واعتراف بأن ما يتعلمه المرء من غيره أو من اكتشافه اسناده الى الله ومرجعه اليه ولا جرم أن المعرفة بالاستعداد والالهام والتعليم بعلم بشرى راجعة الى الله مبدأ وغاية وفى هذه الآية صفة العلم والحكمة لله تعالى ويرجع الى فن الألهيات من الحكمة

﴿ الجوهرة السادسة والأربعون ﴾

الرابعة (أَلَم تعلمْ أَنَّ اللهَ لهُ مُلكُ السمواتِ وَالأَرْضِ وَمَا لكمْ مِنْ دونِ اللهِ مِنْ وَليّ وَلا نَصِير) فيه أن القدرة لله وحده هو مالك السموات والأرض ولا ناصر ولا ولى سواه واعداد النفوس الى التشمير فى العلم والعمل والثقة بالله تعالى ، وفيه صفة القدرة من فن الألهيات والاعتماد على الله فى النصر ولا جرم أن الاتكال عليه كما أوضحناه مناطه الجد فى الاعمال التى سنها الله فى العوالم واستخدام النواميس والاعضاء والآلات التى منحها الله لعباده والتنكب عنها جنوح الى ترك الانتصار به كما أوردناه آنفاً فى حديث الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون وابنا هناك ان التوكل اعتماد بالقلب وعمل بالجوارح وسير على السنن المعهود ، وما سوى هذا جنف واثم وعدم ثقة بالله ونبذ لما سنه للبشر من القوانين وماشرعه من الأوضاع الكونية فاستنصر بهواه لا بما رآه مسنونا طبيعياً

﴿ الجوهرة السابعة والأربعون ﴾

الخامسة (وللهِ المشرِق والمَغرِب فأينما تُوَلُّو فثمَّ وَجْهُ اللهِ إنَّ اللهَ واسعٌ عليم) الله جل وعلا منزه عن المادة برىء من الأجسام تعالى عن الأبصار لا نراه بهذه العيون. فليس معنى ذلك أننا نرى وجها لله أينما حللنا أو ارتحلنا شرقا أو غربا بعيوننا على أننا لو فرضنا ما استحال وكان له وجه ينظر بالأبصار وتمتد اليه الأشعة وتقابله الوجوه وله عينان وأذنان وفم وأنياب كما للآدميين كيف نراه فى الشرق والغرب ونرى هذا الخطاب عاما لكل من له بصر وعقل والآدميون على وجه الكرة الأرضية يبلغون نحو مليار ونصف. فكيف يرى كل منهم وجهه الواحد واذن رجع الأمر إن ادراكه بالبصيرة لا بالبصر ووجهه ما يستشعره المرء فى آيات الكائنات من الجلال والجمال الطالعة على وجه الطبائع الجميلة فى الكرة الأرضية والاجرام السماوية. وهذا معنى مارسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله «أذكر الله عند كل حجر وشجر» وهو ايقاظ للعقول وتنبيه لها إن كل ما تراه تشعر العقول بأثر خالقه فيه فكل نظرة أو فكرة فيها يثاب المرء عليها

فللمرء فى فكرته جزاء جميل من الخالق وهى عبادة فاذا غلب على فؤاد شعور أثر الخالق فيما يراه من العالم تربت له ملكة حب الله عز وجل وزاد يقينه فليشمر للعمل واثقا بالخير فى دنياه والرضا فى أخراه وختم المقال بأنه واسع عليم تحريض على استطلاع خبايا العلوم وكشف الاسرار والاكتشافات وإذا كان لله وجه فيما تراه العيون وتسمعه الآذان أو تدركه البصائر فآثاره تعم كل كائن ولا جرم أن ذلك يدعو للجزم بأن لتلك الكائنات أسرارا لما لله فيها من الوجه والسر والحكمة وإذا كان الله واسعا فى قدرته وعلمه محيطا بأسرارها فلا جرم أن كل ما لدينا من الكائنات فيه من الحكمة المودعة مالا يستقصى وكلما وقفنا على سر فلنذكر قوله تعالى (فثم وجه الله) ونوقن أن وراءه أسراراً إذ وجه الله لا يزال فيه (والله واسع عليم) فاذا اكتشفت الاناسى ألف سر قالوا فثم وجه الله) فليكن ماوراءها آلاف حكمة. وهذا ماقاله أحد أعضاء المجلس العلمى البريطانى فى أول هذا القرن إذ قام خطيبا فقال كانت العناصر أربعا فى الأعصر الغابرة فقد وصلت إلى نيف وسبعين وتشعبت فروع العلم وأصبح كل عنصر يدعو إلى التنقيب

عن أسراره فلعله مركب من عناصر وهذا الهواء كان بسيطا فصار مركبا من مادتين ثم وصل الآن خمسا الاكسجين والازوت وبخار الماء والفحم ومادة خامسة « أرغون » وقال كل واحدة منها تستدعي سيراً حثيثاً عسى أن يكون وراءها تحليل وتنحل إلى عناصر وتحسب أصلا كالهواء وتسير سيرا لانهاية له ولا غاية لمداه. فليشمر الانسان فى البحث عسى أن يكون فى قوى نفسه وفى الكائنات حوله ما تنبعث منه أشعة جديدة وقوى مودعة ولا يقف عند حد فى قوته ولعل فى نفوسنا أسراراً وحكماً فليجد فى الرقى والعلوم ولا يقفن رجل عن العلم والعمل لحظة ولعل فى نفوسنا وهى أجمل العالم قوى وراء ماوصلنا اليه وأنا أقول قد تجدد لى نشاط فى نفسى عند كتابة هذا الموضوع وأملت أن أنال من القدرة والعلم شيئا بعد مانلته. واذا كانت الذرات فى الطبيعة تبدى عجائب لن تقف عند حد محدود وتحدث كهرباء وعجائب فما بالك بنفوس أشرف مانراه وأجمل ماأودع فى الكائنات ولعل فى نفسك أيها القارئ من القدرة والقوة مالم يكن ليخطر ببالك وكم من ضعيف ظهرت على يديه أعمال خرت لها الأقوياء سجداً

وكم من رجل لا يؤبه به جد وأعمل الفكر فأنار للعالم مصابيح من أشعة علمه وسن لهم قوانين من حكمه وفى التاريخ من هؤلاء كثير وذلك لما لله فى العالم من الوجه وشمول علمه وسعة قدرته لها ولن يتناهى مافيها وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لأقاتلهم ولو وحدى » ويقول الله لنبيه (وقلْ ربِّ زدنى علما) وهذا نابليون يقول — لا مستحيل —

﴿الجوهرة الثامنة والأربعون﴾

السادسة (وقالوا اتَّخَذَ اللهُ ولداً سبحانهُ بلْ لهُ مافى السموات والأرض كل له قانتون) لا ولد لله فالناس سواء فى الحقوق ملوكهم وسوقتهم خاصتهم وعامتهم فلا مسيطر إلا الله ولن ترى مخلوقا إلا وهو قانت مطيع لله طاعة تسخير وسير على قانون سنه فى الطبيعة سلط عليه الشهوات وألهمه ما يقيم به حياته فهو محوط بالهواء والشمس والحكومة والأمم تجرى عليه شرائع الطبائع وقوانين الحكومات فلن يخرج عن هذا السنن إلا من تجرد عن المادة وهو مدبر هذه الأجرام وكل له قانتون مسخرون ساجدون كما قال فى آية أخرى (ولله يسجدُ مافى السموات ومافى الارض

من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون)

﴿ الجوهرة التاسعة والاربعون ﴾

السابعة (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) يقول يامحمد أن الله مطلع عليك وسيدفع عنك كيد الكائدين إذ هو السميع لما تقول ويقولون العليم بما تعمل ويعملون وسيظهر الحق ويخفى الباطل عدة للمصلحين فى الأمم بالنصر وظهور الحق وهذه مسألة نخر بها الغربيون من قولهم لايبقى إلا الأصلح ولا بد من ظهور الحق وخفاء الباطل صرح بها الله لنبيه قائلا سأنصرك فأنى عالم ما تعمل وقد أجريت سنتى أن أرفع الحق وأخفى الباطل

﴿ الجوهرة الخمسون ﴾

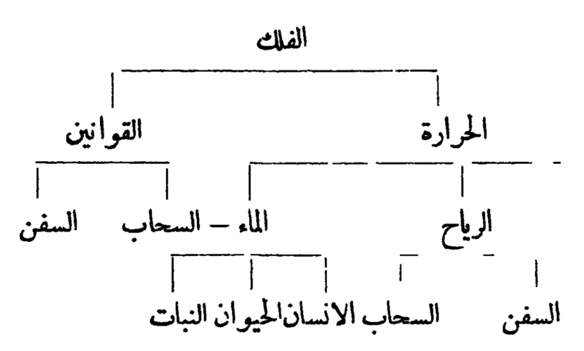
الثامنة (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) صبغة الله هى معرفة الدين والعلوم ويقول لا أحسن من صبغة الله ونحن له عابدون

﴿ الجوهرة الحادية والخمسون ﴾

التاسعة والعاشرة قوله تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا

هوَ الرَّحمٰن الرَّحِيم إنَّ فى خلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلْكِ التى تجرى فى البحرِ بما ينفعُ الناسَ وما أنزلَ اللّٰهُ من السماء) إلى قوله (لآياتٍ لقوم يعقلون) صدر هذا القول بتوحيد الله وأردف بعده صلة العالم بعضه ببعض فابتدأ بالفلك وثنى بالطبيعة وجعلها مرتبطة منظمة كأنها انسان واحد وحيوان واحد ونبات فترى كل كَائن مستمد من سواه فاختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بقرب الشمس وبعدها فى البروج الشمالية والجنوبية يدعو إلى اختلاف الحرارة والبرودة فى الاقطار المتباينه وهبوب الرياح فترى الأمطار تتساقط من السماء تبعاً لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لناموس الأفلاك وسير الشمس فى البروج فتنشأ ممالك النبات والحيوان والانسان من ذلك الماء وتهب الرياح فتسير السفن كما تسير السحب ولكل قوانين فى سيره فترى السفن لن تتجاوز مارسم لها الملاحون فى رسومهم من الخطوط البحرية ولن تعدو السحب طريقها المرسوم لها بالنواميس الطبيعية رحمة للناس وهذا جميعه مرتبط بالعلويات وكيف تسير السفن إلا بالقوانين البحرية المستخرجة من علم

الأفلاك ومراقبة الأطوال والعروض والنجوم وسير الشمس وملاحظة الأجرام العلوية وتغطس الابرة المتجهة إلى القطبين أم كيف يتحرك السحاب إلا بالرياح وهى المسخرة بالحرارة المنبعثة من الأجرام العلوية فرجع الأمر كله إلى أصل نجم عنه فرعان كلاهما له فروع الأصل اختلاف الليل والنهار بالحركات الفلكية والفرعان القوانين المودعة فى الأجرام العلوية والحرارة المنبعثة على الكرة الأرضية. ومن الأول نشأ فرعان سير السحب وسير السفن بالقوانين البحرية لرقى التجارة بتبادل المنافع بين الأمم فيأخذ الشرقى مانبت فى الغرب ويأكل الغربى مانبت فى الشرق ومن الثانى فرعان اثارة الهواء والماء فحرك الهواء السحاب والسفن وتبخر الماء بالحرارة فعلا فى الجو فهبط ماء على اليابسة وكان الحيوان والنبات منه وهذه صورته



فترى هذا العالم على هذا النسق كرة واحدة وشكلا واحداً يحتاج أدناه إلى أعلاه والأعلى مفيد للأسفل والأسفل مستمد من الأعلى مستفيد منه كما ظهر فى هذا الشكل واذا كان هذا شكل النظام الذى فى عالمنا فمن الأقرب للعقول أن نهج النُّظُم الأخرى على هذا النمط وعليه فأصبح هذا العالم لدى العلماء والمفكرين كجسم واحد له روح وقلب وأعضاء متحركة وحرارة وهل دورة المياه والرياح المسخرات ودورات الشموس والأقمار إلا كما يدور الدم فى أجسامنا فاذا أبصرنا بعقولنا أدركنا العالم كإنسان واحد وحيوان واحد له رأس وأعضاء رئيسة ومرؤوسة ولا يعقل هذا إلا من

درس من كل فن طرفاً ثم مزج العلوم وربطها ثم قارنها فهناك يدرك هذا القول ولا جرم أن الجسم الواحد مديره واحد فارتباط العوالم واستمدادها يدل أن مدبرها واحد

وتأمل كيف يقول (والهكم اله واحد الخ) ثم يعقبه بهذا الشكل المنتظم من الكائنات الصائرة مزاجاً واحداً فها هو يقول الهكم واحد ولن تستشعروا هذه الوحدة الا إذا قرأتم العلوم وعشتم بها وصورت فى عقولكم شكلا منظما كما وضعناه فتدركون مزاجه وجسده ومنه تعرفون أن المدبر واحد ولقد رأيت علماء اليونانيين يطنطنون بأن العالم واحد ويبرهنون ببراهين قاحلة يابسة خلت من العلوم والحكمة على عادتهم فى مثل ذلك وقسموه أعراضاً وافلاكا وجواهر ثم يقولون لن يمكن فى العقل وجود سوى ما رأينا فاذا كثرت العوالم فهى من هذه الأجزاء ولم أرهم يحومون حول ارتباطه الطبيعى .

هذه الآية تحرضنا على العلوم وانظر كيف تبعتها أخرى كشفت القناع عن العمران الناجم عن هذه العلوم وعن سياسة الأمة ونظامها ومحاورة عجيبة بين الرؤساء والمرؤوسين وتوصيف

ما يعتور الأمم الضالة فى العقائد يقول (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَد حُبًّا لله) الناس قسمان عقلاء يجدون فى عقولهم موجداً واحداً نظم نظاماً عجيباً واحداً فتعشقه قلوبهم وتميل إليه نفوسهم وينالون من المعارف ما تمتلىء به نفوسهم فرحاً وتستنير أفئدتهم وينالون يقين النعيم والعقيدة المنيرة للأفئدة وهى وحدة النظام وتنظيم مدنهم بوضع الرؤساء والمرؤسين كلا فى موضعه اللائق ومكانه المستعد له ودرجته التى يستحقها بمحض استعداده وجده كما نظمت هذه الكائنات على هذا النمط ومزجت جسما واحداً وشكلا منظما فبالمعنى الأول يعشق الخالق ويحبه حبا مفرطا لحسن النظام والرأفة والجمال والبهاء والكمال حبا لا يعتوره فتور باقيا ما بقى النظام متزايداً ماتزايد الاحساس بالحكمة والغرائب المدهشة وبالثانى تدوم المدنية وتعم الحضارة لثباتها ورسوخها رسوخ الجبال لا بل أقوى وأثبت وأدوم لبنائها على أس الحكمة التى بنى عليها هذا العالم وعلى هاتين المقدمتين ترى الآيات المتتابعة المتناسقة بعد هذه فصلت الامرين فقال فى المعنى الاول (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُون

اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالذينَ آمنوا أَشدُّ حبًا لله)
وهم أولئك المقلدون لرؤسائهم العابدون لاله لا يدركون سراً من
أسرار خلقه لحبهم فى الحقيقة لرؤسائهم وهكذا عباد الاصنام
والحيوان والنار والشمس والقمر تراهم يحبون ما عبدوا لدوام
اعتيادهم واستمرارهم وتمرنهم على تلك العبادة وخضوعهم وخشوعهم
فتطير أفئدتهم شعاعاً وتتقطع حسرات اذا أهين ما عبدوه ولكن
الذين قرؤا ما سطر فيما وجد من العلوم وعرفوا صنائع العالم أشد
حباً لله لأنهم لم ينقض دليلهم ولن يهن حبلهم ولن يزول معتقدهم
أما أولئك الوثنيون فهم أقرب زلزالا لظهور الصواب لهم بالبرهان
وما أهون الحب لتلك الأوثان إذا قام البرهان وأشار الى المعنى
الثانى بقوله (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ان القوة لله
جميعاً وان الله شديد العذاب اذ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا
ورَأَوُا العذابَ وتَقَطَّعَتْ بهم الاسبابُ وقال الذين اتَّبَعُوا لو أَنَّ
لنا كرةً فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يُريهم الله أعمالَهم حسرات
عليهم وماهم بخارجين من النار) تهويل لحال الظالمين فى عقائدهم
الجاهلين بما حولهم المقلدين لرؤسائهم الناظمين لمدنيهم نظاما يديره

الرؤساء حسب أهوائهم لما أذعنوا لهم بالأسر وخضعوا لما يتراءى لهم على أيديهم وما يسطر عنهم من الأعاجيب المدهشة وما يختلقه سدنة الوهم عنهم لغرض أنفسهم

يقول لو رأى هؤلاء الجاهلون ما سينزل عليهم عند حلول النقمة بهم بتمزيق جامعتهم فى الدنيا وتقطيع أفئدتهم بالحسرات والنيران فى الآخرة حينئذ يرون أولئك الرؤساء مثلهم . ما كان بيدهم إلا تلك الأصنام والآلهة والأوهام المفتراة والضلالات المكذوبات والسنة الطالحة . وهناك تكون الحسرات وهناك تتقطع القلوب وتزول الألفة والجاه وتذهب أيدى سبا ويغلبها قوم آخرون ويستعبدها الأجانب المالكون ويشغلها القاهرون الظالمون ويضرب على أيدى سدنتهم . وحينئذ يستصرخ الضعفاء بالأقوياء كما تراه فى كل أمة أفل نجمها وغاب سعدها وأدبر عزها وأقبل ذلها يقولون هانحن أولاء استسلمنا لكم صاغرين فيما مضى فهل أنتم مغيثونا من عذاب عدو حاكم وفاتك غشوم أقبل.فيقولون دعونا وشأننا إنما نحن أذل منكم نفسى نفسى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا

وهذا القول كما يصدق على عذاب الآخرة نراه ونسمعه كل يوم فى أنحاء العالم عند تفاقم الخطب وحلول الكرب فى الأمم الضالة التى سيقت بسوط العذاب إلى الخزى والدمار فيندم التابعون ولاة ساعة مندم. يقولون . ياليت لنا رجعة إلى الدنيا ومثلها الرجوع إلى الاستقلال فى الحياة . فلنعرف أخبار أنفسنا ونفكر لها ولا نقلد من غشوا على أبصارنا وساموا نا الخسف. نسمع هذا القول فى الدنيا من عامة الدول حين يدهم بلادهم عدوهم يقولون وقد يئسوا من رؤسائهم . لو أننا استرددنا بلادنا ماسلط علينا رؤساء ظالمون بل أدرنا الملك بأيدينا وفكرنا لأنفسنا وجعلنا الرئيس وكيلا لا مسلطاً ولا تظن أن هذا المقال خارج عن موضوع الآية فانها وقد صرحت بعذاب النار ومحاورات الرؤساء فى الآخرة فانما ذلك صورة لما يحدث فى الدنيا (ومَنْ كانَ فى هَذه أعمى فهُوَ فى الآخرَةِ أعمى وأَضَلُّ سبيلا) فالنفوس فى هذه الدنيا هى التى فى العالم الآخر وعقولها وأفئدتها سواء هنا وهناك فأشار بعدها إلى تساوى النفوس فى العقول إذ قال (ياأيها الناسُ كلُوا مما فى الأرض حلالاً طيبَاً وَلا تتَّبِعُوا خُطوَاتِ الشيطان إنهُ لكم عَدوٌ مبينٌ) .

﴿الجوهرة الثانية والخمسون﴾

الحادية عشرة (وإذا سألكَ عبادِى عنى فإنى قَرِيبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الداعِى إذَا دَعانِ)

ولما وصلت إلى هذه الآية بدالى أن أجعلها نهاية هذا الجزء من الكتاب وانى أضرع إلى الله أن يقدرنى أن أسلك فى تفسير القرآن كله على هذا النمط الذى أشار إليه الشيخ الغزالى رحمه الله فى أجزاء تتلو هذا الجزء إن شاء الله وصلى الله على سيدنا محمد وآله

تم الجزء الأول من جواهر القرآن والعلوم

تنبيه: هذا هو الذى ورد فى الطبعة الأولى ومنه يستفاد أن المؤلف كان مصمما على أن يتبع هذا الكتاب بتفسير القرآن وسيتضح فى الملحق الآتى إنه قد أتم التفسير كله بعد نشر هذا الكتاب وستقرأ هذه المعانى مفصلة هنا

ملحق كتاب التاج المرصع

فى الطبعة الثانية

قصدنى بعض أصدقائى الذين يقرءون كثيراً فيما أكتبه واطلع على ما فى كتاب التاج المرصع وهو يطبع الطبعة الثانية فقال حمداً لله وشكراً له على نعم لاحد لها وآلاء لاتعد (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) فنحن لانحصى نعمه فى سمواته وشموسه وأقماره وكواكبه وأنهاره وحكمه ، بل لانحصيها فى النعم الخاصة ، فهاهى ذه الأمم الاسلامية من أقصاها إلى أقصاها أخذت تسير على نهج واحد وطريق معبد وقد ظهر للعيان ما كنت أنت تتحسر عليه أثناء تأليف هذا الكتاب. فانك رفعت صوتك وأنت آسف تقول انشروا العلوم فهاهم أولاء المسلمون قرءوها فعلا ولم يمض بعد هذا النداء إلا سبع وعشرون سنة وقد أتتك البشرى من كل جانب ، فالهند يترجمونه والتركستان ساروا على نهجه وقد علمت أن الأمة الايرانية جميعها تقرأ هـذه الآراء وهكذا جميع المسلمين من أهل جاوه والملايو وبلاد المغرب فى شمال أفريقيا

والسودانيون ومسلمو جنوب أفريقيا ومسلمو أوربا أجمعون

ولما كانت النعمة توجب الشكر (ومعلوم أن الشكر إنما هو صرف النعم فيما خلقت له) أردت اليوم أن ألتمس منك أن تشرح بعض ما يعوزه شرح وتفصيل فى هذا الكتاب لأن من نعم الله عز وجل أنك بقيت حياً حتى جنيت الثمرة وهى انتشار الفكرة فهذه الحياة اليوم نعمة فليكن الشكر عليها بايضاح تتجمل فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب

ذلك أنك أولا ذكرت فى أثنائه أن كتاب القراءة المكية أثر فى نفسك وأسفت على جهل المسلمين ونقص تعليم الصبيان فى مدارسهم ومنازلهم .

ثانياً — ذكرت أنك رأيت نسيج العنكبوت فى ذلك الكتاب ولم تر ذلك الرسم فى كتب السابقين فأسفت لذلك وتمنيت اكمال هذا النقص .

ثالثاً — ذكرت النحل والنمل والهندسة وَالنظام الجميل فى أعمالها .

رابعاً — ذكرت أن هذا الكتاب إنما هو مقدمة لتفسير

القرآن فبين ماذا فعلت بعد تأليفه حتى يعرف قراء الكتاب مانعرفه نحن الذين معك دائما فهذه أربعة فصول

﴿ الفصل الأول ﴾

فأجبته قائلا:

أيها الأخ المفضال شكراً لك على تذكيرى بما يتم النقص ويشرح الصدر ويورث الاطمئنان واليقين

أيها الأخ المفضال

أما ماذكرت من أن أمم الاسلام أخذت تسير على نهج واحد فمن عجائب الحكم الالهية ولله الحمد

إن علماء الاسلام فرقتهم قديماً فتنة السياسة وظلم الملوك والتعصب الاعمى والحرص على مقاليد الممالك وجمعهم اليوم العلم وهذا الاجتماع لا انفصام له بعد ذلك لأن أسبابه ذهبت مع أمس الدابر ولن تعود، والعلم اليوم هو الذى جمع المسلمين

والحق أنى وأنا أكتب فى أول جزء من (الجواهر فى تفسير القرآن) حين قلت فى خطبة الكتاب ما ملخصه ياعلماء الشيعة وياعلماء أهل السنة وياعلماء بقية الفرق الاسلامية اقرءوا علوم هذه الدنيا فان القرآن يوجبها وهى أوسع بما لايتناهى من

الفقه الذى انحصرت الأفكار فيه وستجدون أن ما اختلفتم فيه زهيد جداً بجانب ما اتفقتم عليه وهو جميع العلوم السموية والأرض أقول ما كان ليخطر لى أن المسلمين أكثر الأمم مسارعة إلى الحقائق والاتحاد والمحبة وها هى ذه رسائلهم ترد لى فى كل حين وقد اتفق أن ورد لى فى هذا الشهر شهر رمضان المعظم سنة ١٣٥١ بتاريخ ١١ شعبان من هذه السنة

خطاب من الأئمة المجتهدين بالأمة العظيمة الفارسية اخواننا فى الدين وسيأتى نصه والرد عليه قريباً وبه استبان كيف نسخ نور العلم فى بضع سنين بالاتحاد ظلام السياسة فى بضع قرون بالتفريق يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون

﴿ ايضاح ما كان مجملا فى هذا الكتاب لأفصل الكلام على كتاب القراءة الملكية ﴾

اجابة لطلبك أيها الأخ وليقف الاخوان على ما أقض مضجعى فى زمن الشباب من حرمان أطفال المسلمين من الجمال والبهجة والحب لعجائب الأرض والسماء فأقول .

إن الـكتاب فيه هـذه الفصول وهى (١) العنكبوت (٢) الطفل والطير (شعر) (٣) الأرنب (٤) عنزان (٥) المبادرة فى الاستيقاظ بعد الفجر (٦) النحل (٧) النحل شعر (٨) الأوز المسمى (سوان) (٩) قول الصدق (١٠) الأمثال (١١) شعر يخاطب به الأطفال طائراً (١٢) الذئب (١٣) صدى الصوت (١٤) عم صباحاً عم مساء (١٥) قصة الببغاء (١٦) الهرة وعصفور الـكنارى (١٧) الزنبور والنحل (١٨) الحصان (١٩) الـكلب والمصباح (٢٠) الصدق شعر (٢١) معلومات نافعة تختص بالحيوان الغنم والبقر والخيل وحيوانات أخرى (٢٢) الجمل (٢٣) حكاية عن الـكاب (٢٤) النصيحة الذهبية. (٢٥) الحمار شعر (٢٦) النعجة وحملها الصغير (٢٧) الدب الأسمر (٢٨) الأسد والفأر (٢٩) الحمل أيضا (٣٠) المحافظة مع الجد فى العمل (٣١) الغراب والابريق هذه ٣١ موضوعاً فى نحو ٦٣ صفحة من ١٤٢ صفحة منه وهى تدل على بقية مافى الـكتاب

الفصل الثانى

فيما جاء فيه من الكلام على العنكبوت

جابة لسؤالك أيها الأخ وليكون نموذجاً لما يدرسه القوم فى بلادهم وأنا أكتب هذا الآن وكأنى أشاهد شبان المسلمين يسارعون إلى جمع ما كتبه الألمان والفرنسيون والانجليز وغيرهم لتعليم أبنائهم ويصطفون منه ما يوافق مشارب الأمم الاسلامية ويؤلفون كتباً صغيرة وينشرون التعليم حالا بين صبيان جميع المسلمين فان الوقت أزف أنا أقول كأنى أشاهد هذا وهو كالمحقق عندى فلأتممهم هذا الفصل كما وعدت فأقول :

قد جاء فى هذا الكتاب تحت العنوان الآتى ما نصه : —

العنكبوت

هل رأيت العنكبوت فى هذه الصورة — إنها قد أحكمت صنع نسجها وجلست فى مركز دائرته مستعدة أن تقتنص الذبابه .

(شكل ١)

العنكبوت تحب العمل إنها

تبتدىء فى العمل من حين ولادتها كل عنكبوت تولد نساجه .·.
حتى صغارها تعلم كيف تنسج كما تعرف كبارها .

العنكبوت قط لم تتعلم فى مدرسة لتتعلم فيها مايجب عليها .·.
وهكذا صغار البط تسارع إلى العوم عقب خروجها من بيضها
والطيور الصغيره تبنى أعشاشها والنحل تصنع خلايا عسلها
المسدسات من غير تعليم

ن الله هو الذى أعطى هذه المخلوقات قدرة على أن تعمل
ماهى فى حاجة اليه وهذا هو السبب فى أنها لاتخطىء فى أعمالها

لن يضارع أى نساج وأى غزال فى الدنيا العنكبوت فى
نسجها وفى غزلها . العنكبوت لاتستعجل فى عملها

وأنها لشديدة العناية بخيطها أن تحكم تثبيته ، وحينئذ ترى
مغتبطة ومعجبة لما أحسنت من صنعها

ليست كل العنا كب مكبات على عمل واحد كلا وهى وإن
اختلفت فى صناعاتها فد اتحدت فى أمر واحد ألا وهو اتقان
الأعمال .

ن بعض العنا كب تبنى لها بيوتاً بمقدار (الكشتبان
الكبير) وتضع لها أبواباً وتقفلها بعد دخولها فيها حتى قيل أنها



تحكم اغلاقها من الداخل احتراساً
من لص يدخل عليها

وعنكبوت الحدائق ينظر
خيطه فى الهواء ولا تزال الرياح
تحركه حتى يعلق بنبات أو غصن
شجره

وحينئذ تمر عليه كما يمر الناس

(شكل ٢)

على القناطر فتعبر العنكبوت عليه من مكان إلى مكان

ومما حكى من العجائب عن ذكاء عنكبوت نجت من الخطر بمثل هذا العمل ما يأتى

كانت عنكبوت يوما جاثمة فوق طرف عصا ترتفع عن سطح الماء نحو قدم أو قدمين وكانت هذه العصا فى جزيرة صغيرة جدا فى وسط بحر صغير فماذا تصنع تلك العنكبوت لتنجو من الخطر؟ نزلت من أعلى العصا إلى أسفلها عند سطح الماء ثم أخذت تدور حولها فلم تجد لها وسيلة للخروج من هذا المأزق ولا سبيلا

للخلاص هنالك كرت راجعة إلى قمة العصا وجثمت هناك قليلا وكأنها تقول فى نفسها حسن أنا الآن فى حرز حصين ثابت ولكن ما العمل ثم أنها شحذت بصيرتها وأعملت فكرتها وأخذت تنشر فى الهواء من غزلها خيطا طويلا وثبتت طرفه من جهتها فى قمة العصا وتركته فى مهب الريح حتى اتصل بغصن من شجرة على الشاطىء فأخذت العنكبوت تمر عليه وهى بمنجاة من الخطر حتى نزلت إلى اليابسة سالمة. فلما سمع صاحبي العلامة ذلك قال جميل أن يكتب هذا فى الكتاب وجميل جداً أن يقال أن الاوروبيين يعلمون صغارهم أن لهم إلهاً . وجميل جداً أن تكون هذه القطعة وصلت ما بين عقل الأطفال فى تفكيرهم كيف ينجون من الخطر وبين تفكير الحيوان. وكيف تكون الدقة فى العمل عند الحيوان. وكيف يكون الصبر. ثم قال رباه بك أستغيث حرم كثير من صغار المسلمين جمال العلوم وحرم بعضهم من معرفتك بالطرق الجميلة . ثم قص صاحبي على ما يأتى قال مما يحزننى ويؤلمنى ما أنذكره أننى يوماً كنت مع إخواننا فى وزارة المعارف وأنا أتحدث معهم فجاء ذكر الله واليوم الآخر فقال أحد المفتشين الذين كانوا تعلموا

فى بلاد الانجليز كيف تتحدثون بهذه الخرافات. قال فرددت عليه قائلا أليست كل الأمم تقرأ خرافات وروايات شكسبير وإن هى إلا قصص ما أنزل الله بها من سلطان وهم يقرأونها للحكم التى فيها والمواعظ التى بها ينتفعون فهمهم ولم ينبث ببنت شفة ، فأنا الآن متعجب كيف يكون هذا نموذج التعليم للاطفال هناك وهذا ذهب ورجع ولا يدرى هذه التعاليم

فقلت هون عليك يا صاح إن هذا تعلم الالحاد فى مدارس المبشرين مثلا ثم ذهب إلى انكلترا وهو كبير السن ثم رجع وهو يجهل كيف يعلم الاطفال وان كان مرسلا لنفس ذلك العمل فقال لعل ذلك هو الذى كان ، ثم طلب منى أن أترجم القطعه التى بعدها قائلا أريد أن أعرف كيف يخاطب الأطفال الطيور بأبيات الشعر أن هذا ربما كان عجيباً وربما لا أسألك بعد ذلك من هذا شيئاً فقلت القطعة الثانية

الفتاة والطائر :

أيها الطائر الصغير أيها الطائر الصغير هلم الى هلم الى ان عندى لقفصا أعددته لراحتك وإسعادك تأوى إليه وقد قطفت

الازهار الباسمة وأعددتها نزلا لضيافتك وبهجة انفسك وأنساً وجمالا وجنيت ثمر (الكريز) اليانع المبلل بالندى فتأكله هنيئاً مريئاً .

الطائر : حمداً لك وشكراً أيتها الفتاة الطاهرة على حسن عنايتك بى وحبك لاسعادى

ولكن غريزتى التى فطرت عليها وسجيتى التى أنتهج خطتها لاتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير. إنها لتستعذب العذاب متى كان سبيلا للحرية . ومن ذا الذى يستبدل السجن بفسيح الهواء الطلق النقى وإن اشتدت برودته واستبدت قسوته .

إن عشى الصغير الذى نسقته لآوى إليه فى شجرة البلوط العتيقة أحب إلى من القفص وإن كان مذهباً

الفتاة : أيها الطائر الصغير أيها الطائر الصغير الى أين تذهب هاهوذا الشتاء أقبل واشتد البرد وعظم الخطب وجلل الثلج الحقول بقطعه المتراكمة فحجبت عنك النبات وأزهاره الباسمة ، ولم يكفه ذلك حتى أحاط بأشجار البلوط العتيقة فغابت عن العيون

أيها الطائر الصغير أيها الطائر الصغير أقبل نصيحتى وتعال الى

الطائر : لا لا أيتها الفتاة العزيزة هاناذه طائرة فى الهواء مهاجرة إلى حقول أبهج خضرة وسماء أوفق دفأ

إن الهجرة عند ضيق العيش سمة الأحرار والرضى بالدون سمة الأشرار

فاذا أقبل فصل الربيع الباسم وكسا قطره الأرض بالحلل السندسية والأزهار العطرية فهناك أعيد إلى مسامعك حلو الترنمات وبهجة النغمات

الفتاة : أيها الطائر الصغير أيها الطائر الصغير

من ذا الذى يتولى هداك إذا ضللت سبلك وأنت تخترق الجو فوق التلال وفى جو البحار أيتها المغرورة هلمى إلى فاذا لم تقبلى النصح فلتعلمى أنك ستضلين السبيل وتهوين مع الهالكين

الطائر : لا يا عزيزتى الصغيرة الله هو الذى يتولى هدايتى فوق المفاوز والتلال وفى مخارق الجو فوق الجبال والبحار فطرنى على الحرية فنعمت بها مطاقة السراح كنسيم الصباح لأغازل آنسات الأشعة الذهبية وقد سقتنى حميا حبها عيناى بالراح

فلما سمع ذلك صاحبى قال .

أن هذا المقال تذكرة وجمال فأرجو أن تتبعه بفائدة أخرى من ذلك الكتاب لتكون ذكرى للذاكرين وعبرة للمعلمين ليفتحوا للأطفال كنوز العلم المخزونة فى الطبيعة فقلت هاك بعض ما جاء فى ذلك الكتاب تحت عنوان (معلومات نافعة) فى صفحة ٩٢ وما بعدها فقد جاء فيه على سبيل السؤال والجواب ما نصه

س . إلى كم فصل تقسم السنة ؟

ج . إلى أربعة فصول الربيع والصيف والخريف والشتاء

س . أى الفصول أشد برداً ج . الشتاء

س . هل الشتاء يكون فى الكرة الأرضية كلها فى آن واحد

ج . كلا فان الشتاء إذا كان فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية فان الصيف يكون فى النصف الجنوبى منها وإذا كان الصيف فى النصف الشمالى من الكرة فان الشتاء يكون فى النصف الجنوبى منها انظر (جغرافية نياسن) وأطلسه صفحة ٨

س . متى يكون الشتاء فى أى نصف من نصفى الكرة الأرضية

ج . يكون الشتاء فى أى نصف من النصفين حينما تكون أضواء الشمس أبعد عن أن تكون عمودية على سطح الأرض

س : ما مقدار آثار ذلك على طول الأيام ؟

ج : إن أقصر الأيام وأطول الليالى إنما تكون فى فصل الشتاء

س : ماهيئة الجو وحاله فى زمان فصل الشتاء

ج : إن الجو فى الشتاء يكون شديد البرودة فيه صقيع وثلج

س : ماهو الثلج

ج : ماء يتجمد أثناء نزوله من السحاب

س : ماذا يسمى الماء الذى جمدت قطراته فصارت أشبه فى شكلها بالكرات

ج : يسمى بالبرد

س : مامنفعة الثلج

ج : منفعته أنه غطاء للأرض به تنجو البذور المبثوثة فيها من العطب ويرتفع الضرر عن صغير النبات الحديث فلا يهلكه الصقيع

س : مافائدة الصقيع على وجه الأرض

ج : إن الصقيع يقتل كثيراً من الحشرات التى تضر النبات ويفتت الكتل الصغيرة فى الأرض حتى تصلح لأن تتغذي بها البذور فتنمو نباتاً

وجهت أسئلة وأجوبة فى أمر الثلج وكيف يلعب به الأطفال وينزلقون عليه ويسيرون بالقباقيب على سطحه ويبنون منه بيوتا صغيرة ويلعبون بكرات منه كل ذلك مناسب لبلادهم ضربنا عنه صفحا

س: إلى أين تهاجر الطيور فى الشتاء

ج: كثير منها تهاجر إلى الأقطار الحارة مثل الخطاف والبلبل

س: وما تفعل تلك الطيور الباقية التى لا تهاجر

ج: إنها دائما تكون قريبا من منازلنا مستأنسة بنا

وهناك أسئلة أخرى تخص بلادهم وبعدها هذا السؤال

س: من أين يأتى الفحم الذى نوقد النار فيه

ج: إنه يستخرج من باطن الأرض البعيدة الغور

س: كيف تكون حال الأيام بعد أول فصل الشتاء

ج: تكون أطول شيئا فشيئا

س: أى فصل يتبع الشتاء

ج: فصل الربيع سمى بذلك لمبدأ ظهور النبات فيه وازدهاره ونموه

س: أى تغير يكون فى نظام الطبيعة

ج : أن يخضر النبات والأزهار يبدو جمالها والبراعيم تنمو على الزرع والشجر

س: ماذا يصنع الفلاح فى شهر الربيع

ج: يحرث الأرض ويبذر البذور ثم يصلحها بآلة تفتت الحصى الذى أثاره المحراث وتغطى البذر ليستعد أن يكون نباتا

س : كيف يكون نبات البر فى أول أمره

ج : يكون أخضر كهيئة اخضرار الحشائش

س: ما الذى يساعده على النمو

ج : المطروضوء الشمس

وجهت أسئلة تختص بالطيور فى بلاد الانجليز وبلاد أمريكا

س : ماذا تكون حال الأيام من حيث طولها وقصرها فى أول يوم فى فصل الربيع

ج: إن الليل يكون فى مقداره كالنهار والشمس تشرق الساعة السادسة صباحا وتغرب فى نهاية الساعة السادسة مساء

س : أى فصل يلى فصل الربيع

ج : الصيف وهو أشد فصول السنة حرارة

س : ماذا يحصل فى الحقول من الأعمال فى فصل الصيف

ج : وهنا أجاب بما يناسب بلاد الانجليز من صنع الدريس الذى هو عبارة عن حشائش مقطوعة تنشر فى الشمس ليتسنى بها اطعام الخيل والبقر لاسيما فى فصل الشتاء

س: ماذا يكون نبات القمح فى فصل الصيف

ج : انه يكون قد تم نماؤه وقد أصبح مصفرا لأن حرارة الشمس قد أكملت نضجه

وههنا أخذ يسأل عن أحوال تخص الغنم فى فصل الصيف وعن الطير وان صغارها تتعلم كيف تطير وكيف تغنى على الأشجار وان الخطاف يرجع إلى بلادهم وقت الصيف وههنا بيان أن الحقول والغابات فى الصيف تكون سارة لأن الأزهار تكون جميلة بهجة والهواء يكون بهجا لطيفا والأشجار بمالها من الفىء تمنع عنا حر الشمس وبيان أن أطول أيام السنة فى هذا الفصل ثم تكون الأيام بعد ذلك أقصر فاقصر إلى أن يأتى فصل الخريف

وههنا تبيان أن فصل الخريف فيه يحصد الناس كل مازرعوا وينالوا نتائج أرضهم وثمار غرسهم

كان يحصدوا القمح ويذروه وههنا أخذ يبين جميع الأعمال التى فيها يصير القمح خبزا يصلح لتعاطى الناس له ويذكر الثمار

التى يجمعونها من أشجارهم ولـكن كل ذلك بالنسبة لبلادهم أما فى بلادنا فان درس القمح يكون فى فصل الربيع لا فى فصل الخريف

ثم أخذ يبين طول اليوم فأفاد أن اليوم الأول فى فصل الخريف يكون مساويا الليل كل منهما ١٢ ساعة كما مر فى فصل الربيع ولـكن الأيام التى تلى ذلك اليوم الذى تساوى الليل والنهار فيه تكون أقصر فاقصر بعكس ما تقدم فى فصل الربيع فانه هناك يكون أطول فأطول . والليالى هنا تـكون أطول فأطول بعكس ما تقدم فى فصل الربيع إذ تكون الليالى أقصر فاقصر وبعد فصل الخريف يكون فصل الشتاء اهـ

فلما سمع صاحبى ذلك قال ما أحسن هذا البيان إذن يجب على المعلمين من أمم الاسلام أن يبيّنوا الفصول ومزارعها باعتبار ماعندهم لأنه تبين من هذا المقال أن فصول مزارعهم مختلفات عن فصول مزارعنا نحن فقلت لولا خوف التطويل لذكرت الثمار والفواكه ومحصول أرض مصر شهرا فشهرا ولـكن أكتفى الآن بما ذكرته فى كتاب الجواهر فى تفسير القرآن فانه واضح هنالك كل الايضاح فى المجلد الثامن عشر فى السور التى بعد سورة (يس) فقال إنى لمتعجب كل العجب من هـذ

المقال فقلت مم تعجب فيه فقال إن المؤلف يذكر منافع الثلج ومنافع الصقيع فيقول إن الأول يغطى الأرض فتحفظ به البذور وصغار النبات فيها والثانى يقتل الحشرات التى تضر النبات ويفتت الكتل الصغيرة فى الأرض حتى تصلح لامتصاص البذور فتنبت وتنمو

فهل ذكروا ذلك فى كتبهم عرضاً غير قاصدين نظام الطبيعة وهل عند القوم تعاليم دينية تجعلهم يفكرون فى جمال نظام الطبيعة

أنى لما أطلعت على كتبك لا سيما الجواهر فى تفسير القرآن رأيتها كلها تحوم حول هـذه الفكرة وهى النظام العام وحكمة الخليقة وإن كل شىء لم يخلق إلا لحكمة فكنت أظن أن هذا شىء يضاد آراء الفرنجة. فقلت ياصاح أن هذا الخاطر ورد عليك بسبب الاساتذة الشرقيين المتعلمين تعليما ناقصاً فان كثيراً منهم يعلنون ألا دين ولا إله .

فهذا يدلنا أن القوم مادرسوا علوم الاوربيين إلا عرضا . إنما كتب الأطفال فيما تقدم ونقلته لك هو أمر ممتزج بتعاليمهم وبه أمر عظماؤهم وهاك ما كتبه (كانت) الألمانى الذى تدين له

المسمى (كانت فى فن البيدجوجيا)

يقول فى صفحة ١٠٩ وما بعدها فى ذلك الكتاب ماملخصه

إن التعاليم الدينية للأطفال يجب ألا تتجه إلى الغوص فى دقائق الأدلة والمباحث العقلية فى أمر الالوهية وكيف يتسنى لطفل لم يعرف نظام الطبيعة ولا نظام جسمه أن يفكر فى أمر الالوهية

فيجب على الاساتذة أن يدرسوا لهم نظام ترتيب الطبيعة وجمالها أولا ويوسعوا معارفهم بنظام العالم ثم بعد ذلك ينقلونهم إلى معرفة الله تعالى إلى آخره

فلما سمع صاحبى ذلك قال إن هذا القول إن هو إلا إجمال فأريد الافصاح والتبيين فقلت إنى أقسم كلامه فى كتاب التربية على الدين إلى خمسة مطالب (١) فى تعليم الدين لو فرض أن الناس ماسمعوا باسم الله عزوجل (٢) وفى الحال الحاضرة فى النوع الانسانى من حيث أن الناس يسمعون اسم الله ويشاهدون من يعبدونه (٣) وفى حقيقة الدين وفى أن الانسان خليفة الله فى الأرض وأن الانسان بصيرة على نفسه (٤) وفى ظواهر العبادات التى لاصلة لها بالبصيرة الإنسانية (٥) وفى معرفة الله تعالى بطريق الدين وانه

كل ألمانيا وجميع أوروبا وأمريكا بسبب تعاليمه فقد جاء فى كتابه يجب الاختصار فيها بخلاف المعرفة العلمية

المطلب الأول

يقول فى صفحة ١٠٩ من كتابه فى التربية

إذا نظرنا إلى تعليم الطفل الدين فهذه مسألة قد كتب فيها العلماء كثيراً. لقد جرت عادة علماء الدين أن يوجهوا عناية الأطفال إلى تعليم علم التوحيد والبحث فى الله وهذا عجب عجاب كيف يتسنى لطفل يجهل العالم الذى يعيش فيه وهو بجسمه وبروحه أشد جهلا وغباوة) أن يعرف ربه

أهذا الصبى الذى (لا يعلم شيأ فضلا عما يجب عليه هو فى نفسه)يزج به فى تيهاء المعارف الالهية

نعم لو كان الطفل لم يسمع شيأ ما عن ربه ولم يشاهد من يعبده ويعظمه لكان من الواجب فى تعليمه أن يلقن (١) نظام هذه العوالم (٢) وجمالها (٣) والمقاصد التى خلقت لها الخلائق الأرضية والسموية (٤) وان هذه كلها موجهات لسعادة هذا الأنسان وذلك ليتمكن التلميذ أثناء تلك الدراسة من أن يحكم هو بعقله المجرد بدون مؤثر خارجى (٥) ثم يدرس نظام هذه الدنيا كلها

قال وحينئذ يقال له أفهمت هذه العوالم وعلومها ونظامها وحينئذ يقال له هذا كله فعل الله صاحب السلطان والعظمة اه

المطلب الثانى

يقول ولكن النوع الانسانى فى هذه الدنيا يجرى على نمط غير هذا . أن الطفل يسمع بذكر الله فيرى الناس يعظمونه فههنا طريقتان اثنتان الأولى أننا لا نكترث بتعليمه شيأ ما عن خالق العالم محتجين بأنه طفل لا يعقل ذلك كما فى المبحث الأول وإما أن يتلقى أموراً كأن يعلم الفزع والهلع من القوة الالهية تضر به ولا يفتح له باب العلم والحكمة فاذا ترك الطفل على هذه الحال وكبر فانه لا يعرف من ربه إلا الارهاب والتخويف والتعذيب إذن يجب أن نعلم الطفل بعض صفات الربوبية بطريق مشوقة اجمالا كأن يمثل له الأستاذ هذه الدنيا بدار والله هو رب تلك الدار وجميع الناس أشبه بالأبناء. هنالك يحس التلميذ بأمرين عناية الله بالعالم وأن الناس اخوته. إذن التعليم يجب أن يوجه إلى الأمور الطبيعية فأما مجرد الأقوال المحفوظة بالتقليد فانها لا تفيد فأما الأوامر والنواهى والفضائل المرغوبة والرذائل المنبودة فهى تعاليم دينية أدبية وهى غير معرفة الله التى كلامنا فيها الآن . وبالاجمال

يجب أن يعرف الأطفال ربهم بضرب الأمثال كما تقدم. فاذا كبروا وجب أن يدرسوا نظام هذه الدنيا بالعلوم المعروفة ثم يعلمون أن هذه القوانين والعجائب تدار بالصانع الحكيم بهذا تم المطلب الثانى

المطلب الثالث

يقول ليس المدار على ظواهر الدين إنما المعول عليه ضمائرنا إن لكل امرىء فى هذه الدنيا نورا فى قلبه منبعثا من الحضرة الالهية (بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) وهو خليفة الله. الله الآمر الناهى وهو الذى جعل لنا ضمائر فى نفوسنا بها صرنا خلفاء.

إن الانسان إذا لم يستضىء بنور بصيرته فأظلمت فان الدين عنده يصبح حيلة بها يحتال لطلب الرزق. إن الصلاة وجميع الادعية الدينية يجب أن تكون موجهة نفوس المصلين إلى الترقى والتقدم والفلاح والى تقوية نفوسهم فى أعمالهم وازدياد شجاعتها فى فعل الخيرات وبالاقل حثها على تأدية الواجبات المفروضة عليها هذا هو القصد الحقيقى من تلك الصلوات. ان الطريق الحقيقى الموصل لله انما هو أن نكون رجالا كاملين. واذا علمنا الطفل دينه وجب علينا أن نفهمه أن فى نفسه واعظا آمرا ناهيا هى بصيرته ونقول له نعم ان الله أمرنا ونهانا فوجب علينا طاعته ولكن الرجل

الصالح الممدوح والطالح المذموم رفعتهما وضعتهما صفتان لهما طبيعيتان من انفسهما. وكل ماجاء به الدين راجع لصفات نفوسنا حقارة وشرفا . فالفاسق فى نفسه وضيع والصالح فى نفسه شريف كلاهما يحس بما انصف به ذلا وعزا وخسة وشرفا. لا سعادة فى الحياة بغير شرف ولا شقاء إلا بسفاسف الأمور . إذن الفاسق ضميره يزجره والصالح مرتاح الضمير إذن العذاب والنعيم يبتدئان فى هذه الحياة ويجب أن يفهم التلميذ أن عذاب الفاسق ونعيم الصالح أمران حقيقيان لأنهما يجريان على نواميس صادقة

هذه هى التعاليم التى يجب أن يتلقاها الأطفال فى أول حياتهم وليس من الحق فى شىء أن يزج بهم فى غمار علم التوحيد والبراهين والجدل والخلاف إلا بعد أن تنضج عقولهم وليس يفيد علم التوحيد شيئاً من تربية الوجدان

إن بصائرنا (إذا لم نحس فى نفوسنا بأنها نور من الله وأنه جعلها فينا لوعظنا وإرشادنا وأنها خليقة فى هـذه الأجسام) لايكون لها أثر البتة فى ارتقائنا وإسعادنا وتهذيبنا . إن الله عز وجل هو الذى يتجلى علينا فى كل وقت وهو نفسه الذى قذف فى قلوبنا أن يكون لها الحكم علينا فنساء لفعل الشر ونسر لفعل الخير

إن الدين بغير الوجدان والبصيرة لا أثر له البتة ، إن الدين بغير البصيرة أشبه شيء بلغو الحديث

إن من الناس من يعبدون الله ويعظمونه قوة وحكمة وهم لا يفكرون فى أوامره التى أمر بها ولا فى ضمائرهم التى جعلها هو خليفة له عليهم بل لا يعرفون شيئاً عن قدرته وعلمه اللذين لا يدركان إلا بدراسة نظام هذه الدنيا

المطلب الرابع

فى ظواهر العبادات

يقول أن هؤلاء الذين يصلون وقلوبهم غافلة تكون تلك الصلاة أشبه بمخدرات لبصائرهم أو كأنها مهاد ينامون عليها نوماً عميقاً وهم هادئون . ليكن أكثر تعليم الأطفال أن يكفوا عن الشر فان التخلية مقدمة على التحلية

إن التلاوة البليدة للأقوال الدينية لا تنتج إلا أن يفهم الناس التقوى والصلاح معكوسين ، إن الطريق القويم لأعظام جلال الله أن نفعل فعلا يرضاه وهذا هو الذى يجب أن نعلمه لأطفالنا . ونأمرهم بفعله وهاهنا أخذ يلوم أولئك الذين يذكرون اسم الله

فى الامور الاعتيادية كالتهنئة لبعض الاصحاب أو نحو ذلك وقال أن هذا سوء استعمال لذلك الاسم المقدس

إن جلال الله يجب أن يملأ القلوب فى كل زمان ومكان متى سمع إسمه و يجب أن لا يذكر إلا نادراً (كذا) ويكون مصحوباً بالعظمة .

يجب أن يعلم الطفل كيف يشعر بعظمة الله من حيث أنه معطى الحياة وخالق الدنيا كلها وفوق ذلك أنه هو القائم على نفوس الناس الحافظ لهم وأخيراً هو الحكم العدل

لقد علمنا فى التاريخ أن الفيلسوف نيوتن لم يكن ليذكر اسم الله إلا بعد أن يتوقف فترة حتى يتروى فى ذلك

ليوضح للاطفال تلك العناية العالية من الله الى كل حيوان صغير وكبير وليغرس فى نفوسهم العطف والرأفة بتلك المخلوقات الضعيفة فلا يعذبونها وليبين لهم أن فيما يظهر لنا (بادىء الرأى أنه شر) خيراً كثيراً فهذه الطيور الآكلات للحشرات والدود كابى قردان خلقت لتنظيف الأرض مما يضر الزرع فيعيش عليها الحيوان والانسان وجعلت نموذجاً للنشاط وعمل الخيرات

ويستنتجون من ذلك أن الله عز وجل لايبقى الا الأصلح للوجود فرجال السوء هالكون لامحالة كتلك الحشرات المأكولات .

المطلب الخامس
فى تعليم الدين للأطفال

يقول فى صفحة ١١٥ أن من مزايا تعليم الاطفال الدين وصفات الربوبية أنهم إذا رأوا أناساً يصلون أو يذكرون الله فإنهم إذ ذاك لايتساءلون فلا يقولون ماذا يفعلون ولمن يصلون إنما يجب أن تكون المعلومات الدينية عن الله مختصره وإلى التخلية والنفى أقرب منها إلى التحلية والإثبات أى أن تكون صفات التنزيه هى الغالبة (يريد بذلك أن يكون بالتفكر فى مصنوعات الله لا فى ذاته)

وعلى المعلمين أن يبنوا فى أذهان الأطفال ألا يحتقروا أحدا لاعتناقه ديناً يخالف دينهم الذى نشأوا عليه ، إن الاديان مبنونة فى كل مكان فى الأرض اهـ ما ترجمته من كلام كانت الالمانى من صفحة ١٠٩ ــ ١١٥

فقال صاحبي ما ترى فى مقاله فقلت :

أما قوله أن تعليم معرفة الله لايتم إلا بقراءة نظام هذه الدنيا والإلمام بجميع العلوم فهذا هو الذى نشرت لأجله الـكتب فى بلاد الاسلام ، وأما قوله أن الصلاة والدعوات التى لايصحبها حضور قلوب المصلين والداعين تنيم بصائرهم فهذا موافق لقوله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) ، وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر والقلوب عن معانيها غافلة ، فهذا أيضاً حق والذى أوضح لى ذلك فى شبابى إنما هو الإمام الغزالى فى الإحيا وهو يشبهه فى هذا المقال

فإما أن الانسان لايذكر الله إلا قليلا إعظاماً له فهذا يجرى على ما درجت عليه الصابئه قديماً وأوضحناه فى التفسير فقد كانوا لشدة إعظامهم لله لايذكرون إسمه بل فوق ذلك يعبدون الكواكب إعظاما لمقامه أن يذكر على ألسنتهم فهم فى هذا أشبه بمتأخرى المسلمين فى أعظام دين الله أن يدخل فيه علم الطبيعة الذى هو كفر وكلاهما واقع فى الإفراط والتفريط افراط فى الاعظام وتفريط فى الواجبات فليذكر الناس ربهم بالاعظام كثيراً لا نادراً (واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)

وليدرسوا نظام الطبيعة فهو الذى به يعرف الناس ربهم بل بجهل الطبيعة لا نعرف جمال صانع العالم. واحتراس كانت ونيوتن من ذكر الله إلا نادراً ناشىء مما تأثر به أسلافهم الصابئون عبّاد الكواكب قبل دخول الدين المسيحى عندهم هذا أصل السر فى ذلك المقال :

فقال صاحبى عجباً عجباً وأخذ يضرب كفا على كف فقلت مالك يرحمك الله فقال

نحن فى بلاد الشرق كاليتامى لا كافل يكفلنا ولا قريب يلحظنا إنا لله وانا إليه راجعون فقلت له مالك يرحمك الله فقال لقد تولى أمرنا ثلاث طوائف من المسيطرين على عقولنا رجال الدين وشيوخ الصوفية والمتعلمون فى مدارس الشرق والغرب الناشئون فى بلاد الاسلام .

أما رجال الدين وهم القائمون بأمر الشريعة فان بعضهم إلى الآن لا يزالون يبرئون من معرفة هذه العوالم من سموات وأرضين جهلا منهم وغروراً ولكن هؤلاء أخذوا يقلون فى هذا الزمان وأما رجال الصوفية فان أكثرهم يكتفون بالأوراد والأذكار

وتقليد شيوخهم ويغمضون أعينهم عما حولهم من عجائب الأرض والسماء وهؤلاء غافلون ومنهم قوم كاملون نافعون وقد أخذوا يكثرون فى هذا الزمان ومنهم من لهم قدم صدق فى نفع الأمم الاسلامية والحمد لله .

وأما المصيبة العظمى والداهية الكبرى فهم أولئك المتعلمون تعليما ناقصاً فى ديار أوروبا أو فى الشرق فهؤلاء يظهرون أنهم أبرع من الأنبياء وان الديانات خرافات فهؤلاء شر على الشرق من القسمين السابقين .

يسندون كلامهم إلى فلاسفة أوربا ويجهلون أراء أمثال نيوتن وأمثال كانت الذى اسمعتنى مانقلته عنه. أن دراسة كل العلوم وكل العوالم هى الموصلة لمعرفة جمال الله وإن صغار علماء الدين والجهال من شيوخ الصوفية يزهدوننا فى العلوم والمتعلمين نصف تعليم عصرى يزهدوننا فى الدين .

ومن عجيب أنى سمعت كثيراً من أهل العلم حينما كانوا يسمعون أنك توضح أمر الحشرات وأمر الطيور وعجائب الطبيعة فى كتبك لا سيما فى تفسير الجواهر يسخرون ويقولون

ماهى الحشرات وما هى الطبيعة. أهذا دين. فها أنا ذا قرت عينى حينما سمعت كلام كانت فلم أتحسر على بلاد الاسلام ولا على المسلمين لأن ما تكتبه وما يكتبه الكاتبون فى زماننا سيكون له أثر فى بلاد الاسلام إن شاء الله تعالى فقلت الحمد لله رب العالمين.

ثم سكت قليلا وقال لقد ظهر الحق واستبان السبيل كنا نظن هنا فى الشرق إن أمثال ما نقلته أنت من كتاب القراءة الملكية اليوم من إظهار حكمة الثلج ومنافعه للبذر والنبات وحكمة ابادة الصقيع للحشرات وهكذا. رمية من غير رام. وما كنا نظن أن ذلك مبنى على تعاليم حكمائهم وانهم بهذا يستشعرون عظمة ربهم وهم لايزالون أطفالا حتى تبين اليوم فى كلام كانت الألمانى الذى نقلت عنه هذا المقال فبهذا علمنا أن القوم لهم تعاليم مبنية على وصايا حكمائهم وفلاسفتهم ومن ذا الذى كان يظن أن هـذه العجائب تدرس لمعرفة الله فى أوروبا التى يشيع عنها أنصاف المتعلمين الشرقيين انه لا إله ولا دين هناك وإن الرقىّ تابع لانـكار الله والأنبياء.

يجب أن يستيقظ الشرقيون وليحترسوا من كل متعلم تعليما ناقصاً من الشرقيين

﴿ معجزات القرآن فى العلم ومقال كانت الألمانى ﴾

ان محصل ماقاله كانت ونقلنا ملخصه هنا يرجع إلى تفسير آيتين من القرآن وحديث سيأتى ذكرها

فهاهو ذا كانت يقول فيما تقدم انلدينا ثلاثة أحوال للنفوس الانسانية ، حالان غريزيتان وحال صناعية ، أما الحالان الغريزيتان فهما أولا البصيرة التى كمنت فى كل امرئ فهى تأمره وتنهاه وهى نور من الله فهذه إذا أغفلها الانسان فقد شقى شقاء لاحد له وهى ترجع إلى المعاملة والأخلاق

ثانياً البصيرة التى تظهر للخاصة الذين نظروا فى نظام الدنيا وجمالها فهؤلاء وحدهم هم الذين يعرفون موجدهذا العالم إذن العامة تكفيهم البصيرة التى غرسها الله فيهم من نوره والخاصة عندهم هذه وقد اتصلوا بموجد هذا العالم لأنهم درسوا نظامه

فأما الحال الصناعية فهى أكثر الديانات فى الأرض فهذه انما هى طقوس وزخارف وخرافات يقول فاذا لم يصحب هذه الظواهر تانك الغريزتان أو أولاهما على الأقل فان الانسان إذ ذاك يعيش فى جو من الخرافات والأباطيل ولا جرم ان هو هذا قوله

تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله — وهذه هى الغريزة الأولى — ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لأن طقوس ديانات أكثر أهل الأرض تغطى هذه البصيرة

ولما كان الانسان قد يعتذر بظواهر الديانات والخرافات أوضحه فى آية أخرى فقال (بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) وهـذه المعاذير هى ظواهر الديانات والطقوس وزخارف رؤساء الدين وظواهر الفتاوى ، وهذا كله يوضحه حديث كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، وملخص هذا كله قوله تعالى فى القرآن (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) وهذا حق لأن كانت الذى يقول هذه الحقائق قد استمدها من النور الالهى وهو لا يعلم أن هذه المعانى فى القرآن ، فاذا ساءك أيها الأخ بعض المتعلمين تعليما عصريا فاعلم أنهم لم يدرسوا من علم حكماء أوروبا إلا ذم الخرافات والطقوس فى الديانات فظنوا أن كل دين مذموم فقالوا ان الاسلام أيضاً خرافات فنشروا الفكرة وهم لا يعلمون ونسوا أن القوم

لا يقفون عند ظواهر خرافات دياناتهم بل هاهم أولاء يقولون لنا بصائر ترشدنا إلى فعل الخير مستمدةمن ربنا ولناعقول تدرس نظام الطبيعة وجمالها فتعرف ربها فنحن ان كذبت دياناتنا فلتصدق عواطفنا ولتصدق عقولنا ، فبعض هؤلاء المتعلمين الشرقيين أراحوا أنفسهم من كل دين ، ومن كل بصيرة ، ومن كل حكمة ، فهؤلاء ينطبق عليهم قوله تعالى (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) وقوله تعالى (فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) ان من أعجب العجب أن يكون قول (كانت الألمانى) منطبقاً تمام الانطباق على آراء علماء التوحيد يقولون ان معرفة الله لا تكون إلا بالعقل

وكل من نظر فى التوحيد ايمانه لم يخل من ترديد

فهو يقول ان دياناتهم خرافية ويأمر بالرجوع إلى نظام الطبيعة ، وهذا هو نفس ما عند أكابر علماء الاسلام ويقول أيضاً اننا لانجعل قلوب الصغار تهلع وتفزع من ربها وهذا هو قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم المذكورة فى أول كل سورة وفى كل صلاة وفى القرآن «٧٥٠» آية كلها فى عجائب الحكمة الالهية وعجائب الخليقة وهى الرحمة بعينها واحمد الله إذ وفقنى لشرح تلك العجائب

والرحمات شرحا كافياً فى كتبى لاسيما كتاب الجواهر فى تفسير القرآن اه .

فلما قرأ هذه المقالة صاحبى قال حسن أمثال هـذا المقال وجميل أن من المسلمين من خطوا خطوات فى هذه السبيل ولـكن أكثرهم يعلمونها أما على أنهـا خارجة عن الدين وإما أن يكون المعلم غير متأثر ولا مقتنع بما يقوله للتلاميذ فتذهب المعانى أدراج الرياح . أما قراءة الناس أمثال هذا المقال فانهم بذلك لا جرم يسارعون إلى التأليف والتصنيف ونشر الـكتب والثقافة بين الصبيان فى سائر البلاد والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

إن المحاورة بين الفتاة والطائر تعطى الأطفال درسين درس الحرية ودرس معرفة الله ومن أعجب العجب أن بعض الفرنجة يحجبون عن كثير من الشرقيين نعمة الحرية التى بهـا يستمتعون ويصرفون قلوب أطفالنا عن معرفة الله وأهل الشرق نائمون وقد استيقظوا اليوم وسيعملون .

هذا وانى أراك قد أعطيت هذا المقام حقه بحسب ما يقتضيه المقام فأرجو تفصيل الـكلام على العنكبوت والنحل والنمل .

الفصل الثالث

فقلت أيها الأخ أليس ما مضى بكاف فى وصف العنكبوت.

فقال كلا فليكن التفصيل أتم والكلام أعم حتى يقف الناس على النموذج الذى سلكته فى كتاب الجواهر فى تفسير القرآن .

فقلت إذن نكتب جميع ما جاء على النمل فى سورته وجميع ماجاء على النحل فى سورته وجميع ماجاء على العنكبوت فى سورته

فقال لو أن هناك موضوعا واحدا للجميع لوجب أن يكون أحق بالذكر فى هذا المقام .

فقلت أن أول سورة الرحمن جمعت هذه العجائب كلها بصورها الشمسية وفيها الكلام على هذه الحشرات وعلى الأحجار الثمينة وعلى بهجات العلوم وغاية النظام تفسيراً لقوله تعالى ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان والوزن هناك قسمان وزن إلهى فى الخليقة ووزن حيوانى فى السليقة وسأبين المقامين ولابدأ أولا بتفسير بعض آيات من سورة الرحمن ثم أقفى ببحث فى الميزان الرياضى وكيف كانت موازين الناس مستمدة من ميزان السموات والأرض ثم أتبعه بميزان الخليقة ويتلوه ميزان الحيوان بالسليقة فهذه أربعة مباحث .

﴿ المبحث الأول ﴾

(فى تفسير بعض آيات فى أول سورة الرحمن)

الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ القُرْءانَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجمُ وَالشَّجَرَ يَسجُدَانِ وَالسَّماء رَفَعَهَا ووضعَ المِيزَانَ أَلاَّ تَطغَوا فى المِيزَانِ وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ وَالارْضَ وَضَعَها لِلأَنَامِ فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ والحَبُّ ذُو العَصْفِ والرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِكُمَا تُكَذِّبانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرحمن ، علم القرآن ، خلق الأنسان ، علمه البيان) أى علم محمدا القرآن ومحمد علم أمته ، خلق جنس الأنسان وميزه عن سائر الحيوان بالبيان ، وهو التعبير عما فى الضمير وافهام الغير لما أدركه ، وهذه الجمل الثلاث خلت من العاطف وجعلت أخبارا مترادفة للرحمن على نهج تعداد النعم كما تقول زيد أغناك بعد فقر ،

أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك مالم يفعله أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ، كأن كل واحد من هذه المعدودات يصح أن يكون كافيا فى حفظ الجميل ، وانكاره وحده كاف فى نعت المنكر بكفران النعمة (الشمس والقمر) يجريان (بحسبان) بحساب معلوم مقدر فى بروجهما ومنازلهما ، وعلى مقتضى هذا النسق تنتظم أمور المخلوقات السفلية والفصول والسنون وجداول الحساب ، ولما كان النبات الذى ينجم من الأرض المسمى بالنجم ، وهو مالا ساق له ، والشجر وهو الذى له ساق (فالأول كالحنطة والثانى كالنخل) من جملة العوالم المرتبة على سير الشمس والقمر وحسابهما ، وبذلك الحساب انتظم أمر سائر النبات بحيث يزرع فى فصل مخصوص ، ويحصد ويؤخذ ثمره فى فصل مخصوص ، وينمو على مقتضى حركات الشمس والقمر والنجوم أردفه الله تعالى بذكر ذلك فقال (والنجم والشجر يسجدان) ينقادان لله فيما يريد منهما طبعا كما ينقاد المكلفون اختيارا ، وهذا الانقياد ظاهر ، ألا ترى أن الشجر والزرع لا يخرجان عن نظام سير الكواكب ولا يفتران عن نهج الشمس فى مسيرها ، ثم انظر

أيضا كيف كان الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعوم والروائح جارية بقدر، سائرة لغاية، كل هذا سجود وطاعة للمسخر الذى نظمها. واعلم أن ظاهر النظم يقتضى أن يقال «علمه البيان»، أجرى الشمس والقمر بحسبان، أسجد النجم والشجر، ورفع السماء، ووضع الميزان الخ ولكنه عدل عنه ليمتاز البيان عن المبين (بالفتح).

وإيضاحه أن النوع الانسانى عرف اللغات والفهم والافهام وأودع فى غريزته الاستعداد لكل العلوم، فاللغات المختلفة فى الأرض التى أبلغها بعضهم ألى أربعة آلاف لغة كلها علمها الله للانسان للبيان والفهم والافهام، فكل قوم لهم لغة، ولكل قوم كتابة، فماذا يكتبون وماذا يقرءون، وما الذى عنه يعبرون؟ فلذلك ذكر الشمس والقمر وما بعدهما تبيانا للمعبر عنه والمبين بعد أن ذكر البيان، هذا هو السبب فى تغيير نظم العبارة، وانما بدأ بالشمس لأنها مبدأ الحياة على وجه الأرض وبدونها لا حياة فيها كما تقدم شرحه (والسماء رفعها) خلقها مرفوعة محلا ومرتبة (ووضع الميزان) العدل والنظام الذى مر شرحه فى أغلب سور

القرآن بحيث كان حساب سير الكواكب ، وحساب أجزاء النبات الداخلة فى تركيبه ، وحساب الأحجار الساقطة المحسوبة بالتربيع كما تقدم فى (سورة آل عمران) وحساب الجسمين المتجاذبين كالفلينتين على سطح الماء المتقاربتين بحساب التربيع أيضاً و حساب البندولين المختلفين طولا بحيث يكون الأقصر أسرع اضطرابا من الأطول على نسبة عكسية تربيعية ، وهكذا مما شرحناه لك فى التفسير وهكذا نظريات (نيوتن) و (كليبر) التى أبانت المثلثات المساحية عند جرى الكواكب بحيث تكون متكافئة فى الأزمان المتساوية مع اختلاف الأقواس المقطوعة صيفاً وشتاء، فيكون القوس الذى تقطعه الشمس فى الشتاء وهى مسرعة أكبر من القوس الذى تقطعه فى الصيف وهى فى الرأس مبطئة مع أنهما متساويان مساحة كما تقدم أيضاً موضحاً مرسوماً فارجع إليه ، كل هذا وكل علم الفلك ، وكل علوم الطبيعة ، وكل نظام الموسيقى الذى تقدم فى (سورة يوسف) وكل قواعد العلوم ، وكل قواعد الشعر التى تجرى على نسق واحد موسيقى كما فى بحر الطويل إذا لم تدخله العلل ولا الزحافات يكون ١٢ سببا و ٨

أوتاد ، والمجموع ٤٨ حرفا ، والسواكن بالنسبة للمتحركات هكذا ٥ — ٧ — ١٠ — ١٤ — ٢٠ — ٢٨ فتكون المتحركات ٢٨ والسواكن ٢٠ ومعلوم أن حاصل ضرب الوسطين يساوى حاصل ضرب الطرفين — كل ذلك داخل فى الميزان ، إن الميزان هنا لا يفهمه إلا من درس جميع العلوم ، ومن قرأ هذا التفسير كله فقد عرف الميزان ، واذن يكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وقوله (ألا تطغوا فى الميزان) أى لئلا تطغوا فيه[1] ولا تعتدوا ولا تجاوزوا الانصاف ، فاذا نظمنا ملكنا بحيث جرى على تلك النسبة المنظمة فان ذلك يدعوكم لنظام أعمالكم اقتداء بسنتنا وسعياً فى رقى نظامكم ، وتحسين أعمالكم وأخلاقكم (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ولا تنقصوه فان من حقه أن يسوى لأنه المقصود من وضعه ، وانما كرره مبالغة فى التوصية ، ولأن كل واحد من العدل فى الميزان ومن النقص ومن الزيادة مرغوب ذكره للقيام به فى الاول وللتنائى عنه فى الأخيرين (والارض

(١) أن مسألة الميزان ونظام الحياة التابعة لنظام الافلاك تقدم فى سورة يونس شرحها بأ كثر مما ستراه هنا . فهناك ترى رسم الهرم وشرحه فضلا عن حسابه .

وضعها) خفضها مدحوة (للأنام) للخلق (فيها فاكهة) ضروب لما يتفكه به (والنخل ذات الأكمام) أوعية الثمر التى يكون فيها الثمر ، لأن ثمر النخل يكون فى غلافه وهو الطلع مالم ينشق ، وكل شىء ستر شيئاً فهو كم ، ولذلك قال بعضهم : الأكمام مايكم أى يغطى من ليف وسعف وكفرى ، فكل مايغطى وكل مغطى به ينتفع الناس به كالجذع والجمار والثمرة ، (والحب ذو العصف) الحب كالحنطة والشعير والذرة والأرز ، والعصف ورق النبات إذا يبس والتبن (والريحان) هو إما الذى يشم ، وأما الرزق من قولهم خرجت أطلب ريحان الله أى الرزق (فبأى آلاء ربكما تكذبان) أيها الثقلان الإنس والجان ، الآلاء جمع إلى وهو النعمة وإنما خاطب الثقلين لدلالة الانام عليهما ، والانام الخلق ، وكل ذى روح : أى فبأى نعم من هذه النعم المذكورة تكذبان أيها الثقلان؟ وهذه الآية كررت فى أحد وثلاثين موضعاً من السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً للتذكير بها ، فتراه عدد نعمه على الخلق ، وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم بها ويقررها ، فاذا قال الرجل لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟

ألم تكن عريانا فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا ؟ وهذا كثير فى كلام العرب شائع ؛

هكذا يقول الله هنا : ألم أخلق الانسان وأعلمه البيان : وأنظم الشمس والقمر بحسبان ، وانوع الشجر ، وأبدع الثمر ، وأعمهما فى البدو والحضر ، لمن آمن وكفر ، واسقيهما تارة بالمطر وآونة بالجداول والنهر ؟ أفتنكرون أيها الناس والجان هذه النعم ؟ فبأيها أنتم مكذبون ؟

المبحث الثانى

فى ميزان العوالم العام الرياضى

لأذكر نبذة مما جاء فى كتاب الجواهر فى تفسير القرآن فى أثناء محاورة بين المؤلف وبين صديق له وهذا نصها قال المؤلف

ج — إن الارض ليس يضبط محيطها كما يضبط محيط مدار الشمس ، فلما كان العالم العلوى أضبط وأبقى جعله أولئك الفلاسفة مقياساً لنا : أى جعلوا منه الرطل المصرى والكيلة والفدان والقيراط وما أشبه ذلك مصداقاً لقوله تعالى : « ألا تطغوا فى الميزان »

أى أنا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها فى حركاتها لئلا تزيدوا فى موازينكم كالقناطير والأرطال ، ومكاييلكم كالأردب والكيلة ، ومقاييسكم كالفدان والقيراط ، إن هذه كلها مبنية على نظام شمسنا ، ولو اختل نظام مدارها لم يضبط لكم كيل ولا ميزان كما لا تضبط أعمالكم إذا تقدم كوكب عن أوانه ، أو طلعت الشمس أو القمر قبل إبانهما

س — هذا قول عجيب لا أفهمه أوضحه لى ، فاذا عجبت من جهل الناس فلا تعجب إذا عجب الناس من غموض قولك .

ج — حياك الله : مهلا . إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة المقاييس ترجع إلى محيط الأرض إذ جعلوا المتر جزءاً من ٤٠ مليونا من محيط الدائرة الارضية فد وقع الخطأ فى عملهم ، فانهم رأوا بعد ذلك أن محيط الارض ليس ٤٠ مليونا بل يختلف اختلافا بينا ، فاذا اختلف الناس فى المتر فيما بعد فإلام يرجعون ، أما قدماء المصريين فانهم قاسوا مدار الشمس السنوى بالحساب العالى فبنوا الهرم الأكبر على أن محيطه جزء من مليار جزء من محيط مدار الشمس السنوى : أى جزء من ألف ألف ألف جزء من ذلك

المحيط ، وارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض : أي مليار وضعف الارتفاع المذكور يساوى قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم ، فالارتفاع نفسه كما تقدم يساوى جزءا من مليار من البعد بين الشمس والارض ومحيط الهرم يساوى جزءا من مليار من الدائرة التى تدور عليها الشمس التى ذلك البعد نصف قطرها .

وعليه يكون ضلع الهرم مساويا لجزء من ربع مليار من محيط الدائر الشمسية ، ومعلوم أن الضلع المذكور يساوى ٤٠٠ ذراع بلدى ، أو ٣٦٠ هنداسة ، فيكون الذراع البلدى واحداً من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية . أى جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، ثم أن ربع الذراع البلدى المكعب يسع ألف درهم من الماء المقطر ، وكل إثنى عشر درهما أوقية ، وكل ١٢ أوقية رطل ، فالرطل ١٤٤ درهما ، والقنطار مائة رطل ، وعليه تكون المقاييس منها عشرى ومنها ذو الاثنى عشر ، والأردب ذراع بلدى مكعب ، فتعجب كيف كان الأردب ذراعا مكعبا منسوبا إلى ضاع الهرم ، فهو جزء من ٤٠٠ منه . أو واحد

من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية . ألا ترى كيف قسنا ووزنا وكلنا على نسبة محيط الشمس

إن الفدان عبارة عن ١٠٠ × ١٠٠ = ١٠٠٠٠ عشرة آلاف هنداسة ، فطوله ١٠٠ وعرضه ١٠٠ وهو نسبة عشرية ، والهنداسة جزء من ٣٦٠ جزءاً من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية فأصبح الفدان منسوبا مقياسه للدائرة الشمسية ، أليس هذا بعينه قوله تعالى « ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » فأمر بالاعتدال ، وألا ننقص وألا نزيد فى وزننا ، ولا فى كيلنا ومساحتنا ، كل ذلك على حسب مدار الشمس

واعلم أن الذراع النيلى ٥/٦ من الهنداسة فيكون ضلع الفدان ١٢٠ ذراعا نيليا ، والفدان ١٤٤٠٠ ذراعا نيليا ، ويكون القيراط ٦٠٠ والسهم ٢٥ والدانق ١٠٠ — فالذراع النيلى والهنداسة كلاهما بمسحان الفدان ١٠٠ × ١٤٤ = ١٤٤٠٠

هل يدرى ذلك الفلاح الذى يبيع قطنه بالقنطار أنّ للقنطار نسبة إلى مدار الشمس فى السماء ؟ هل يعلم أن القنطار المنقسم إلى

أرطال إلى دراهم ، أن تلك الدراهم منسوبة إلى الذراع البلدى الذى إذا كعب ربعه وسع ألف درهم ، وإذا كعب هو وسع ٦٤ ألف درهم ، وأن هذا الذراع البلدى جزء من أربعمائة من ضلع قاعدة الهرم ، وأن ضلع قاعدة الهرم جزء من ألف ألف ألف جزء من ربع محيط دائرة الشمس حول الأرض ، وأن هذا المحيط أحد المحيطات التى للشموس العظيمة التى لا يعلم عددها إلا الله ، وهل الفلاح الذى يقيس أرضه بالقصبة يعلم أن هذا الفدان يساوى عشرة آلاف هنداسة ، وأن الهنداسة جزء من ثلثمائة وستين جزء من ذلك الضلع المنسوب لمحيط الشمس

﴿ المبحث الثالث فى ميزان الخليقة ﴾

وفى هذا الفصل (١) نظام الأحجار الثمينة (٢) الزمرد (٣) الياقوت الأزرق البلورى (٤) والزمرد البلورى المركب (٥) وبرل ذو الخطوط الطويلة (٦) وكوارتز البلورى ذو الخطوط العرضية المقاطعة (٧) وتدرج السمك فى نموه مصوراً بالتصوير الشمسى .

جاء فى كتاب الجواهر فى تفسير القرآن بعد كلام طويل فى الكلام على هذه الآيات مانصه :

(١) فأبتدىء بذكر حقائق الجماد بوصف بعض الأحجار الثمينة .

(٢) ثم أقفى بالاشارة إلى نظام النبات .

(٣) ثم أذكر بعض الحيوان الذى يعيش فى البحر .

(٤) ثم أقفى على أثاره بعجائب خلق الحيوان الذى يعيش فى البحر صغيراً، وفى البر كبيراً ، وهو الضفادع التى يرى العاقل فى نموها وتدرجها من العجائب ماتخر له العقلاء سجداً من تلك المادة الهلامية التى تحيط بالبيض وتأخذ فى رفعه كلما زاد نموه حتى تصل به إلى سطح المـاء فيكون إذ ذاك قد فقس البيض ، فأما المـادة الهلامية فانها تنحل بتدبير آخر وابداع عجيب .

(٥) ثم أقفى بذكر بعض حيوان البر وأبتدىء بالعنكبوت ، وأبين كيف يبتدىء فى نسجه وهيئة سيره فيه مما لم يتقدم له نظير حتى تعلم أيها الصديق أن تلك العناية التى أحاطت بأجسام الحيوان نفذت إلى إدراكه وغرائزه فأخذ ينظم أعماله كما نظمت هيئة جسمه وكأنه تلميذ تربى فى معهد جسمه المنظم فأخذ ينسج على منواله .

(٦) ثم أتبعه بذكر عجائب النحل وابداعه فى عمله مما لم يسبق له نظير فيما مضى ، وكيف كان منه بناءون ونساجون ونجارون وغيرهم

(٧) ثم أذكر ما يقرب منه وهو الزنبور ، وكيف يغلف عشه بما يشبه الورق فيكون ذلك الغلاف سببا لدفء صغاره داخل خلاياه التى بناها ونظمها.

(٨) ثم أختم المقام بذكر النمل وعجائبه التى لم يسبق لها نظير مثل النجارين منه والبنائين الذين يبنون أبراجاسترى بعضها قريبا وإليك تفصيل ما أجملناه :

فأولا لا أقف عند مافى الجماد من إبداع واتقان ونظام مثل (الزمرذ) (أنظر شكل ٣) ومثل الياقوت الأزرق البلورى (أنظر شكل ٤) ومثل الزمرد البلورى المركب (أنظر شكل ٥). ومثل أحد الأحجار الكريمة المخضر لونه المسمى بالفرنجية (برل) (أنظر شكل ٦) . ومثل الحجر المسمى (كوارتز) (أنظر شكل ٧) وهاك أشكالها فى الصفحة الآتية :

فهذه الأنواع الخمسة من الأحجار الثمينة نراها ونرى غيرها فى الطبيعة على هيئة البلور مسدسة الأشكال منظمة الأوضاع ،



(شكل ٣)
الزمرد اللورى



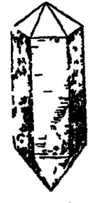
(شكل ٤)

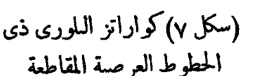


(شكل ٥)
رمرد لورى مرکب



(شكل ٦)برل اللورى
ذى الحطوب الطويله





(سكل ٧) كواراتز اللورى ذى
الحطوط العرصة المقاطعة

بهجة الألوان ، زينة للدنيا ونوراً للعلماء المفكرين ، فهل أقف عند هذه وحدها نموذجا الميزان المنصوب فى الأرض والسماء ؟ كلا. بل أقفى بذكر الميزان فى النبات فأقول :

ثانيا : نرى الحكمة كما سرت فى الجماد ونظمته وأحكمته سرت فيما هو أرقى منه وأبدع وهو النبات كما تقدم فى قوله تعالى فى (سورة الحجر) : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا

فيها من كل شيء موزون » . وفى هذا التفسير من وزن النبات ما يذهل الألباب ، فبأى مقام أذكرك أيها الذكى ؟ :

(ا) أبا لمذكور فى سورة (ق) .

(ب) أم بالمذكور فى (سورة حم فصلت) .

(ج) أم بما قبل ذلك فى (سورة يس) .

(د) أم بالمذكور قبلها فى (سوة فاطر والسجدة) من تلك الصور البديعة العجيبة ، والأشجار المونقة المبهجة الجميلة ، وأشكالها وتشريح سوق الأشجار وانتظاه حلقاتها بعدد سنيها من بدائع الحكم المودعة فى النبات ، وكيف كان للأشجار طبقة فوق قشرتها تمنع الماء فى داخلها أن يبخر ، وتحتها طبقة أخرى تمتد منها شعرات تمنع شدة ضوء الشمس من طغيانها على النبات ، وربما ملئت بسائل حريف أو مر أو نحو ذلك مما يمنع الحيوان عن تعاطي ذلك النبات ، وهناك عجائب الطبقات الخشبية التى جعلت نافلة الغذاء من الساق إلى فروعه وأورافه ، وعجائب اللحاء التى توصل العصارات التى اكتمل نضجها فى الأوراق إلى بقية الأجزاء فى النبات ، فلقد تقدم هذا هناك موضحاً بصوره المعجبة ، ودروسه المنتظمة ، فاقرأه على مكث .

(هـ) أم بما ذكرناه فى (سورة الحجر) عند آية: «وأنبتنا فيها من كل شىء موزون» وهناك ترى شجرات مرسومات منتظمات الدوائر الحاصلات من منابت الأوراق ، وفيها بدائع تذهل العقل ، وتبهج النفس ، فبينما نحن نأكل التفاح ، ونتفكه به ، ونظن أن هذا هو المقصود منه فى حياتنا ونفرح به ونقول الحمد لله ، اذا نحن نرى حياة جديدة ، نرى الأوراق التى لا نأبه لها قد جعلت كل خمس منها مشكلات لدائرة تامة ، بحيث يكون بين كل ورقتين ٧٢ درجة من ٣٦٠ درجة من الدائرة ، وفى كل دائرة تامة شكلان حلزونيان ، ومن عجب أن الورقة الأولى من الدائرة الأولى على خط مستقيم مع الورقة الأولى من الدائرة التى فوقها وهكذا الورقة الثانية فيكون هناك فوق نظام الدوائر التامة والأشكال الحلزونية أمر آخر وهو الخطوط المستقيمة المنتظمة فيما بين النظائر فى الدوائر ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصبحت هناك نسبة بين تلك الأشكال الحلزونية ودوائرها مع كل الدوائر الأخرى فى نباتات كثيرة وأشكالها الحلزونية ، حتى أنك ترى هناك سلسلة حسابية منتظمة تسرى فى كل نبات

وهذا قد تقدم فلا حاجة لإعادته هنا ، وكفى ما ذكرناه تشويقاً لمراجعته ، هذا هو الميزان فى النبات وهو المقام الثانى .

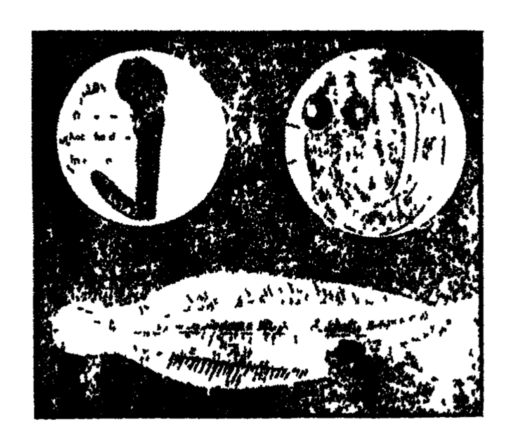
ثالثاً . فلأخط خطوة فوق ما تقدم إلى حيوان البحر لأنه مقدم على حيوان البر مكتفياً بذكر سمكة تسمى (بلاس) أو (بليس) بإمالة اللام فأقول :

« إن هذا السمك الذى يشبه ما يسمى فى بلادنا المصرية



(شكل ٨ — نمو سمك بلاس)

(القنومة) والواحدة منه تضع نحو نصف مليون بيضة ، وكل بيضة يبلغ قطرها جزءاً من ١٢ من البوصة ، وهذا البيض يكون عائماً فوق سطح الماء ونمو الجنين فى البيض يمكن ملاحظته

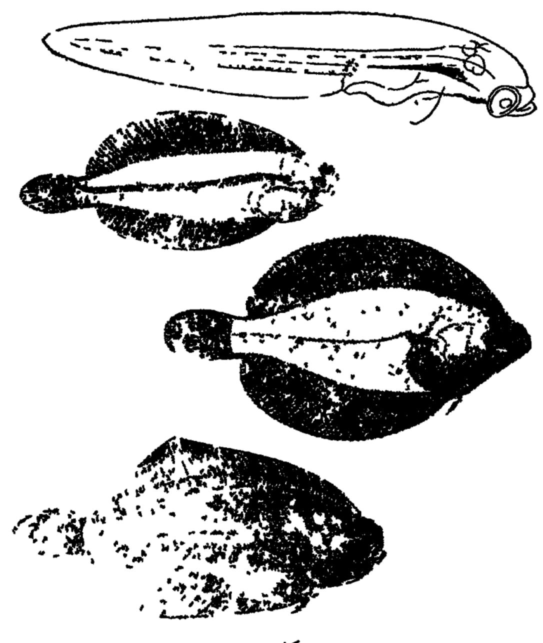


(شكل ٩ ــ نمو سمك ملاس)

درجاته المختلفه فى داخل السص، انظر سكل (٨ و ٩)

(١) أن الصورة العليا اليسرى ترينا جنين السمكة فى اليوم التاسع بعد الإلقاح، والنقط الصغيره عبارة عن حواصل ملونة والحجم الطبيعى أقل من جزء من ٢٣ من البوصة.

(٢) والصورة العليا اليمنى ترينا الجنين مستعداً للخروج من البيض بعد ١٧ يوما بعد الإلقاح. الخلايا الملونة بالسواد أخذت الآن تظهر.



(شكل ١٠)

(٣) والصورة السفلى تريا السمكة الصغيرة نحو ثلاثة أخماس البوصة، وهاهى ده أخذت الآن تأكل (الملح) (سمار السمك) وقد التهمته جميعه . ثم انظر شكل ١٠

(١) هاهى ده السمكة الصغيرة ا ٥٠٠ع التوازن المعهود فى السمك

(٢) ترينا تغيراً واضحاً بنجاح : فالجسم أصبح الآن مسطحاً من ناحية إلى الأخرى . والعين اليسرى صارت مدورة للجهة اليمنى مائلة نحو الجنب ، وطولها الى الآن لايصل إلى نصف البوصة

(٣) سمكة « شابة » (وهو تعبير مجازى) وصلت الآن قاع النهر ، هى تستريح مرة وتعوم أخرى على جنبها الأيسر وقد صار طولها بوصة .

(٤) سمكة شابة فى قاع البحر وحويصلاتها الملونة قد أخذت تنحو نحو الجانب الأيمن وهى لا تظهر من الجهة اليسرى نحو الجانب الذى هو فضى اللون . أما العينان فانهما جنبا لجنب متجهان إلى أعلى نحو الجانب. انتهى المقام الثالث فى السمك .

رابعاً . هل أقف عند السمك فى الميزان ؟ كلا . بل هناك ما هو أجل منه وهو عالم الحيوان الذى هو أرقى منه ، ولقد مر فى سور كثيرة فى البقره والأنعام ، وسورة المؤمنين ، وسورة النور وسورة السجده ، وفاطر ، وسورة حم فصلت وغيرها . وكنت أود أن أذكر هنا الحيوان الذى يعيش فى البر وفى البحر كعالم الضفادع تتميما للأقسام ، ولكن يمنعنى من ذلك أنه قد تقدم مفصلا

وموضحا بالصور فى (سورة البقرة) فى الطبعة الثانية فانه هناك أوضح وأجمل وأبدع مما كتبت عنها فى (سورة طه)

ألا ترى رعاك الله أن فيه نوعى الضفادع وكيفية نمو أجنتها وحسن إبداعها، وإتقان صنعها، وكيف يرى بيضها فى الماء على هيئة الخطوط المتوازية، ولقد فاتنى هناك أن أذكر أن الذى حبانى فى شرحها أنى حينما نظرت ذلك الرسم خطر لى خاطر كان يسنح لى وأنا تلميذ بدار العلوم، ذلك أننا كنا نتعلم فن الرسم وكنا نرسم خطوطا منتظمة، فكنت فى أثناء الرسم أتفكر فى (أمرين: أولهما) أنى فى هذا العمل أعتبر نفسى فى طاعة الله تعالى وهذا كان شأنى فى جميع الأعمال (ثانيهما) انى كنت أثناء الرسم أحس كأنى فى عالم السموات الذى هو عالم منظم، ورسم هذه الخطوط يذكرنى به.

هذا هو الذى كان يدور بخلدى أيام الدراسة، فلما رأيت رسوم الخطوط لبيض الضفادع المتوازية أذكرنى ذلك فرسمته وشرحتها. والحمد لله رب العالمين.

﴿ المبحث الرابع فى ميزان الحيوان بالسليقة ﴾

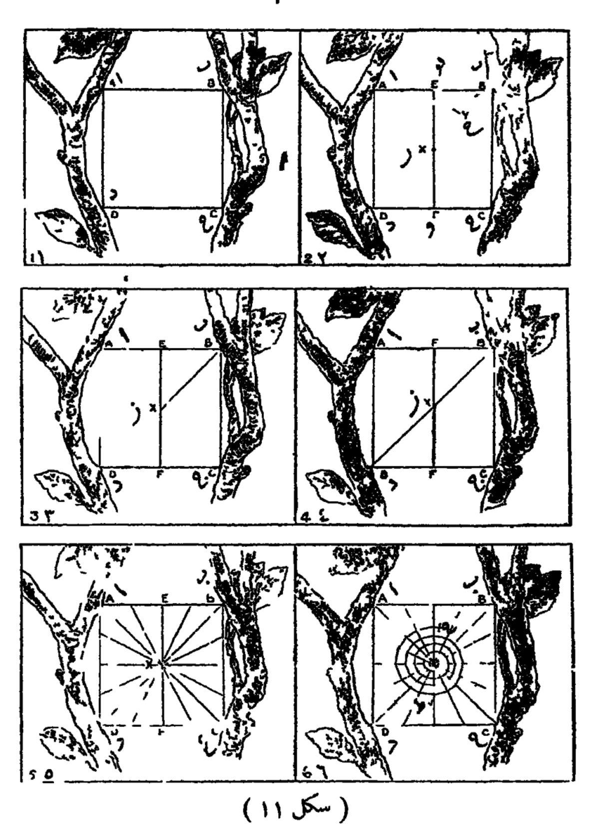
وفى هذا الفصل الكلام على (١) نسج العنكبوت وأحدث صوره (٢) وعلى النحل (٣) وخلاياه المعتادة (٤) وعش النحل الحجرى (٥) والنحل المستقل بنفسه — والنحل الثاقب للخشب — وعلى النحل البناء — وعلى الزنابير (٩) مثل زنبار الخشب (١٠) وزنبار البرازيل فى الشجر النجار (١١) الزنبور البناء — (١٢) والنمل المعتاد (١٣) والنمل وبرج النمل الأبيض فى شرق أفريقيا.

جاء فى نفس التفسير صفحة ٣٧ من المجلد الرابع والعشرين ما نصه :

ولكنى لا أقف فى الميزان عند حد الحيوانات البرية والبحرية. كلا. فلأنتقل للكلام على العنكبوت وهى من الحيوانات التى لا تعيش فى غمرة الماء ، وبهذا نبدأ الكلام على عجائب جديدة لم تكن من قبل وبيان أن ما تقدم فى الأحجار الثمينة والنبات والسمك والضفادع ، إن كل ذلك إلا صنعة لم نر صانعها ؛ فأما هذه الصنائع التى نريد دراستها المبدوءة بصناعة العنكبوت (التي

لم يسبق إيضاحها فى سورته كما هنا) فان أمرها عجب ! نعم عجب للحكيم ، أما الجهال فهم فريقان : فريق هم السواد الأعظم لايعرفون من العنكبوت ، ولا من النحل ، ولا من الزنابير ، ولا من النمل إلا ما يمس عواطفهم كراهة وحبا ، فيتبرمون من العنكبوت ، ويفرحون بالنحل ، ويخشون الزنابير والنمل .

هذه آراء أغلب نوع الإنسان فى أرضنا ، ويلحق بهم أكثر أولئك الذين يتعلمون فى مدارس الشرق والغرب علم التاريخ الطبيعى فهؤلاء يقرءون هذه العلوم وأكثرهم لا يدرسه إلا كما يدرس علم النحو أو علم الزراعة كأن أرواحهم لا تعرف إلا الأمور المحسوسة ، أما التفكر والتذكر بل السعادة الحقيقية فانها هاربة منهم ، بعيدة عنهم ، رحلت من عقولهم ، فهم لا يعقلون ولا يسعدون ، وفريق آخر وهم أقل هذا النوع الإنسانى إذا درسوا أمثال ماسنذكره هنا فانهم يدهشون ويقولون نعم إن الإبداع فى الأحجار الثمينة البلورية وفى النبات وفى السمك وفى الضفادع لأن الذى صنع هذا هو صانع العالم فلا غرابة فى ذلك ، بل الأمر المدهش أن صانع نسيج العنكبوت هو نفس العنكبوت ، وصانع

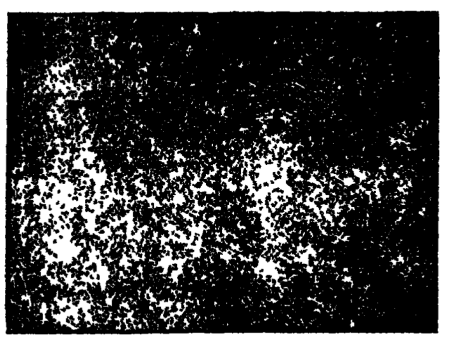


(سكل ١١)

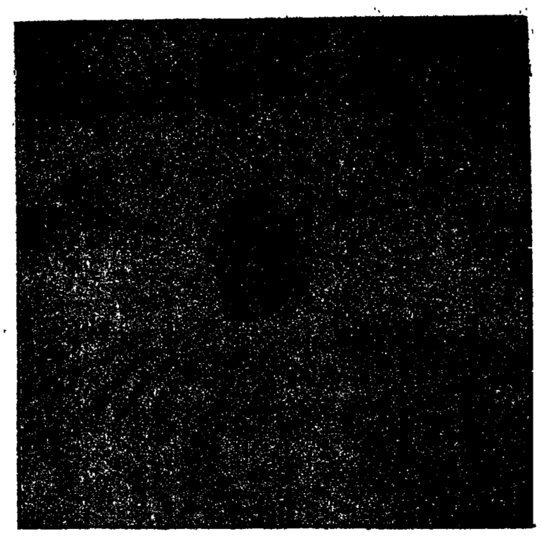
خلايا العسل هو النحل ، ويقرب منه الزنبور ، ونرى فى النمل والنحل بنائين ونجارين ، وصباطا وجيوسا ومربين .

فما هذا الحادث الجديد ؟ فهؤلاء يرون أن هذه العوالم ماهى إلا كتلاميذ تربوا فى بيت الحكيم وتحت رعايته فقلدوه ونحوا نحو عمله ، وهل عمله إلا النظام المحكم ؟ مثلا شكل ١١ وهو رسم بيانى لنسيج العنكبوت .

(١) أربع خطوط أصلية (٢) أول خط رأسى (هـ و) . (ز) مركز (ح) كيفية صنع الخط الشعاعى ، (٣) : (ز ب) خط شعاعى (٤) : (ز د) خط شعاعي آخر . (٥) خطوط شعاعية صنعت أولا فى جانب ثم صنعت بعد ذلك فى جانب آخر ، وليست هـذه الخطوط كلها متساوية . فهنا أخذت العنكبوت تتم نسجها باتقان



(شكل ١٢ ـ نسيج عكبوت الحدائق)



(شكل ١٣) نحل العسل حاملا كرات الطلع الصفراء
من هذا النبات المسمى « سم النمر »

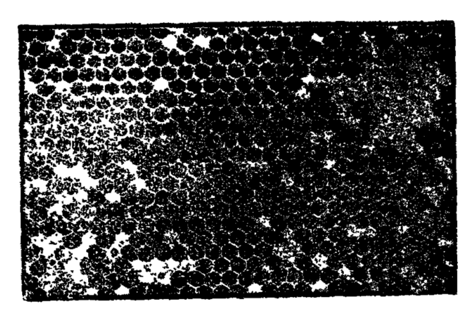
(٦) الخط الأسود الحلزونى الأولى الملتف بعضه فوق بعض ينتهى عند «حَ» وأما الخط الحلزونى المنقط . أعنى الخط الثانوى الحلزونى فانه ينتهى عند « ط » .

شكل ١٢ المتقدم صورة شمسية لنسيج عنكبوت الحدائق

ترينا الخط الأعلى الأساسى للنسيج وهو لزج ، وهـذا النساج جالس فى الوسط ، وربما غادرت العنكبوت ذلك المركز ، وحينئذ يحمل معه خيطا بسيطا به يقدر أن يميز أى ذبذبة تعرض فى النسيج فكأنها أشبه بآلة التلغراف « البرق » انتهى الكلام على القسم الخامس .

سادسا . وهذا القسم ليس كافيا لمعرفة الميزان ، فهنا نبدأ فى الكلام على النحل فنقول .

نبتدىء بذكر نبات يسمى « سم النمر » يشتار منه النحل العسل « شكل ١٣ »



(شكل ١٤) قرص عريض ، قرص النحل مع خلايا تحوى دود عاملات النحل وهى التى تسمى عادة الشغالة

هاهو ذا نحل العسل شكل ١٣ حلاملا كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى (سم النمر) بالفرنجية وهو بالعربية (عابد الشمس)

إن بعض الأزهار يجمع منها النحل ما يصير فى باطنه عسلا وبعضها يجمع منه ما يصير غذاء للذرية الصغيرة ، وهى الدود فى الخلايا، وهناك أزهار تصلح للحالين معاً ، ويوضح ذلك (شكل ١٣) المذكور . ثم انظر شكل ١٤



(شكل ١٥)

قرص عسل النحل يسمل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التى فيها العسل

إن الخلايا التى تربى فيها العاملات من النحل هى الصغريات، أما التى ينمو فيها الذكور فانها أوسع ، وأما التى فيها الملكات فانها

أكثر اتساعا ، وليس فى قفير النحل ما يزيد على ست ملكات .

إن الخلايا الخازنات العسل تساوى فى حجمها الخلايا التى تربى فيها ذكور النحل، هذه القطعة من قرص العسل موضوعة وضعاً رأسيا عموديا . ثم انظر سكل ١٦ .



(شكل ١٦) طائفة من النحل مزدحمة على سحر التفاح



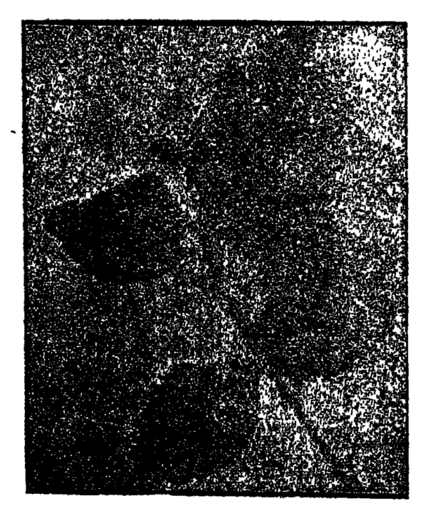
(شكل ١٧) — عش النحل الحجرى

فى هذا العش قد نزع الغطاء الرقيق من فوقه ليظهر القرص وخلاياه ، وقد كسرت خليتان من أعلاهما الدودات الصغيرات السمينه البيضاء وهى ذريه النحل ، أن هذه النحل تعرف بنقطة حمراء فى انهاء ذيل جسمها الاسود ، وهى لا تصنع عشها أبداً إلا تحت الحجر. ثم انظر شكل ١٨ وهذه صورته :



(شكل١٨) ــ هدا عش للنحلة المفردة وحدها ى هيكل قوقعة الحدائق

ترى فى الشكل ١٨ نوع النحل الذى يعيش فى عزلة منفرداً عن غيره ، ولن يعيش إلا فى مكان مجوف والقوقعة الوسطى تريك نحلة حديثة الولاده قد خرجت حالا من شرنقتها ، والصورة اليمنى عباره عن قوقعة قد كسرت فظهرت فيها الدودة الصغيرة التى تنقلب فيما بعد ذلك شرنقة ، وفى كل قوقعة دودتان دائما إحداهما ذكر والثانية أنثى .



(شكل ١٩) وهو ثلاث قطع ـــ القطعة الاولى

النحل المستقل بنفسه قطاع الورق الذى حجمه بقدر حجم نحل القفير يقطع الورقة ليتخذ منها بهذا القطع خلية أنظر النحلة تعمل، وترى فى الجزء الأعلى الأيمن من الورقة فجوتين مقوستين مرتبتين منظمتين ، وقد قطع منهما أجزاء من الورقة . والنحلة تراها فى إحدى الفجوتين وقد خفيت تحت جسمها

القطعة الثانية



ههنا النحلة تحمل قطعة من ورقة الورد للخلية ثم الخلايا مركبات من قطع من الورق مقوسة على بعضها . والأغطية مصنوعة من القطع الصغيرة .

القطعة الثالثة

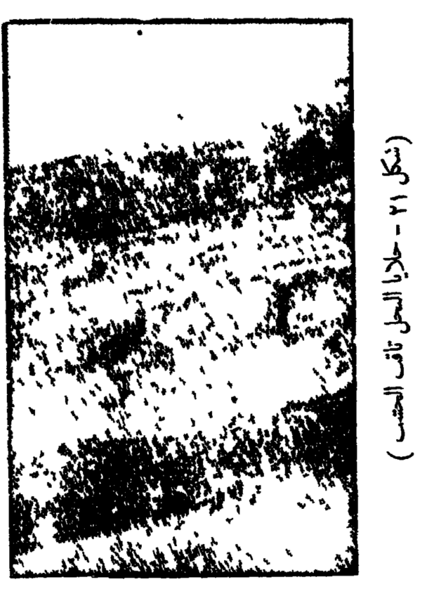


الخلايا تامة والاعشاش مصنوعة فى التجاويف والخلايا منظمة. آخر كل خلية متصل بآخر الأخرى يظهر من الشكل . إنها لمغتبطة بما صنعت . إن كل خلية مملوءة إلى نصفها باللقاح وتحتوى على بيضة مفردة . ثم انظر شكل ٢ فى الصفحة التالية .



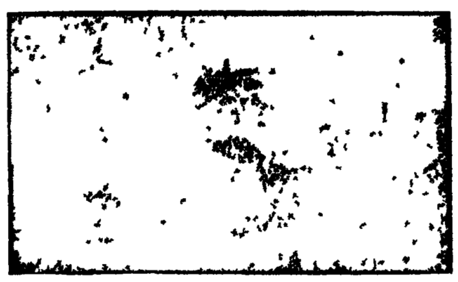
(شكل ٢٠ ـ النحل الثاقب للخشب متعلقا بفكيه فى حالة سكون)

هذا النحل ثاقب الخشب أو النحل النجار يمضى فصل الشتاء فى حالة حياة موقوفة لاعمل له اللهم إلا أنه عادة يبحث عن زاوية ليتخذها مأوى . ثم انظر الشكل الآتى فى الصفحة التالية .



(شكل ٢١ - خلايا النحل ثاقب الخشب)

هذه الخلايا العريضة التى صنعتها النحلة القويه المتينة مصنوعة من قطع خشبية قد اتسقت وانتظمت بواسطة اللعاب الذى يفعل فعل الغراء. ثم انظر شكل ٢٢ الآتى فى الصفحة التاليه.



(شكل ٢٢ - النحل الناقب للخشب وهو خارج من خليته)

هذه الخلايا التى ينمو فيها جنين النحلة تكون عادة فى أروقة مستطيلة بعريش أساسى منقوب فى الخشب، وهذه التى ترى فى أسفل الصورة مفصولة من مركزها الطبيعى والنحل النجار (كما يسمى عادة) أدكن اللون ذو شعر وهو مخترل مستقل له قوة عضلية، وهو بها قوى متين. ثم انظر شكل ٢٣ وهذه صورته



(شكل ٢٣ ـ النحل البناء)

هذا الشكل أبان خليتين وتحلبس . النحل البناء المستقل المنفرد قد صنع عشا فى غاية المتانة والقوة من الأرض مخلوطا بسائل من ريقه ، وهذا الريق يستعمل للصق الحصيات المصطفيات بحذق ومهارة ناميين ، إن الخلايا حينئذ مملوءات إلى أنصافهن بنوعين مما جنته النحلة وهما الطلع والعسل ، وبعد أن توضع البيضة تقفل الخلية بمادة الأسمنت انتهى الكلام على النحل .



(شكل ٢٤ ـ عش زنبار الخشب)

إن عش هذا الزنبور المعتاد يبنى من أغصان الأشجار، أو من الأخشاب ، وهذا قرص معلق على آخر بواسطة حامل عمودى ، والخلايا مغطاة بأغطية مصنوعة أشبه بورق الكتابة عند الانسان (وقد تقدم فى سورة طه) أن الزنبور صنع الورق قبل الأنسان ، وهذه الاغطية تمنع المطر أن يدخل الخلايا وتحفظ الحرارة فى داخلها فتبقى دافئة ، ودرجة الحرارة فى داخل الخلايا قد تكون أعلى منها فى خارجها ٢٥ درجة بميزان فهرنهايت

الخلايا تكون مفتوحة لأجل إدخال الطعام للدود الصغير وهو ذرية الزنابير ، فاذا كبر الدود أخذ ينسج شرنقه ويقفل باب الخلية اقفالا من أعلاها إلى أسفلها . ثم انظر شكل ٢٥ وهذه صورته : (١)

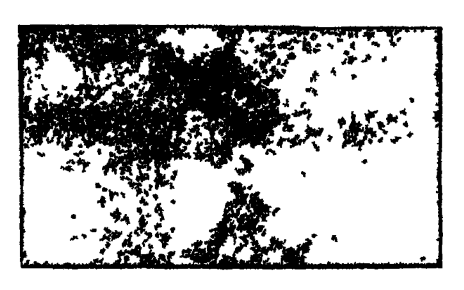
---

(١) هده الصور كلها وما شرحتها به قد ترجمه من مجله «التاريخ الطبيعى الحديد» الباحثة فى عجائب الارض المدهشة وعجائبها الطبيعيه لصاحبها الاستاذ الابرو فسور « اربور تومسون »



(شكل ٢٥ - قطعة من العش ، أوقرص الزنابير من بلاد البرازيل متصله بغصن من الشجرة)

إن الصورة الشمسية [الفوتوغرافية] ترينا طبقات بالعش فتحفظه من الماء والهواء ، وفى داخل خلاياه المسدسة الأشكال ، ينمو البيض فينقلب مافى داخله إلى دود والدود ينقلب شرانق [فيالج] والفيالج تصير زنابير كبيرة والدائرة البيضاء التى تراها عند أسفل العش عبارة عن غصن مقطوع . ثم انظر شكل ٢٦ الآتى فى الصفحة التالية .



(شكل ٢٦ - عش الزنبور البناء)

الزنبور البناء يصنع عشه من الطين فى شقوق الحيطان ويكون العش غالبا بهيئة طينية خشنة بحيث نرى على وجهه لطخ من رشاش الطين غير منتظمة وهذه تكون سببا لنجاة الزنبور من أن يراه أعداؤه ومع ذلك نرى العش مبنيا بمهارة فائقة حافظا لعناصر بنائه مبتنا لها وترى دود الفراش (الذى لسعه الزنبور فلقحه بسمه قد أصبح مشلولا عديم الحركة) مخزونا فى الخلايا ليكون قوتا للذرية فيها ومتى خزن ذلك الدود المشلول فى الخلايا سدها الزنبور وهذه الصوره تظهر اثنتين مقفلتين على الذرية وعلى قوتها فأما غيرهما فلم يكمل . وإلى هنا تم الكلام على الزنابير والحمد لله رب العالمين .

الكلام على النمل

لقد تقدم الكلام على النحل والنمل والعنكبوت فى سورهن ولكن مارسمناه هنا أو كتبناه لم يتقدم نظيره وهو هنا تفسير الميزان العام



(شكل ٢٧ ـ عش نمل الخشب وهو ثلاثة أقدام ارتفاعا)

إن هذا العش النملى المعتاد المصنوع من الخشب مبنى من إبر الصنوبر وقطع من العصى وهو عاليا فوق القدمين ارتفاعا والمحيط

الدائرى أربعون قدماً وترى حجراً لاحصر لعددها وطرقاً شتى فى القبة نفسها وفى الأرض من تحتها وطبعا هناك الآلاف من السكان والمداخل الكثيرة إلى القبة تقفل عند غروب الشمس. ولعل ذلك لتدفع الأعداء الصغيرة من الدخول فيها



(شكل ٢٨ ـ نمل تسوم ماشيتها ، وهى طائر صغير أخضر على غصن من عشب ، وهناك أنواع من النمل تستعمل هذا الطائر الأخضر المسمى «افيد» كأنه قطعان ترعى تحت نظرها فى هذا الشجر المسمى « جوز رى »)



شكل ٢٩ ـ النمل النجار فى عمله

النملة التى فى جهة اليسار الواقفة فى مدخل العش المتخذ فى الخشب هاهى ذه تسلم قطعة من الخشب للعامل (العتال) جهة اليمين الذى شرع يحملها ليلقيها بعيداً .



(سكل ٣٠)

هذا البرج الموحش الغرب الحلقة قد سيده النمل الاسـ ،
فى شرق أفريقيه ان النمل الابيض ايس من أنواع النمل الحقيقى .

ولـكنه يشبهه فى أطواره ، فترى فيه أخلاق الملكة والذكور ، والنمل القائم بالعمل ، والعسكر . أن البرج فى هذه الصورة الشمسية صنعها النمل من مواد الأرض بعد أن مضغها بفكيه وعجنها بريقه ، انتهى ما أردت ذكره فى آية « والسماء رفعها ووضع الميزان » والحمد لله رب العالمين .

هذه صفحة من مناظر هذا العالم الذى نعيش فيه ، هذه صفحة جميلة بهجة ، بالله ما أجمل صنعك ، وأبدع اتقانك ، نظمت الأحجار الثمينة الجامدة فجعلتها أشبه بالبلور فى تسديس أشكالها ، واتقان نظامها ، وجمال هيئاتها ، أريتنا فى هذا الزمان بواطن السمك فدرسنا أعضاءه الباطنه مفصلة عضوا عضوا بما أعطيتنا من نعمة التصوير الشمسى وفاء بوعدك . « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وذلك لنعرف معنى الميزان

ومن أعجب العجب ، وأبدع الخلق مازادنى حيرة ، وأحدث فى نفسى نار الشوق العلمى وهو أمر ذرية الضفادع (التى تقدم صورها والكلام عليها فى الجزء الأول من الطبعة الثانيـة من التفسير) . ألا ترى رعاك الله النوع الأول الذى يترى بيضه فى كرات هلامية تلازمه فى قاع البرك والمستنقعات ، وهناك يكون الميزان ،

فكلما ازداد الماء ثقلا ازدادت الكرات الهلامية انتفاخا حتى تقاوم ذلك الثقل فترتفع ، أليس من عجب أننا نرى رحما موضوعة فى الماء خارج الحيوان ، وهذه الرحم فيها قوة تجعلها مناسبة لما يحيط بها فترفعه بقانون مسنون .

وأعجب من هذا أن نفس هذه الكرات الهلامية إن هى إلا سجن سجنت فيه تلك الذرية ، فهى من جهة رحم لها وحفاظ ، ومن جهة أخرى اذا طال عليها الأمد وفقس الحيوان كانت شرا وبيلا عليه وعذابا أليما ، وهلاكا حاضرا ، فماذا فعلت تلك الحكمة بموازينها ؟ فعلت معها مافعلته دول أوروبا بالنسبة لبلاد الاسلام ، ذلك أن أوروبا فى هذه السنين أرادت أن تستحوذ على بلاد الشرق وخصوصا بلاد الاسلام ، وهل كان أعدى عدو لهذه الأمم إلا دولة الروس التى بعناوأتها لبلاد الصين من جهة وبلاد الترك العثمانيين من جهة أخرى فتحت الباب لفرنسا وانكلترا فأوغلتا فى بلاد الاسلام إهلاكا وتدميرا وإذلالا ، فماذا فعل الله بأوروبا ؟ أخرج لها أناسا من بلادها ، فأحدثوا الرأى الاشتراكى ثم البلشفى ، وهذه البلشفية اليوم أخذت حقها فى بلاد الروسيا وهذه الدولة

الآن هى التى منعت عن بلاد الشرق والإسلام شرها ، وساعدت على استقلال بعض الأمم ، فصارت أوروبا أشبه بجسد قوى أخذ الداء يفتك فيه من نفسه فى داخله ، وهذا هو نفس ما حصل فى بيض الضفادع ، ذلك الذى أحاطت به كرات هلامية فرقته بمقدار ، ولما انتهى عملها مزقت كل ممزق كما تمزق المشيمة عند ولادة الطفل ، وما الذى يمزقها ؟ هى تلك الحشائش الدقيقة التى لا نراها وما يلازمها من حيوانات ذرية ، فهذه كلها تفتك بتلك الكرات فيخرج الجنين سليما معافى من كل شىء يؤذيه .

الميزان واحد فهو فى سياسة الأمم نظيره فى سياسة الأفراد مزقت كرات أجنة الضفادع بمخلوقات نبتت فى باطنها ، هكذا الأمم الظالمة يكون هلاكها بتفريق كلمتها : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون »

مسامرة

ههنا حضر صاحبى العلامة وقرأ هذا الموضوع فسر أيما سرور وأعجب بالصور الشمسية والتعليق عليها وقال هذه صفحة جميلة

أبانت لنا الضار كالزنبور ، والنافع كالنحل ، والأحجار الثمينة ، والحيوانات الجميلة ، وأدركنا كيف تنسج العنكبوت مسكنها وهو نفس شبكتها ؟ وكيف تكون لزجة جميلة ؟ وهذه الصورة الشمسية الأولى من صوره ترينا أن عمله فى بناء بيته يشبه أعمال النساجين ، إذ يبتدئون بالسدى ويقفون باللحام ، ثم كيف رأينا الزنابير يعوزها دود يكون بجانب ذريتها على شريطة أن يكون فى حال شلل ، فأحضر له الأبوان دوداً على هذه الشريطة وبقى حتى فقس البيض وخرجت الذرية وعندها غذاؤها ، ، ولا علم للأبوين بها ، أليس هذا هو الميزان والعجب العجاب ! وكيف كان من تلك الحشرات بناء ، ونساج وثاقب خشب ، وقاطع ورق ، ومتخذ من نحو الجبال بيوتاً ، ومن القواقع ، وكيف رأينا منه ما يعيش وحده كالعرب فى البادية ، ومنه ما يعيش جماعات ، هذا عجب عجاب ! فقلت نعم لله درك ، إن الميزان يجمعها ، وبالميزان كان الضر فى الزنبور ، والنفع فى النحل واجتماعهما فى الأرض عندنا واجتماع كل ضدين من خير وشر يكون استخراجاً لقوانا وملكاتنا ، وتذكرة للعقلاء ، وتبصرة للحكماء ، إن غرائز الحيوان

وعجائبه جعلت فى الأرض تبصرة وتذكيراً ، إن الجسم الإنسانى يعوزه ملبس ومسكن وغذاء ودواء وهواء وماء ، فهذه كلها قوام لجسمه هكذا قوام عقله يكون بدراسة هذه المخلوقات ، فظواهرها لجسمانه ، وبواطنها لروحه ، فإذا قصر فى إحدهما فهو المسئول

بهجة العلم (خواطر للمؤلف)

فى يوم الخميس ٢١ شوال سنة ١٣٥١ ١٦ فبراير سنة ١٩٣٣ استيقظت قبيل الفجر فلم أقم لعبادة وخيل إلى كأنى فى الجو بين السماء والأرض وكان انساناً مصنوعاً من النور جالس بحذائى وأنا أسمعه يقول الحب الحب يكرر هذه الكلمة فقلت فى نفسى ياليت شعرى ما عساه يقول فى أسباب الحب فما كدت أفكر فى هـذا المعنى حتى سمعته يقول جمال وحكمة وعلم وبهجة ونور ونظام

هذه سورة الرحمن وفيها آية ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ان فى البحر لآلاء والآلاء لا إحصاء لعدها ولا نهاية لمداها

فى هذه السماء نجوم ونجوم شموس وشموس وسيارات ، هناك هناك من الشموس ما يعد بمئات الملايين مما يسميها الناس نجوما ثوابت وما هى بثوابت ان هى إلا شموس تجرى حول شموس أكبر منها ، ومنها ما حولها سيارات كثيرة كما فى هذه الشمس ، ومن تلك الشموس ما تجرى أميالا وأميالا فى الثانية الواحدة وكلهن فى الجرى سريعات وقد تباعدت فى أقطارها حتى ان أضواء بعضها لا يصل إلى هذه الأرض الا بعد مئات الملايين من السنين وسرعة الضوء فى الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كيلو متر أو نحو ١٨٥ ألف ميل فهذه الملايين من الشموس المتباعدات الأقطار السريعات الجرى اللاتى لا استقرار لهن وحينما خلقن فى تلك الأقطار لوحظ فى تكوينهن ان يكن علامات لربان السفن الجاريات فى بحار هذه الأرض

ثم بعد أن قال هذا القول رأيت أن هيئته أخذت تزداد نورا وجمالا واشراقا وأخذ يقول : حكمة لا حد لها وجمال لا نهاية له ، أهل الأرض غافلون يقرءون علم الفلك وعلم سير السفن وهم عن الجمال محجوبون هم قوم محبوسون ، ما هذه الحكمة والدقة والنظام

أرض منبوذة نبذ النواة. أرض تجرى حول شمس صغيرة وهذه الأرض لو انها صغرت فصارت جوهرا فردا لكان العالم المعروف للناس الآن لو صغر على مقتضاها لبلغ ألف مليون أرض بحجمها أرض لا حساب لها بالنسبة لمجموع العالم كله هى بالنسبة للعوالم كلها أقل من جزء من مئات من قلامة ظفر انسان واحد بالنسبة لهيئة جسمه . هذه التى هذا وصفها يحسب عند وضع جميع النجوم والشموس حساب قوم يظهرون عليها فى زماننا ويسرعون فى بناء السفن ويسيرون فى البحار ويلهمون فيعرفون ما دبر لهم منذ ملايين السنين من تلك الشموس وأوضاعها المتباعدات الأقطار اللاتى تظهر بهيئة ثابتة لشدة بعدها فيحفظ الربان سفينته بملاحظتها من العطب ويقال فى الكتاب (وبالنجم هم يهتدون)

فليحارب أهل الأرض بعضهم بعضاً وليتحاسدوا وليتباغضوا ما شاءوا وشاء لهم الهوى والجهل والغفلة . انهم عن جمال العلم لمعزولون. انهم فى لجة الجهالة غارقون . أكثرهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون

هذه الحكم البديعية والابداع الشريف العالى يبعث فى قلوب

الأبرار حبا . الحب تابع الجمال ولا جمال الا حيث تكون بهجة الأوضاع و نظام الاصباغ وحسن الابداع . أناس على سفن فى بحار هذه الأرض يلهمون أن يدرسوا علوم الثوابت وعلوم السيارات حتى أن كل دولة من الدول العظيمة تخصص لها ديوانًا لدراسة هذه السيارات ونحوها وذلك لتكون دلائل للربّان فى سير سفن البحار . شمس تجرى وحولها سيارات جاريات يلاحظ فيها جرى السفن حول أرضنا الصغيره.هذه تدهش اللب وتحير العقل ان نتائج هذا الابداع انما هو الحب

ان العقول الكبيرة فى الأرض هى التى تحب ويدهشها ذلك الجمال ، أما العقول الصغيرة وهى عقول أكثر أهل هذه الأرض فانها تحجب بالجزئيات عن الكليات وبالعرض عن الجوهر وبالجزىء عن الكلى

كل له غرض يسعى ليدركه   والحر يجعل ادراك العلا غرضا

والأرواح الكبيرة فى هذه الارض تطير الى العلا وتفارق الملا وتتحد بالروح الكبيرة التى سخرها مبدع العالم لتنظيمه ، وخصها بتدبيره حين يدهشها ذلك التدبير

ويثير ما كمن من حبها ذلك الابداع وذاك التقدير الذى هو السبب فى العشق الجسمى الجزئى الذى هو أشبه بضرب مثل للعشق الاعلى الكلى وقد قيل :

أعانقها والنفس بعد مشوقة
اليها وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاها كى تزول حرارتى
فيزداد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله
سوى أن يرى الروحان يتحدان

كل ذلك من قوله تعالى ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان. فما كاد ينطق بهذه الآية حتى غاب عن عيانى وقد كنت أظن من قبل انى أراه ولا يرانى.فاعترتنى دهشة وحيرة ثم أفقت من غشيتى وكتبت ذلك لساعتى والحمد لله رب العالمين ·

الفصل الرابع

(فى الاجابة على ما سألنى عنه صاحبى)

من أمر تفسير القرآن بعد نشر التاج المرصع اذ قلت :

أيها الاخ انى بعد ان نشرت كتاب التاج المرصع أخذت أنشر فى الجرائد والمجلات تفسير آيات العلوم المستخرجة من القرآن ولما عرف الناس ذلك خاطبنى المرحوم الشيخ مصطفى البابى الحلبى فى تأليف تفسير للقرآن كله منذ عشر سنين فأجبته لذلك وقد انتشر الآن فى بلاد الاسلام وهاهو ذا يطبع منه آخر مجلد عند كتابة هذا الموضوع ليلة الخميس من أيام ذى القعدة سنة ١٣٥١ ١٦ مارس سنة ١٩٣٣ وهو الذى يبتدىء بسورة النبأ وينتهي بآخر القرآن والمجلدات كلها ٢٥ وهذا آخرها. هذا جواب سؤالك أيها الاخ فقال الحمد لله رب العالمين وبهذا انتهى الفصل الرابع

﴿ خاتمة ﴾ فى ذكر ماورد على المؤلف من خطاب أئمة الدين والعلماء فى بلاد الفرس وجواب المؤلف لهم وما دبجه يراع المفضال الأستاذ محمود عرفان الصحفى الهندى تقريظا للكتاب متضمنا

أمرين.الأمر الأول ملخص مافى الترجمتين الهندية والتركية لهذا الكتاب الواردتين فى أول هـذه الطبعة بالتصوير الشمسى .
الأمر الثانى انه يعبر فيه عما يشعر به هو ومواطنوه من الهند نحو المؤلف

وهذه هى صورة الخطاب المرسل للمؤلف من علماء الفرس :

سيدنا الأستاذ العلامة فيلسوف الاسلام الشيخ طنطاوى الجوهرى متع الله المسلمين ببقائه تحية وسلاماً نشكركم جزيل الشكر على ما تقومون به من الواجبات الدينية بنشر الحقائق الاسلامية وإظهارها بمظهر ملائم للعلوم العصرية فقد كانت الأمة الاسلامية فى الأمس وقبل الأمس فى أمسّ الحاجة إلى تفسير يناسب روح العصر ويكشف الستار عن أسرار القرآن ويميط اللثام عن محياه ويفسر غوامض الكون بتفسير الذكر الحكيم فقد كانت حقائق القرآن رغم ما كتب له فى التفاسير لا تزال تختبئ تحت الستار وكانت التفاسير التى تحوم حول حقائق القرآن إلى التصورات الباطنية أقرب منها إلى الحقائق الاجتماعية والعلمية وقد انقضى ذلك العهد . فإن بيان كل عصر وزمان نتيجة عوامل

تناسب تلك الظروف والأحوال . والمسلمون بحاجة إلى تفسير يحلل قواعده وحقائقه العلمية إذاً فلا غرو إذا كان الاقبال على تفسيركم الشريف عظيما . فانكم أنتم المقر والعلم فى العلوم الاسلامية والكونية. وقد أخذ هذا التفسير مأخذاً عظيما من الأهمية فى إيران ولا سيما الجامعة الدينية العلمية التى أسست بقم التى نوهنا عنها فى بعض الصحف العربية سابقاً

وقد كانت العلماء والخطباء لا يزالون يشيرون إلىّ بتقديم وافر تحياتنا وتحياتهم إلى حضرتكم تقديراً لخدمتكم فضممنا صوتنا إلى صوتهم إقامة بتلك الوظيفة مبتهلين إلى الله عز وجل أن يديم على أرحابكم ظل عنايته وألطافه ودمتم موفقين لخدمة العلم والدين وفى الختام نرجو إخباركم انا بأسهل طريق يمكننا من طلب هذا الكتاب فى مصر من حضرتكم أو من المكتبات أو من الناشر وكيفية إيصال الثمن فنحن بأسرع حاجة إليه فالأمل الوطيد الاسراع فى إرسال الجواب فى أول زمان يمكنكم من دون تأخير كى نفتخر بمكتوبكم الشريف ويسهل لنا السبيل لمطالبة الكتاب

مصحوباً بقيمته وتسعيرها بالنقود الايرانية الحالية ودمتم ؟

المخلص

عبد الحسين زين الدين القمى

الأستاذ بالجامعة العلمية بقم

قم ايران المدرسة الناصرية

وهذه صورة جواب المؤلف على الخطاب السابق :

حضرة العلامة صاحب الفضيلة عبد الحسين القمى بالجامعة العلمية بقم

السلام عليكم ورحمة الله أما بعد فقد ورد قبيل أيام العيد الأصغر خطابكم الكريم المؤرخ ١١ شعبان المعظم سنة ١٣٥١ تعربون فيه عما يكنه قلبكم وقلوب أجلة السادة العلماء الايرانيين إجابة للتمسهم ذلك منكم وتقديراً لما نشر من كتبى لاسيما (الجواهر) فى تفسير القرآن الكريم — وتودون لو تعرفون أى الطرق أسهل فى أن يصل إلى بلادكم — وأقول ليس ببدع أن يصدر هذا الصوت من ناحية أبناء الأمة الفارسية العظيمة

العريقة المجد الشريفة المحتد — وفى المأثور عن أوائلنا (وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه) — وأى شرف بعد ماورد فى الحديث النبوى « لو كان العلم بالثريا لناله رجال من فارس »

نعم كان ذلك فهم الدين وطدوا آساس الحكمة فى أم الاسلام ورفعوا منارها وشادوا صرحها وبنوا مجدها على قرار مكين

وأمة هذا تاريخها جديرة أن يحذو الأبناء فيها حذو آبائهم ويجددوا شبابها ويحيوا ما اندرس منها كما كان عليه آباؤهم الأولون ويشيدوا بذكر عمل قليل قام به أخ لهم مصرى مغترف من معين نبع آبائهم معترف بفضل حكمائهم عليه وعلى أمة الاسلام

هـذا ثم إنى سألت ناشر الكتاب بمصر حضرة الفاضل جمال الدين أفندى الحلبي مدير مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر عن أمر إصدار الكتاب إلى بلادكم فأجابنى قائلا إن الأزمة قد عطلت إصداره منذ بضع سنين لعقبات يعسر إجتيازها فلم يسعنى إذ ذاك إلا أن أتوجه لمقابلة صاحب السعادة مرزا جواد بك خان الوزير المفوض لدولة إيران العظيمة . بمصر مع الأستاذ الفاضل محى الدين الكردى

ولقد تركت مقابلة سعادته فى نفسى أحسن أثر لاسيما إذ رأيت أن له بهذا الكتاب وصاحبه خبراً يشارك فيه السادة العلماء ببلاده وقال لى سأقوم برفع كل عقبة تقف فى طريق إيصاله إلى بلادنا فله منى الشكر العظيم بل قال لى حضرة وكيل سعادته إنه (أى الوكيل) أرسل منه بضعة عشر مجلدا لصديق له إجابة لملتمسه فى إيران وتجدون فى خطاب حضرة الفاضل جمال الدين أفندى الحلبى المرسل لكم مع هذا تفصيل إيضاح الطريق لتوصيل الكتاب إلى إيران

أنا لايسعنى تلقاء بث هذه البذور لازدياد التقرب العلمى بين الأمتين الأمة العربية التى مصر أحد فروعها والفارسية التى أنتم أبناؤها البررة الكرام إلا أن أتوقع مستقبلا زاهراً يزيد فى اجتماع شمل الأمتين

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

وهذه صورة ما دبجه المفضال الأستاذ محمود افندى عرفان الصحفى الهندى :

الشخصية البارزة العلامة طنطاوى جوهرى

الاستاذ العلامة طنطاوى جوهرى هو أول رجل فى اعتقادى وقف حياته فى عصرنا لتطبيق العلوم العصرية على الروح الاسلامية وقام لاثبات أن القرآن الكريم هو مصدر لكل علم وفن — وحقاً هذا العمل كبير من قبل العلامة لأنه فتح لنا هذا الباب — خصوصاً فى وقت عصيب شديد الابتلاء ففضله ظاهر من وجهين :

أولا — بسبب معارضة العلماء وغلقهم باب التدبر والاجتهاد فى القرآن .

ثانياً — إبراز العلوم العصرية إلى عالم الوجود بعد اختفائها وحيرة العقول منها ودهشتها كيف يكون الأمر . ان من قل علمهم منا يعتقدون انها تخالف الدين وقد بدءوا يشكون فى أسرار الدين وقام أعداء الاسلام بهجمة عنيفة بادعاء التناقض الظاهرى فعلا ـ وهم يستنتجون منه مخالفة الاسلام للحقائق العلمية.

فى مثل هذا الوقت العصيب قام هذا العظيم وأخرج لنا هذه اللآلىء المكنونة من درر البحار العلمية العميقة ـ وأثبت لنا أن

العلوم الحديثة والعلوم الدينية ليستا إلا فرعين لأصل واحد ولا خلاف بينهما - والقرآن هو كتاب وحيد يبين لنا الأسرار الكونية - ويأمرنا بتدبر مافى الكون - ولكن الانسان كان ناقصاً فى علومه فلم ينتبه إلا اليوم.

هكذا قام الاستاذ العلامة فى ابحاثه الخطيرة - وفتح لنا باباً جديداً فى معارف الاسلام وأنقذ المتشككين من وهدة الارتداد وحولهم من ظلمة الكفر الى نور الاسلام - على ضوء القرآن بتطابق العلوم مع الدين. فام الاستاذ العلامة بهذه الخدمة الجليلة وصرف حياته لهذا المقصد العظيم وألف كتباً قيمة. وأجاد فى أسلوبه الأنيق اللطيف وبطريقه الفلسفى - فهو أعطانا من مجهوده مصباحا منيراً. وسلاحا قوياً فيمكننا أن نخرج بواسطته من ظلمة الشك إلى نور اليقين ونهجم على أعداء الاسلام بأدلة علمية نقلية من الدين.

كان له أسلوب خاص فى تأليف كتبه - حتى أن أوربا اعترفت بعظمته على لسان فلاسفتها واعترف الشرق له إذ ترجم كتبه الى الألسنة الشرقية، وفى مقدمه الأمم فى ذلك الأمة التركية - إذ ترجم التاج المرصع الى لغتها الأديب ذاكر أفندى القادرى.

والهند من جملة البلاد الشرقية التى تعترف بفضله فقام بعض العلماء هناك بترجمة كتبه مثل التاج المرصع الذى كان موضع إعجاب جداً وترجم فى أوائل سنة ١٩٠٨م هناك بقلم الاستاذ محمد عبد الحليم أنصارى ردولوي - وطبعت فى مطبعة وطن على نفقة الاستاذ محمد انشاء الله خان صاحب الجريدة وطن بمدينة لاهور عاصمة بنجاب - وكثيراً ماقرأت فى الجرائد الهندية إذ يذكرون الاستاذ العلامة بكل أدب واحترام كما ذكر الاستاذ محمد عبد الحليم فى مقدمة الكتاب

كتبت هذه السطور اعترافا له وخدمة للحق - وشكراً للأستاذ العلامة عنى وعن إخوانى الهنود المعترفين بفضله فى العلم وبخدمته للدين لأنه أنقذ الكثير من وهدة الضلال ومن هاوية الكفر الى نور الاسلام ببيان العظمة الاسلاميه مع الأدلة والبراهين وله شكر جزيل منا - ودعاء له بطول حياته وازدياد علومه ومعارفه وبث الخير والسعادة فى آله وأولاده آمين؟

محمود احمد عرفان الصحافى الهندى

نزيل مصر

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
١٠١	٦	لم يكتشفه	لم يكشفه
١٠٦	٥	وَرَبٍّ	وَرَبٌّ
١٠٦	٦	رَسُولُكُم	رَسُولَكُم
١٠٦	٦	رَبٍّ	رَبٌّ
١٠٨	٥	لا ليس	لا لبس
١٠٩	٦	والافريين	والاقريين
١١٢	١٢	وَاجَعلَنَا	وَاجْعَلْنَا
١١٦	٩	جاء	جاءت
١١٧	٧	الناس فى	الناس فى كل
١١٨	١٦	بقسطة	بقسطه
١١٩	٥	ابنُ	ابنَ
١٢٠	٧	قوما	قرنا
١٢٠	١٦	بما أيدى الناس وليذيقهم	بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم
١٤٠	٧	فاذاا	فاذا
١٤٢	١٣	تعويد النفس	تعويدا للنفس
١٥٢	١٦	المحزن	المحز
١٥٥	٩	وجيت	وجبت
١٥٦	٨	فسلط	فسلطه

ص	س	خطأ	صواب
١٦٥	١٤	إلا باتباعهم	باتباعهم
١٦٨	٦	مباد	مبادئ
١٧١	١	النظر	والنظر
١٧٢	٤	وثلاثة	وثلاث
١٧٢	٨	سقطت	أسقطت
١٧٣	٢	نحن	نحن أولاء
١٧٧	١٠	والبخر	والبحر
١٨٥	٥	لأقاتلهم	لا أقاتلهم
١٨٨	١١	وتبخر	وبخر
١٨٩	٩	فأصبح	أصبح
١٩٠	٥	هو	هوذا
١٩٧	٧	نتجمل	المجمل
٢٠١	٣	جابة	إجابة
٢٠٢	٧	ن	إن
٢٠٢	١٦	ن	إن
٢٠٤	٣	مالعمل	ماالعمل
٢١٥	١	ينقل السطر الذى فى أول ص ٢١٦ الى أول ص ٢١٥	
٢٢٩	١٠	نظر	قلد
٢٤٣	٦	وهو	وهى
٢٥١	٩	متجهان	متجهتان

فهرس

﴿ تم الفهرست ﴾